بلزاك
الملهاة الإنسانية

- أمير من بوهيمية
- رجل أعمال
- غوديسار الشهير
- غوديسار الثاني

دراسة طبائع
مشاهد من الحياة الباريسية

ترجمة: ميشيل خوري

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

روايات بلزاك ٣٢

twitter @baghdad_library

بلـــزاك

الملهـــاة الانســـانيـة

- أميـــر من بوهيـــميـــة
- رجـــــل أعـــمـــــال
- غـــوديسـار الشـــهـــيـــر
- غـــوديســـار الثـــاني

دراسة طبائع

مشاهد من الحياة الباريسية

ترجمة: ميشيل خوري

منشـــورات وزارة الثقـــافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ٢٠٠٠

مكتبة بغداد

@BAGHDAD_LIBRARY

ج.ج.ع.ح

١- أمير من بوهيمية

دراسة طبائع

مشاهد من الحياة الباريسية

twitter @baghdad_library

العنوان الأصلي للكتاب:

BALZAC
LA COMÉDIE HUMAINE

UN PRINCE DE LA BOHÈME

ETUDES DE MŒURS
SCÈNES DE LA VIE PARISIENNE

الملهاة الإنسانية : دراسة طبائع : مشاهد من الحياة الباريسية = La Comédie humaine/
بلزاك؛ ترجمة ميشيل خوري. - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠ .- ١٩٩ص ؛ ٢٤ سم.
(روايات بلزاك؛ ٣٢).

المحتوى: أمير من بوهيمية، رجل أعمال، غوديسار الشهير، غوديسار الثاني.

١- ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢- العنوان (١) ٣- العنوان الموازي
٤- العنوان (٢) ٥- العنوان (٣) ٦- العنوان (٤)
٧- العنوان (٥) ٨- بلزاك ٩- خوري ١٠- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٢٢٢٢ / ١٢ / ٢٠٠٠

روايات بلزاك
« ٣٢ »

أمير من بوهيمية

إلى هايني[1]

عزيزي هايني

إليك أقدم هذه الدراسة. إليك يا من تمثّل في باريس فكر ألمانية وشعْرها؛ كما تمثّل في ألمانية النقد الفرنسي الحيّ والمرهف؛ إليك يا من تعرف، أفضل من أي شخص، ما يمكن أن يوجد هنا من نقد وفكاهة وحبّ وحقيقة.

دي بلزاك.

قالت السيدة دي لابودري وهي تتناول مخطوطة من تحت مسند أريكتها: «يا صديقي العزيز[2]، ألا تغفر لي، نظراً للضيق الذي نعانيه، إنشائي لقصة بالاعتماد على ما حدثتنا عنه منذ عدة أيام؟.

- كلّ شيء يعتبر مغنماً في الزمن الذي نحن فيه؛ ألم تري مؤلّفين، نتيجة لنقص الابتكار، يكشفون عن قلوبهم وغالباً عن قلوب خليلاتهم للجمهور؟

---

(١)- هايني «هنريتش» (١٧٩٧ -١٩٥٦): أحد أعظم الشعراء الألمان الغنائيين. كما له كتابات نثرية أدبية منها «حكايات عن السفر» باللغتين الفرنسية والألمانية. ذكره بلزاك لأوّل مرة في رسالة للسيدة هانسكا بتاريخ ١٩ تموز ١٨٣٧. وكان يسكن باريس منذ العام ١٨٣١. وقد استشهد بلزاك بإحدى كلماته في هذه القصة مما سيرد لاحقاً. وورد هذا الإهداء في مقدمة النص الأصلي للقصة في نشرها لدى سوفرن.

(٢) محدّث السيدة دي لابودري هو راولْ ناتان الذي سيرد اسمه فيما بعد.

twitter @baghdad_library

سنصل إلى يوم يا عـزيزتي، نبـحث عن مـغـامـرات لارغـبـة في المتـعـة بأن نكون أبطالها، بل حبّاً بأن نتحدث عنها.

- أخيراً قمتَ أنت والمركيزة دي روشفيد بتسديد إيجارنا، ولا أعتقد، وفقاً لما تجري عليه الأمور، انني سأستطيع تسديد دينكما.

- من يعلم! قد تحظين بمثل حظّ السيدة دي روشفيد الطيّب.

- أتعتقد أن عودتي إلى زوجي هي حظ طيب.

- كلاّ، إنّما هي فقط ثروة كبيرة[1]. هيّا إنني مصغ إليك».

وتقرأ السيّدة لابودري مايلي:

يتم المشهد في صالة رائعة من أحد مساكن شارع شارتر -دو -رول، حيث كان يجلس أحد المؤلفين من الأكثر شهرة في هذا الزمن على أريكة مضاعفة قرب مركيزة شهيرة تربطه بها علاقة حميمة، كتلك التي يجب أن تكون بين رجل متميّز وامرأة تحرص على وجوده إلى جانبها، لا بوصفه حلاً عارضاً، بل باعتباره ملاطفاً أثيراً، وعاشقاً مقبولاً محتملاً.

قالت: «إيه وبعد، هل وجدت هذه الرسائل التي حدّثتني عنها البارحة، والتي لا يمكنك دونها أن تقصّ عليّ كلّ ما يتعلق به؟

- انّها معي!.

- الكلام لك، وأنا مصغية كطفل تقصّ عليه أمّه حكاية «الشريط الأخضر الكبير الملتف[2]»

---

(١) كل هذا المقطع كثير التلميح. فناتان والمركيزة «سدّدا إيجار» السيدة دي لابودري لأن القصة التي كتبتها ستؤمّن لها بعض المال. وبالمقابل فإن الفاقة التي تركها بها عشيقها لوستو (انظر ربة وحي المقاطعة) جعلتها لاتؤمّل بإمكان رد الجميل لناتان -لا بالمعنى الحقيقي ولا بالمجازي- فهي ستعود إلى زوجها لتجد الثروة لكن لتفقد الحب والمغامرة والحياة الباريسية.

(٢) قصة للأطفال للسيّدة دي أولنوا (١٦٥٠ -١٧٠٥). وقد أعيد طبعها في العام ١٨٣٤

- إن الشاب المعني واحد من هؤلاء المعارف الذين نسميهم أصدقاء. وهو نبيلٌ، حضوره كتعاسته، كلاهما لامتناهيان، كلّه نوايا طيّبة، متحدّث بارع، ذو خبرة واسعة رغم حداثة سنّه. وهو ينتمي إلى البوهيمية[1]، بانتظار ما هو أفضل. البوهيمية التي يجب أن نطلق عليها اسم مذهب[2] جادة الايطاليين، وهي تضمّ شبابا تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين، وجميعهم عباقرة، كلٌّ في مجاله، مازالوا غير معروفين، لكنهم سيشتهرون يوماً وسيصبحون عندئذ رجالاً مرموقين. سبق أن تميّزوا في أيام الكرنفالات، حيث يمكنهم أن يفرغوا ما في نفوسهم من طاقة مشحونة ومنحصرة في باقي أيام السنة، ليعبروا عنها بابتكارات أكثر أو أقل مجوناً. في أي عصر نحن نعيش؟ أي سلطة حمقاء تترك هذه القوى الواسعة فريسة للضياع؟ يوجد في البوهيمية دبلوماسيون قادرون على أن يحبطوا مشاريع روسية لو يشعرون أنهم مدعومون من فرنسة. يصادف فيها كتاب، وإداريون، وعسكريون وصحفيون، وفنانون. أخيراً إن جميع أصناف القدرة والفكر ممثلة فيها. إنّهم عالم مصغّر. ولو أن امبراطور روسية اشترى بوهيمية بتخصيص نحو عشرين مليوناً لها، ونقل المنتمين إليها إلى أوديسا، إن ارتضوا ذلك، لغدت أوديسا، خلال سنة باريس[3]. هنا توجد الزهرة غير المستفاد منها، والمعرضة

(١) البوهيمية بالمعنى الذي قصده بلزاك: مجموعة من الشباب يشكّلون فئة اجتماعية تعيش بدون ضوابط أو موارد تستند اليها. وقد وردت بهذا المعنى تقريباً لدى فنلون، وكذلك لدى لرو، وجوبي وغوم، ومعجم الأكاديمية.

(٢) نحو العام ١٨١٨ وُجد «المذهبيون» بزعامة روّايه -كولار، وهم لايؤمنون بالحق الالهي، ولا بالسيادة الشعبية ويعتبرون العقل اسمى من هذا وتلك. وفي الفترة التي وضع بها بلزاك قصته هذه، كان «المذهبيون» قد ناصروا غيزو الذي كان وزيراً للمعارف من ١٨٣٢ -١٨٣٧ -وهو آنذاك سفير في لندن. ثم غدا رئيساً للحكومة ١٨٤٧ -١٨٤٨.

(٣) كان الوضع السياسي العالمي متوتّراً في صيف العام ١٨٤٠، فانكلترة، وبروسية، والنمسة، وروسية شكّلت حلفاً ضد محمد علي باشا والي مصر لمنعه من التغلّب على السلطان العثماني وتهديد القسطنطينية، بينما كانت فرنسة متعاطفة مع محمد علي باشا. وكان بلزاك يكره سياسة بيير، في هذه القضية (وبصورة عامة) وهو معجب بروسية التي قال عنها في ذات العدد من صحيفة «المجلة الباريسية» الذي نشرت به قصة «أمير من بوهيمية» (إنها القوة المستندة إلى المبدأ الديني والمبدأ الملكي مجتمعين).

twitter @baghdad_library

للذبول، زهرة هذه الشبيبة الفرنسية الرائعة التي تعهدها نابوليون ولويس الرابع عشر. وأهملها منذ ثلاثين سنة عهد حكم الشيوخ الذي يذبل في ظلّه كل شيء في فرنسة. شبيبة جميلة، قال عنها الأستاذ تيسو[1]، وهو رجل لا يشتبه بحكمته «هذه الشبيبة، كانت جديرة بحق، فاستخدمها الامبراطور في كل المجالات، في مجالسه الاستشارية، وفي الإدارة العامة، وفي المفاوضات المحفوفة بالصعاب أو المليئة بالمخاطر، وفي حكم البلدان المستولى عليها، فحققت آماله في كل مكان، كان الشباب بالنسبة إليه كروّاد شارلمان المرسلين»[2].

كلمة البوهيمية تعبّر لكم عن كلّ شيء، لا تملك البوهيمية شيئاً، وتحيا مما لديها، الأمل ديانتها، والإيمان بالذات شريعتها. والمحبّة ذخرها وميزانيتها. جميع هؤلاء الشباب أكبر من بؤسهم، وهم أدنى من الثروة، ولكنهم أعلى من القَدَر. متعلقون دوماً بكلمة إذا، فكهون كالمسلسلات، منشرحون كما ينبغي. ايه! وما ينبغي هو بقدر مايشربون! وأخيراً، وهذا ما أريد الوصول إليه، هم جميعاً عاشقون، ولكن أي عشق! . . . تصوروا لوڤلاس، وهنري الرابع، والوصي على العرش، وڤرتر، وسان برو، ورينه، والمارشال دي ريشليو[3] مجتمعين في رجل

---

(١) بيير فرنسوا تيسو (١٧٦٨ -١٨٥٤) كان يشغل منذ العام ١٨١٣، مع بعض فترات انقطاع كرسي تدريس الشعر اللاتيني في كوليج دو فرانس. وهو عضو الأكاديمية منذ العام ١٨٣٣.

(٢) روّاد مفوضون كان شارلمان يرسلهم إلى المقاطعات يفتشون الادارات ويفحصون حسابات المدن ويبتّون في الأحكام النهائية باسم العاهل الملك.

(٣) عشاق وهميون أبطال روايات: لوفلاس الشخصية في رواية كلاريس هارلو لريكاردسون، وفرتر بطل رواية «آلام فرتر لغوته، وسان برو بطل رواية هلويز الجديدة لجان جاك روسو، ورينه بطل رواية شاتوبريان بذات الاسم أما الشخصيات الحقيقية التي اشتهرت بمغامراتها: هنري الرابع (١٥٥٣ -١٦١٠) ملك فرنسة من العام ١٥٨٩ حتى ١٦١٠ ثم الوصي على العرش فيليب دورليان من ١٧١٥ -١٧٢٣ أي حتى بلوغ لويس الخامس عشر سن الرشد وأخيراً المارشال ريشليو (١٦٩٦ -١٧٨٨) أحد أنسباء الكردينال. وما يجدر ذكره أنه حضر عمادة لور هينر التي ستغدو السيدة دي برني خليلة بلزاك، وقد كانت أمّها عازفة على القيثارة لدى الملكة في العام ١٧٧٧.

واحد، وعندها تكونون فكرة عن عشقهم. وأي عاشقين! فهم اصطفائيون بامتياز في الحبّ، يقدّمون الهوى كما تشتهي كل امرأة؛ قلوبهم تشبه قائمة الطعام في مطعم؛ وقد وضعوا في التطبيق كتاب ستندال «عن الحب» دون أن يدروا، وربّما دون أن يقرؤوه. يعرفون الأصناف جميعاً: الحبّ المتأنّق، والحب العاصف، والحب المتقلّب، والحبّ المتبلور، وخاصة الحبّ العابر. وكل شيء جيّد بالنسبة لهم. وقد ابتكروا هذه الحكمة الساخرة: «جميع النساء متساويات أمام الرجل». إن نصّ هذا الموضوع أكثر قوّة وبما أن الفكر فيه زائغ في رأيي فأنا لاأتمسك بحرفيته. فصديقي يا سيدتي يسمى غابرييل -جان -آن -ڤيكتور- بنجامن -جورج -فرديناند -شارل -ادوار روستيكولي كونت دي لا پالفرين. وقد وصل آل روستكولي إلى فرنسة مع كاترين دي مديسي. وكانت سلطتهم قد نزعت عن إقطاعية صغيرة في توسكانية، وهم على صلة نسب بعيدة مع آل دِست، وقد تحالفوا مع آل غيز وقتلوا كثيراً من البروتستنت خلال مذبحة سان بارتلمي ومنحهم شارل التاسع حق وراثة كونتية لابَالفِرين التي صودرت من دوق سافوا، والتي اشتراها مجدداً هنري الرابع منهم تاركا لهم اللقب، وارتكب هذا الملك الكبير حماقة إعادة هذه الإقطاعة إلى دوق سافوا. وبالمقابل فإن كونتات لابالفرين، الذين كانوا يحملون، قبل أن يكون لآل مديسي شعارات، الفضة على صليب مزنبق باللازورد (وهو الصليب المزنبق برسائل براءة من شارل التاسع) يعلوه تاج الكونتيه ويحمله قرويان وقد سجّلت عليه باللاتينية «بهذه العلامة سننتصر»[1] قد منحوا إقطاعتان من التاج وحكومة. ولعبوا دوراً هاماً في عهد آل ڤالوا وحتى شبه ملكية ريشليو، ثم ضعفت هيبتهم في عهد لويس الرابع عشر، وافتقروا في عهد لويس

(١) يستخدم بلزاك بعد التحريف شعار عائلة حقيقية هي عائلة آل اسغريبي وهو «بهذه العلامة ستنتصر» وهو تذكرة بالكتابة العجائبية التي بدت للامبراطور قسطنطين ودفعته إلى التنصّر والإيمان المسيحي في العام ٣١٥.

twitter @baghdad_library

الخامس عشر، فجدُّ صديقي قضى على كل ما بقي لهذا البيت الشهير بتبذيره في الإنفاق على الآنسة لاغير[1] قبل أن تعاشر بوره[2].

كان والد شارل ادوار ضابطاً لايملك أي ثروة في العام ١٧٨٩، وخطرت له الفكرة الطيّبة في أن يتسمّى روستيكولي وساعدته الثورة على ذلك. وكان قد تزوّج خلال حروب إيطالية فليونة[3] الكونتة ألَباني[4]، وهي فتاة من آل كابوني[5]، وهكذا فإن آخر من حمل كنية لابالفرين كان عقيداً من أفضل ضباط الجيش، فأنعم عليه الامبراطور بوسام كوماندور في جوقة الشرف، وجعل منه كونتاً وكان في العقيد ميل خفيف في العمود الفقري، فقال ابنه وهو يضحك من هذا الموضوع: «إنّه كونت مغشوش». فاللواء الكونت روستيكولي، الذي مُنح رتبة لواء في راتيسبون، توفي في ڤيينا بعد معركة وَغرام بعد أن سُمّي في ميدان المعركة لواء قائد فيلق. وكان اسمه، وصيتُه الإيطالي وجدارته تؤهّله، لو بقي حياً، عاجلاً أو آجلاً، لحمل عصا المارشالية، ولأمكنه في عهد الملكية الثانية أن يعيد الشهرة إلى عائلة آل بالفرين الكبيرة التي لَمَعت منذ القرن الحادي عشر باسم روستيكولي وخرج منها أحد البابوات، وثارت مرتين على مملكة نابولي، وكانت في منتهى الجلال في عهد آل ڤالوا، وفي منتهى المهارة بحيث أن لآل لابالفرين، رغم كونهم من زعماء فتنة المقلاع[6]، كيانهم في عهد لويس الرابع عشر، وقد أحبهم مازارن إذ

---

(١) هي المغنيّة ماري -جوزفين لاغير، وقد وُلدت في العام ١٧٥٥ وتوفيت في الثامنة والعشرين من عمرها بعد إدمانها على الكحول، لكن بلزاك في رواية «الفلاحين» يجعلها تعيش حتى العام ١٨١٥.

(٢) بوره (١٧١٠ -١٧٧٧): متعهد ضرائب ثري شهير.

(٣) فليونة: FILLEULE: هي الابنة بالعماد، وكانت العائلات العريقة تعتبرها بمثابة الابنة الحقيقية.

(٤) الكونتة ألباني (١٧٥٢ -١٨٢٤): زوجة المطالب بالعرش شارل ادوار ستيوارت، وابنة عائلة ايطالية عريقة.

(٥) آل كابوني: عائلة فلورنسية شهيرة أزاحها آل مديسي في القرن السادس عشر. وربّما تعرف بلزاك على جينوكابوني، المولود في العام ١٧٩٢ وهو زعيم الحزب الليبرالي المعتدل في توسكانية منذ العام ١٨٢١.

(٦) فتنة المقلاع: (١٦٤٨ -١٦٥٢): فتنة قامت ضد الكردينال مازارن قبل بلوغ لويس الرابع عشر سن الرشد وسببها تشدّد الحكومة في فرض الضرائب، لكنها تطوّرت إلى ثورة حقيقية قام بها بعض الأمراء لكنها انتهت إلى هزيمتهم وتوطيد السلطة الملكية.

عرف فيهم بقيّة من مزايا التوسكانيين. وفي الوقت الحاضر عندما نسمّي شارل أدوار دي لا بالفرين، لا يوجد ثلاثة من مئة شخص يعرفون ما كان شأن آل بالفرين؛ بالرغم من أن آل بوربون تركوا من سلالة فوا-غريي[1] المتفرعة عنهم أحد الأحياء وهو رسّام يعيش من ريشته! آه لو تعرفون بأي روح يتقبّل إدوار دي لابالفرين هذا الوضع الغامض! وكم يسخر من بورجوازيي ١٨٣٠؛ وبأي طلاوة، ورهافة ذوق! لو أن للبوهيمية أن تنصّب ملكا، لكان ملكها. فقريته لا تنفذ، ويعود إليه الفضل في وضع خارطة لبوهيمية وأسماء القصور السبعة التي لم يجدها نوديه[2].

قالت المركيزة: هذا هو الشيء الوحيد الذي ينقص إحدى أكثر سخريات عصرنا فكاهة[3]

تابع ناتان: إن بعض نوادر صديقي لابالفرين تعينك في الحكم عليه[4]: وجد

---

(١) فوا-غريي: يحتمل أنّه ڤيكتور دي غريي (١٨٠٤-١٨٨٩) وهو تلميذ برتن، وسبق لبلزاك أن ذكر في «حجرة العاديات القديمة» أن هناك أسماء بمثل شهرة البيوت المالكة ومنها فوا-غريي قد أحيطت-«لعدم ثرائها والثروة قوة العصر» بتعتيم يشبه الإنطفاء.

(٢) نوديه، شارل (١٧٨٠-١٨٤٤): أديب وكاتب فرنسي، كان قيّماً لمكتبة الارسنال، وهنا تلميح إلى أحد أفضل مؤلّفاته «تاريخ ملك بوهيمية وقصوره السبعة».

(٣) كان بلزاك من المعجبين بمؤلّف نوديه تاريخ ملك بوهيمية وقصوره السبعة (الذي صدر لدى دلانغل العام ١٨٣٠)

(٤) من المحتمل تفكير بلزاك بمجموعة النوادر التي بدأت بشخصية اللورد أرسويل، وكان آنذاك في قمة شهرة كرنفالية ذات سمعة سيئة، وكانت أخبار الصحف والرأي العام تخلط بين هذا العيّاش واللورد هنري سيمور مؤسّس الجوكي كلوب الخاصة، وهو نبيل مُترف، إنما بتميز آخر ولم تجرؤ إلا بعض المقالات في عصر بلزاك على التأكيد بأن لا علاقة لسيمور بفظاظات مقلّده بطل حادثة «نزلة كورتيل» وغيرها. وفي العام ١٨٦٤ فقط بيّنت الفيغارو بمقال لشارل يريارت هوية منافس هنري سيمور: وهو شارل لاباتو (١٨٠٦-١٨٣٥) كما أن كتاب جاك بولنجه المتغندرون LES DANDYS (١٩٠٧) المخصّص لبعض مظاهر الحياة في الجادة أيام لويس فيليب دقّق جيّداً في هذا الموضوع وميّز نهائياً بين لورد سيمور ولاباتو، فهذا الأخير وحده منح الحياة للورد أرسويل القليل الاعتبار (بدليل عدم تسبيق اسمه بدلالة النبل «دي» في العام ١٨٤٠ سواء أكان بلزاك مقتنعاً أو غير مقتنع بالشائعات التي ←

twitter @baghdad_library

لابالفرين يوماً أحد أصدقائه، وهو من البوهيمية، في جدال مع أحد البورجوازيين الذي اعتقد أنه قد أهانه على الجادّة. والبوهيمية شديدة التغطرس تجاه السلطة الحديثة، والأمر يتعلّق بمبارزة. سأل لابالفرين وقد غدا بأنفة لم يسبقه اليها لوزون[1]: «لحظة، هل السيّد كريم المحتد؟ رد البورجوازي: كيف، أيّها السيد؟..

- نعم، هل أنت كريم المحتد؟ ما اسمك؟

- غُودِن.

قال صديق دي لابالفرين: ماذا؟ غُودِن!

ردَّ لابالفرين مقاطعاً صديقه: لحظة يا عزيزي، توجد عائلة تريغُودِن[2]، هل أنت منهم؟ ردّ البورجوازي مندهشاً: كلاّ.

- هل أنت إذا من الأدواق الجدد على الطراز الإمبراطوري كدوق دي غايت[3].

- كلاّ.

خلطت بين هنري سيمور مع مؤلف التهريجات السيّئة، فقد ساد بعض اعتقاد بأن دعابات لابالفرين، حيث الارستقراطية ليست في الغالب إلا نوعاً من التعالي والازدراء للضعفاء، قد وردت من الفكرة غير الدقيقة التي شكّلها الرأي العام، عامّة، في تلك الفترة عن الكائن المشكوك به المتخفي خلف قناع الأرسويل إذ وجد بعض شبه مثلاً بين دعابات لابالفرين (وخاصة حادثة ابن مقاطعة السافوا الصغير والأعناب التي سيرد ذكرها) وسلسلة من النوادر ذكرها جان سترن في كتابه «لورد سيمور الملقب بالميلورد لارسويل (باريس -لابارتين ١٩٥٤ ص: ٦٦ -٦٩) لكن الرأي غير جازم إنما يوجد ببساطة تقارب في روح الدعابة.

(١) أرمان لويس دي غونتو، دوق دي لوزون ثم دي بيرون (١٧٤٧ -١٧٩٣): ضابط لامع، وغاوٍ ومبذّر ظهرت «مذكرات» باسمه في باريس العام ١٨٢٢، ويمكن أن يكون بلزاك قد رأى أو قرأ الفصلين المعنونين «لوزون» ومثلا في فودفيل بتاريخ ٢٤كانون ثاني ١٨٤٠ (بيبلوغرافية فرنسة ٢٢شباط ١٨٤٠.

(٢) ورد اسم «تريغودن» في كوميديا القطاف لرينيار التي مثّلت في باريس العام ١٨٢٣، وفي «مودست مينيون» يحرف بلزاك اسم ريغوردن الوارد في تمثيلية هزلية قصيرة «فودفيل لبيكار وراده إلى تريغودن.

(٣) تلميح إلى شارل غُودِن (١٧٥٦ -١٨٤١) الذي كان وزيراً للمالية طيلة العهد الامبراطوري ومنح لقب دوق دي غايت.

- وبعد كيف تريد من صديقي، الذي سيكون، سكرتير سفارة، وسفيراً، ويتوجب عليك أن تقدّم له كل الاحترام، أن يبارزك! غُودِن! هذا لا وجود له، فأنت لاشيء، يا غُودِن! وصديقي لايمكن أن يبارز الفراغ. عندما ستصبح شيئاً يملئ الفراغ، يمكن مبارزتك، أما الآن، يا عزيزي، فوداعاً!.

وأضاف الصديق: احتراماتي، للسيدة زوجتك».

وفي أحد الأيام، كان لابالفرين يتنزه مع أحد أصدقائه الذي رمى عقب سيكاره، فسقط على وجه أحد المارّة الذي تكدّر وغضب، وعلّق الكونت الشاب على ذلك بقوله:

«لقد مسحت نار خصمك، فكرامتك محفوظة».

وكان مديناً بألف فرنك لخيّاطه، وبدلا من يأتي هذا الخياط بنفسه للمطالبة بها، أرسل صانعه ذات صباح إلى لابالفرين، ووجد الصانع المدين التعس في الطابق السادس في نهاية فناء ضيّق أعلى ربَض رُول. ولم يكن في الغرفة أي أثاث، بل سرير ومنضدة، ولكن أيّ سرير وأي منضدة! ووجد لابالفرين المطالبة خرقاء وقال لنا عنها بأنه يصفها غير جائزة في الساعة السابعة صباحاً، فأجاب الصانعَ وهو يقف كوقفة ميرابو[1] ويقوم بحركته نفسها: «اذهب وصف لمعلمك الوضع الذي وجدتني فيه!» وتراجع الصانع وهو يعتذر. ورأى لابالفرين الشاب مايزال على العتبة فنهض وهو في الحالة المصوّرة بأبيات «البريتانيكوس»[2] وقال له: «انتبه إلى السلّم! لاحظ جيّداً السلّم، حتى لاتنسى أن تحدّث معلمك عنه».

---

(١) ترى السيدة دي مينينجه هنا تلميحاً إلى لوحة جدارية لهيس تمثّل ميرابو وهو يرد على المركيز درو -بريزه وهي لوحة فازت في المسابقة التي أجرتها وزارة المالية حول هذا الموضوع في نهاية العام ١٨٣٠ ووضعت في المجلس.

(٢) تلميح إلى نيرون وهو يستذكر جوني شبه عارية (في المشهد الثاني من الفصل الثاني من البريتانيكوس مأساة راسين -التي ظهرت في العام ١٦٦٩)

جميلة دون زينة وفي الغلالة البسيطة
التي تكشف عن الجمال الذي انتزع من غفوته.

twitter @baghdad_library

في أي وضع تقذف المصادفات، لا بالفرين إليه، لا يعاني أي ضيق، ولا يفقد سرعة البديهة ولا يظهر أي استياء. وهو يبسط دائماً وفي كل شيء عبقرية ريفارول[1]، ورقّة النبيل الفرنسي الكبير، وهو الذي ابتكر الطُرفة الممتعة عن صديق المصرفي لافيت وقد حضر إلى مكتب الاكتتاب الوطني المقترح لإنقاذ قصر هذا المصرفي حيث خُطّط لثورة ١٨٣٠[2] وهو يقول: «هوذا خمسة فرنكات أعيدوا لي مئة فلس» وقد سُجّلت هذه الطرفة في صورة كاريكاتورية[3]. وشاء سوء حظه، إن استخدمنا أسلوب قرار الاتهام، أن يسبّب الحمل لفتاة، وهرعت الفتاة الساذجة تعترف بخطئها لأمّها، وأسرعت البورجوازية الطيّبة إلى لابالفرين تسأله عما ينوي فعله. فأجاب: «ولكنني يا سيدتي، لست جرّاحاً ولا قابلة».

وانهارت المرأة، لكنها عادت إلى الموضوع بعد ثلاثة أو أربعة أعوام، وهي تلحُّ وتسأل دائماً لا بالفرين عما ينوي فعله. فأجاب: «أوهَ، يا سيّدتي، عندما يبلغ هذا الطفل سن السابعة، وهو العمر الذي ينتقل فيه الأولاد من أيدي النساء إلى أيدي الرجال... (وبدرت من الأم حركة موافقة) وإذا كان هذا الطفل فعلا مني

---

(١) ريفارول (١٧٥٣ -١٨٠١) كاتب وصحفي فرنسي، مؤلف «خطاب حول شمولية اللغة الفرنسية -١٧٨٤».

(٢) المصرفي جاك لافيت: (١٧٦٧ -١٨٤٤) موّل أولاً صحيفة «الناسيونال» واستقبل في قصره نوّاب المعارضة بتاريخ ٢٩ تموز ١٨٣٠، وغدا وزيراً بعد ثورة تموز وتولى لويس فيليب العرش، ثم رئيساً للوزراء بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٨٣٠، وعندما تخلّى عن منصبه في ١٢ آذار ١٨٣١ كان على شفا الإفلاس نتيجة الأزمة الاقتصادية ولتبذيره المفرط، فعمد إلى بيع أملاكه في ميزون لافيت وغابة برتوي. ولم ينقذ قصره في شارع آرتوا -الذي سُمّي شارع لافيت منذ العام ١٨٣٠ -إلا بفضل الاكتتاب الوطني الذي لمّح إليه بلزاك، كما تمّ إنقاذ مصرفه من الإفلاس بفضل ذلك الاكتتاب إنّما إلى حين.

(٣) في صحيفة «الكاريكاتور»! بتاريخ ٢٨ آذار ١٨٣٣) صوّر الملك لويس فيليب يقف أمام شباك مكتب تعلوه يافطة كتب عليها «اكتتاب للسيد لافيت» وهو يقول «إنني أكتتب للصديق المدين له، هوذا مئة فلس، أعيدوا لي خمسة فرنكات».

(وصدرت عن الأم حركة استغراب)، إن كان يشبهني بشكل بيّن، وإن وعد بأن يكون نبيلاً، وإن تعرفت فيه على طريقتي في التفكير، وخاصة على ملامح الروستيكولي، أوه! عندئذ (حركة جديدة من الأم)، قسماً بشرفي كنبيل، سأعطيه... أحد عيدان سكر القصب!».

كلّ هذا، إذا سمحت لي باستخدام أسلوب السيّد سانت -بوف في سيره المجهولة[1]، هو الناحية الفرحة، اللعوب، إنّما التي حلّ بها الفساد من جيل قوي يُحسّ بجوّه المماثل لجو بارك -أو-سرف، لا بجوّ قصر رامبويه[2]. إنّه ليس جيلُ الرحماء المتحننين»[3]. وأنا أكثر ميلاً للقول بأنه أقرب إلى الفجور مما تقتضيه الطبائع اللامعة، الشهمة. لكن هذا الانسان الدمث الغزل من صنف المارشال ريشليو،

---

(١) بدء معارضة سانت -بوف عن شذرات وردت في الجزء الأول من «بور -رويال» (نشر رندويل ١٨٤٠) وتعبير «سيره المجهولة» هو صدى لمقال نشره بلزاك في المجلة الباريسية يعيب فيه على سانت بوف دراسة بور رويال دون رؤية كلّية، وإنما بالانصراف بالعكس إلى نبش ذخائر [...] أشباه القديسين المنسيين من الجميع (المجلة الباريسية، ٢٥آب ١٨٤٠، ص: ٢٠٧)

(٢) بارك -أو-سرف: قصر صغير يقع في رقم ٤مكرّر، شارع سان مدريك في فرساي، كان مقراً من العام ١٧٥٥ إلى ١٧٧١ للقاءات لويس الخامس عشر الغرامية: فجعلته الشائعات رمزاً لفساد ملكي مترف ومنحطّ، بينما كان قصر رامبويه الذي اختفى بعد انتهاء توسّعات اللوفر مقراً لأكبر الصالونات الأدبية في القرن السابع عشر، ومركزاً لتنقية اللغة في عهد المركيزة دي رامبويه (١٥٨٨ -١٦٦٥).

(٣) تلميح للتباين الذي ذكره سانت بوف بين القديس فرنسوا دي سال، وعالم اللاهوت سان سيران الممثلين بالنسبة إليه لخطين «من الفكر المسيحي»: خط (الرحماء المتحننين) وعلى رأسه القديس فرنسوا دي سال (١٥٦٧ -١٦٢٢) مطران جنيف المولود في قصر سال قرب آنّسي ومؤلف «المدخل إلى الحياة الورعة» و«المفصل في محبة الله» وقد أنشأ «رهبنة الزيارة مع الراهبة جان دي شانتال وخط (الحازمين، الأقوياء والمتحمسين) ويمثّله عالم اللاهوت سان سيران واسمه جان دو فرجه دي هوران (١٥٨١ -١٦٤٣) وكان مديراً للارشاد في دير بور-رويال في باريس، وهو صديق ونصير لجانسينيوس (١٥٨٥ -١٦٣٨) المطران الهولندي مؤسّس الجانسنينية القائمة على مبادئ القديس أوغطينوس (٣٥٤ -٤٣٠) في النعمة الالهية والجبرية والتشدّد في الايمان.

twitter @baghdad_library

البَطِر[1] وربّما كثيراً في الدعابة؛ قد يكون أحد إفراطات القرن الثامن عشر، وهو يلتحق بمؤخرة الفرسان، مما يلحق الضرَرَ بشامبسنتز[2] لكن هذا المتقلب بتمسك بتزويقات وزخرفات بلاط آل ڤالوا[3]، يجب اظهار القسوة في عصر بمثل أخلاقيات عصرنا ضد هذه التهوّرات، لكن عود سكر القصب هذا يمكن أن يبيّن للفتيات خطر هذه المعاشرات الممتلئة بالأحلام أولاً، الأكثر ظرفاً منها قسوة، الوردية والمزهرة، لكن مما لاتها ليست مراقبة، وتفضي إلى إفراطات منضجة، وإلى أخطاء ممتلئة بالاضطرابات المبهمة، وإلى نتائج كثيرة الاهتزاز[4]. هذه الطرفة تصوّر ذهن لابالفرين الحاد والكامل، إذ أن فيه «البين بين» التي أرادها باسكال؛ فهو متسامح وقاس؛ مثل إبامينونداس، كبير من النهايتين[6]. وهو ليس مولّداً

---

(٢) وصف سانت بوف مطران بلّي «جان بيير كاموس» المتحمّس لسان فرنسوا دي سال «إنّه أليشع البَطِر بإيليا المتألّق» (كتاب بور رويال ص: ٢٥٤) وتناول بلزاك هذه العبارة بسخرية في مقاله عن بور -رويال المنشور في المجلة الباريسية بتاريخ ٢٥آب ١٨٤٠.

(٣) الفارس دي شامبسنتز (١٧٥٩ -١٧٩٤): ماجن ذائع الصيت، صديق ومساعد لريفارول.

(٤) فرع آل ڤالوا الملكي انطفأ بموت هنري الثالث في العام ١٥٨٩: وهنا تلميح ممكن لميول شذوذ جنسي للاپالفرين.

(٥) يعيب بلزاك هنا على سانت بوف استعمال اسم الفاعل كصفة وإلى جمع كلمات تتنافر سويّة.

(٦) يلخص بلزاك هنا فكرة لباسكال وردت بشكل غير صحيح لدى سانت بوف، ونحن هنا نصحّح النص: «أنا لا أعتبر الافراط في فضيلة ذا قيمة، إذا لم أر في ذات الوقت الإفراط في الفضيلة المقابلة لها كإبامينونداس الذي بلغ نهاية البسالة ونهاية الهَوَن، إذ أن هذا لايعني الصعود بل الهبوط، إنّما يجب ملامسة الاثنين في آن واحد وإملاء ما بين بين» (باسكال: الفكرة ٦٨١ في لافوما أو ٣٥٣ في برنشفيغ) ويأخذ بلزاك على سانت بوف تبنيه هذه الفكرة دون شرح وتقصّ ويناقش طويلاً صحتها فيقول: «... إن عكس الفضيلة الرذيلة أو النقيصة، ولا توجد فضيلة معاكسة لأخرى. والبسالة المفرطة ليست عكس الهون أو لطف التأثير. وأنا أرغب تماماً في معرفة المقابل للإنصاف، وللتوبة، وللعفّة؟ وبسالة ابامينونداس (٤١٨ -٣٦٢ق.م. القائد ورجل الدولة وأحد زعماء الديمقراطية في طيبة) هي اصطلاح بشري خالص يتبدّل وفق الأوساط وكذلك لطف التأثير. وقد اعتبر باسكال الفضائل مزايا أخلاقية صنّفتها المجتمعات وفقاً لحاجاتها. كلا. إنّ الله لا يطلب من البشر هذا التوازن على حبل مشدود بفضائل متقابلة في كل يد. فالتكافؤ الرياضي الذي أراده باسكال يجعل من كل انسان شيئاً لامعنى له.

ولا قابلةً. وهذه الكلمة تحدّد بدقة العصر، ففي السابق لا وجود للأطباء المولّدين. وهكذا فإن تفنّنات حضارتنا تتفسّر بهذه السمة التي ستبقى.

- آه! ماهذا يا عزيزي ناتان، أيّ هُراء[1] تهرف به لي؟» سألت المركيزة مندهشة.

أجاب ناتان: سيّدتي المركيزة، أنت تجهلين قيمة هذه العبارات الثمينة فأنا أتكلم في هذه اللحظة بلغة سانت -بوف، وهي لغة فرنسية جديدة. وها أنا أتابع: في يوم كان لابالفرين يتنزه في الجادة مع بعض أصدقائه، فرأى أحد دائنيه الأكثر شراسة مقبلا نحوه وهو يقول: «هل تفكّر بي يا سيدي؟

فرد الكونت: إطلاقاً، فأنت لم تخطر لي على بال». ولك أن تلاحظي كم كان الموقف صعباً. وقد سبق لتاليران في مثل هذا الظرف أن قال: «كم أنت فضولي، يا عزيزي![2]».

لكن يجب ألاّ يسعى أحد لتقليد هذا الرجل، فهو غير قابل للتقليد.

سخيّ مثل بكنغهام[3]، ولا يتحمّل أن يؤخذ على حين غرّة. ففي يوم لم

---

(١) اختيرت هذه الكلمة «هراء GALIMATIAS» فسانت بوف يأخذ على سان -سيران: «استخداماً غامضاً لاستعارات في جمل طويلة» يذكرها ويعتبرها نماذج كاملة للهراء.

ولا يفوت بلزاك هذا المقطع الذي يذكره ويعلّق عليه بالقول:

«من ملَك الصبر مثلي وقرأ هذا الكتاب [. . .] سيرى أن سانت بوف كان مثل سان -سيران بل إنه قد فاقه، ففي عصر وُجِد فيه في الكيمياء أول الأوكسيد، وثاني أوكسيد وجد سانت بوف أن عليه أن يكون ثلاثي الهراء. (عن المجلة الباريسية ٢٥آب ١٨٤٠).

(٢) لم نتمكن من العثورعلى أصل هذه الكلمة المنسوبة إلى تاليران.

(٣) بكنغهام (١٥٩٢ -١٦٢٨): رجل محظوظ، يحتمل أنه كان متناقضاً وجدانياً، سمير جاك الأول وشارل الأول في انكلترة. اشتهر بتبذيره. كان وزيراً عندما تهيّأ لنجدة لاروشيل واغتاله أحد الضباط الطهريين يُعتقَد أن بلزاك أورد هذا الاسم الانكليزي بعد أن رأى في صحيفة «لامود» بتاريخ ١١ تموز ١٨٤٠ مقالاً لروجه دي بوفوار «أسد اليوم» يبيّن فيه أيّ محادثات يجب التطرّق إليها ليكون المرء مماثلاً «لبكنغهام» أي على «الطراز الحديث».

twitter @baghdad_library

يكن معه ما يعطيه إلى منظف مداخن، فنزح من برميل عنب على باب بقال ما ملأ به قبعة الفتى الصغير ابن السافوا. وبدأ البقال بالضحك لكنه انتهى بمدّ يده إلى لابالفرين الذي قال له: «أوه! أفٍّ! أيّها السيّد، يجب أن تجهل يدك اليسرى ما تعطيه يدي اليمنى».

وشارل ادوار شجاع جريء، لايسعى إلى أية مجابهة لكنه لايرفضها، وهو يتميز ببسالة فكهة؛ فبرؤيته عند ممر الأوبرا رجلاً اغتابه بعبارات مهينة، تقدّم منه ولطمه بمرفقه عند مروره ثم عاد من حيث أتى ووجّه إليه لطمة ثانية.. فقال الرجل: «كم أنت أرعن» فرد لابالفرين: بالعكس، إنّي فعلت هذا متعمداً». فمدّ إليه الرجل بطاقته. فقال: «إنّها وسخة جداً، فهي مسودّة في جيبك؛ أرجو إعطائي غيرها، ورماها من يده.

وفي ساحة المبارزة تلقى ضربة سيف، ورأى الخصم الدم يسيل منه وأراد أن ينهي المبارزة فقال له: «ها أنت قد جُرحت أيّها السيّد».

فأجاب بدمٍ بارد وكأنه يتدرّب في قاعة أسلحة: «أبداً إنني أنكر الضربة!». ورد بضربة مماثلة لكنها أكثر قوة وهو يضيف: هي ذي الضربة الحقيقية أيّها السيد!» وكانت النتيجة أن بقي الخصم ستة أشهر في السرير. إنّ هذا، وبالبقاء دائماً في مياه سانت بوف، يذكّر بأصحاب الذوق، والسخريات الناعمة في أيام الملكية الجميلة. حيث يرى حياة طليقة ولكن دون نقطة توقّف، وخيالا باسماً لا يعطى لنا إلا على أساس الشباب[1]. فليس هذا مخمل الزهرة، ولكن بذرة جافة، مخصبة تؤمن فصل الشتاء[2].

---

(١) الخيال لدى الكثيرين على الأقل، لم يعط لنا في الأساس إلا في الشباب (مقال بور رويال -الصفحة٢٠١)

(٢) الزهرة قد اختفت [...] والثمرة ذاتها بلونها ومخملها قد ذبلت: ولم يبق إلا البذرة الجافة، لكنها مليئة، ومخصبة، وهي تؤمّن فصل المستقبل الخالد (مقال بور رويال ...).

ألا تجدين هذه المقاطع تعبّر عن شيء غير مُشبَع، ومُقلق، لايمكن تحليله، ولايوصف لكنه إن يُفهَم[1] سيضطرم بلهب متناثر عال إن سنحت له فرصة الانبساط؟ هذه هي كآبة الدير، شيء محمّض، متخمّر في بطالة آسنة للقوى الشابة، حزن مبهم وقاتم.

قالت المركيزة: يكفي! لكأنك تصبُّ على رأسي رذاذاً بارداً.

- إنه مَلَل بعد الظهر[2]. والبطّالون يقومون بأعمال سيّئة بدلاً من أن يستمروا جامدين دون حركة. وهذا ما يحدث دائماً في فرنسة. وللشباب في هذه الفترة جانبان: الجانب المجدّ لغير المقدّرين، والجانب المضطرم للانفعاليين.

كرّرت السيّدة دي روشفيد مع حركة آمرة: يكفي! إنّك تثير أعصابي.

- سأعجّل لأنهي لك وصف لابالفرين، وأتحوّل إلى الجوانب الظريفة فيه، لأوضح لكِ عبقرية هذا الشاب الخاصة الذي يمثّل بشكل رائع قسماً من الشبيبة الماكرة، من هذه الشبيبة القويّة إلى حدّ تسخر فيه من الحالة التي أوصلتها إليها حماقة الحكام، المتبصّرة إلى حدّ لاتفعل فيه شيئاً لإدراكها عدم جدوى العمل، والتي ماتزال نشطة لتتعلق بالمتعة وهي الشيء الوحيد الذي لم يُستطَع انتزاعه منها. لكن سياسة بورجوازية، مركنتيلية، ومتزمتة في آن واحد هي في طريقها لتعطيل جميع الأقنية التي تنصبّ فيها كل هذه القابليات والمواهب. فلاشيء لهؤلاء الشعراء، ولا شيء لهؤلاء العلماء الشباب.

ومن أجل أن أطلعك على بلادة البلاط الملكي الجديد إليك ما حدث مع

---

(١) استشهاد ساخر من كتاب بور رويال «ص٢٠٠» (الزهو القلق، غير المشبع، الذي يتحلّل إلى مالانهاية وهو يرتسم: إنّه وريد القلب بالذات).

(٢) استشهاد آخر ساخر من سانت بوف يتعلق باستعماله المتكرّر لكلمة كآبة الدير ACEDIA وهي كلمة يونانية ندر استعمالها بالفرنسية.

twitter @baghdad_library

لابالفرين : يوجد في دائرة المخصّصات الملكية موظّف لدرء النكبات[1] ؛ وقد علم هذا الموظف أن لابالفرين في عوز رهيب ، فعمد دون شك إلى تقديم تقرير عن ذلك . وجاء يحمل إلى وريث آل روستيكولي خمسين فرنكاً لفكّ ضائقته . استقبل لابالفرين هذا السيد بلطافة تامة . وتحادث معه حول شخصيات البلاط . سأله : «هل صحيح أن الآنسة دي أورليان[2] قد ساهمت بمبلغ كبير ثمناً لطقم مائدة جميل من أدوات مائدة صيغ لابن أخيها[3] . يجب أن يكون هذا الطقم جميلاً جداً . ثم أوعز لابالفرين خفية إلى فتى صغير من منطقة السافوا عمره عشر سنوات ، يلقبه «بالأب آنشيز»[4] يقوم على خدمته لقاء لا شيء ويقول عنه «لم أصادف يوماً لدى انسان مثل هذه الحماقة مقترنة بمثل هذا الذكاء ، إنه يقتحم النيران من أجلي ، وهو يدرك كل شيء ، لكنه لايدرك أنني لا أستطيع أن أقدّم له شيئاً» . أسرع آنشيز بناء على هذا الإيعاز إلى مؤجّر عربات ، فأحضر عربة أجرة فخمة ، يرافقها خادم ؛ وفي اللحظة التي سمع بها لابالفرين قرقعة عجلات العربة ، وجه بمهارة المحادثة حول مهام هذا السيّد الذي يسميه «رجل النكبات التي لاتستبعد شيئاً»[5] فاستفهم منه عن عمله ، وعن راتبه ، وسأله : «هل توضع تحت تصرّفك عربة لإنجاز مهامك في المدينة» . وعندما أجاب الرجل «أوه! كلا» ؛ قاد لابالفرين وصديقٌ كان في زيارته

---

(١) كان بلزاك قد وضع ملاحظة حول هذا الموظف قد تعود إلى تيوفيل غوتية : «المستخدم الذي يقدّم نوى التفاحة» لكنه حذفها في العام ١٨٤٥ مقتصراً على كلمة EMPLOYÉ AUX MALHEURS

(٢) هي أدلايد أخت الملك لويس فيليب (١٧٧٧-١٨٤٧) .

(٣) هو الدوق دي أورليان الذي تزوج في ٣٠ أيار ١٨٣٧ ، وكان بلزاك قد ذكر في الطبعات السابقة لطبعة فورن أن الصائغ جانست الذي ورد ذكره أيضاً في « النسيبة بت» أعد هذا الطقم الفاخر .

(٤) كان لبلزاك نفسه وصيف يسمّى أو يلقّب بآنشير .

(٥) هذه التعابير مستمدة من لعبة ورق «البوسطن» حيث تميّز «النكبة الكبرى» أو «النكبة بدون إبعاد» وهي جولة يربحها اللاعب دون أن يقوم بأيّة سحبة . ثم «النكبة الصغرى» أو «النكبة مع إبعاد» وهي جولة يربحها اللاعب دون سحب إنما مع إبعاد ورقة واحدة من أوراق لعبة . وفي نوع آخر من اللعبة ذاتها تكون «النكبة الصغرى» بواسطة سحب واحد فقط . واستعمال الاصطلاح هنا مرده السخرية من مهمة الرجل ووظيفته .

الرجلَ المسكين إلى مكان وجود العربة، وألزماه على الصعود إليها، لأن المطر كان ينهمر مدراراً. وكان لابالفرين قد خطّط لكل شيء فخادم العربة مكلّف بمرافقة ضيفه إلى كلّ مكان يتوجّه إليه، وعندما أنهى هذا الموظف موزّع الحسنات جولته، قدّم له الخادم المرافق بطاقة كتب عليها بقلم رصاص: «هذه العربة سُدّدت أجرتها لمدة ثلاثة أيام من قبل الكونت روستيكولي دي لابالفرين، السعيد جداً بمدّ يد العون لحسنات البلاط الملكي بتركيب أجنحة لصدقاته» ولابالفرين يسمي الآن «المخصصات الملكية المسؤولة» المخصّصات غير المسؤولة.

كان محبوباً بولع من امرأة في سلوكها بعض استهتار، وكانت هذه المرأة واسمها انطونيا تسكن في شارع هلدر[1]، وهي معروفة فيه، لكنها في الفترة التي عرفت فيها الكونت، لم تكن قد امتهنت البغاء. لكن لم تكن تنقصها تلك السفاهة السابقة التي تتباهى بها نساء الزمن الحاضر حتى الوقاحة. وبعد خمسة عشر يوماً من سعادة دون شائبة اضطرت تلك المرأة إلى أن تعود حرصاً على مصالحها الخاصة إلى نظام عاطفي أقل حصراً. وعندما لاحظ لابالفرين أن الصراحة تنقص السيّدة انطونيا في تعاملها معه، كتب لها هذه الرسالة التي أكسبتها الشهرة:

«سيدتي.

سلوكك يدهشني بقدر ما يشجعني، إذ لم تكتفِ بتمزيق قلبي بازدرائك، وإنما وصلت بك الفظاظة إلى أن تحتجزي فرشاة أسناني، التي لاتسمح إمكاناتي باستبدالها، باعتبار أن أملاكي مرهونة بما يتجاوز قيمتها.

وداعاً، أيتها الصديقة الفائقة الجمال والمفرطة في الجحود! لعلنا سنلتقي مجدداً في عالم أفضل.

شارل إدوار».

يتجاوز هذا (ونحن دائماً نستخدم أسلوب السيد سانت بوف الخليط) بكل

---

(١) أنطونيا هي بطلة «رجل أعمال»، وليست المصادفة هي التي حدّدت اسم الشارع. ففي صحيفة «لابرس» بتاريخ ١٤ كانون الثاني ١٨٤٠ يذكر غوتيه «عاهرة أطلق عليها اسم «دوقة شارع هلدر».

twitter @baghdad_library

تأكيد كثيراً سخرية سترن في «الرحلة العاطفية»[1]، وهو أقرب إلى سكارون[2] دون فظاظاته، ولا أعلم أن كان موليير لم يُقْلِ في أحد أبهج أوقاته، عن أحد أفضل مشاهد سيرانو: سيكون هذا لي[3]. كما أن ريشليو لم يكن أكثر كمالا عندما كتب إلى الأميرة التي كانت تنتظره في فناء مطابخ الپاليه رويال: «ابقي هنا يا مليكتي لإغراء مساعدي الطبّاخين[4]» غير أن سخرية شارل ادوار كانت أقل فظاظة. ولا أعلم إن كان الرومان أو اليونان قد عرفوا هذا النوع من الدعابة؛ وربّما كان أفلاطون، بالتمعن جيّداً في نتاجه، قد قاربه إنما من ناحية الأسلوب البسيط والموسيقي.

قالت المركيزة: اترك هذه الرطانة، فهذا يمكن أن يُطبَع، أمّا أن تخدش أذنيّ فيه فهذا عقاب لا أستحقه أبداً.

تابع ناتان: إليك كيف تمّ لقاؤه مع كلودين: في يوم من هذه الأيام البطّالة حيث ينصرف الشباب إلى أنفسهم فقط، ولما كان بلونده في ظلّ الملكية الثانية لايخرج عن خموله[5]. وعن الوهن اللذين حكم بهما عليه من قبل العجزة المتعجرفين إلا ليُسرع في أعمال سيّئة ويستأنف هذه التهريجات الهائلة التي لها

---

(١) الرحلة العاطفية: كتاب للورنس سترن الكاتب الانكليزي مؤلف تريسترام شاندي، ظهر في العام ١٧٦٨ وهو يتميّز بأسلوب هزلي ظريف.

(٢) سكارون: كاتب فرنسي (١٦٠ -١٦٦٠) أصيب بالشلل في العام ١٦٣٨ فانصرف إلى اضحاك الناس على نفسه وعلى الآخرين بأشعاره الهزلية.

(٣) تلميح إلى عبارة شهيرة في «خدع سكابن» لموليير، وهي مأخوذة حرفياً عن مسرحية «المتحذلق المخدوع» سيرانو دي برجراك المنشورة في العام١٦٥٤ (المشهد الثاني من الفصل الثاني).

(٤) يخفف بلزاك من فظاظة ردّ نسبة شامفور (١٧٤٠ -١٧٩٤) إلى المارشال دي ريشليو في كتاب (الحياة الخاصة للمارشال دي ريشليو، ١٧٩١) حيث يرد على السيدة دي غبريان: «ابقي هناك لتفتني مساعد الطباخين الذين خلقت لهم، وداعاً يا ملاكي».

(٥) يحل بلونده محل دي مارسي، وهو تصحيح في مكانه، فالصحفي أقرب إلى البوهيمية. لكن بلزاك كان قد فكّر أولاً بأوغوست روميو (١٨٠٠ -١٨٥٥) الذي عرفه بين ١٨١٤ -١٨٢٨، وهو كاتب روايات هزلية ناجحة، ومعاون ريسون في عدة «شرعات» ومدير صحيفة «المساجية»، فهذا العيّاش الشهير بفكاهاته كان قد والى السلطة في العام ١٨٣٠ وفي الفترة التي كتب بها بلزاك «نزوات كلودين» كان محافظاً لدوردوني وتنطبق عليه بعض ملامح بلونده.

عذرها في جرأة ابتكارها بالذات؛ كان لابالفرين يتسكّع بطول عصاه على ذات الرصيف بين شارع غرامون وشارع ريشليو. ومن بعيد رأى إمرأة فائقة الأناقة، وهي مزيّنة، كما قال، بأشياء ثمينة جداً تبدو لامبالية تماماً بها كأنها أميرة من البلاط أو من الأوبرا؛ ولكن بعد تموز ١٨٣٠، لامجال للالتباس، فالأميرة يجب أن تكون من الأوبرا. وسار الكونت الشاب إلى جانب تلك المرأة، كأنه كان على موعد معها؛ تبعها بعناد مهذب، وبإصرار لطيف الذوق، وهو يرميها بنظرات مليئة بالتأثير، إنّما في الوقت المناسب، مما أجبر تلك المرأة على أن تدعه يرافقها. إنّ أي امرئ آخر يرتدع بالاستقبال البارد ويضطرب من أولى الملاحقات دون جدوى، ومن اللامبالاة الجارحة البادية في مظهرها، والكلمات القاسية الموجّهة إليه. لكن لابالفرين كان يقابلها بكلمات مستحبة لاتصمد أمامها أي رصانة أو أي تصميم. ولأجل أن تتخلّص منه دخلت المرأة المجهولة إلى متجر تاجرة قبعات. ودخل معها شارل إدوار، وجلس، وراح يبدي رأيه، وينصحها كرجل مستعد لدفع الثمن. وأقلق المرأة ذمه البارد فخرجت. وعند أسفل السلّم، قالت المجهولة للابالفرين المضايق لها: «أيها السيّد إنني ذاهبة لزيارة نسيبة لزوجي، امرأة عجوز، هي السيّدة دي بونفالو...

- أجاب الكونت: أوه! السيدة دي بونفالو؟ كم يسرني ذلك، سأذهب معك إليها...» ودخل شارل إدوار مع تلك المرأة إلى حيث اعتُقِدَ أنه جاء بصحبتها، وشارك في الحديث. وأغدق من كلماته البارعة المتميّزة. وطالت الزيارة بشكل لم يتوقعه. فالتفت إلى المرأة المجهولة وقال: «سيدتي، لاتنس أن زوجك يتنظرنا، وأنه لم يسمح لنا بالتغيب أكثر من ربع ساعة». وذهلت المرأة من هذه الجرأة التي تعجب دائماً كما تعلمين؛ وجذبتها نظرته الآسرة، وهذا المظهر العميق والبريء في آن الذي يعرف شارل إدوار كيف يتخذه. فنهضت، وارتضت مرغمة أن تتأبط ذراع فارسها؛ وقالت له عند عتبة الباب: «سيّدي، أحب الفكاهة..

twitter @baghdad_library

قال: كيف أنا إذاً!» فضحكت واستأنف: «لكن تحوّلها إلى جدّ يتعلّق بك فقط. إنني الكونت دي لاپالفرين، ويسرني أن أضع عند قدميك قلبي وثروتي!». كان لاپالفرين عند ذاك في الثانية والعشرين من العمر[1] وحدثت معه هذه المصادفة في العام ١٨٣٤. ولحسن حظه، كان متأنّقاً في ذلك اليوم. وسأصفه لكم في بضع كلمات: كان صورة حيّة عن لويس الثالث عشر، بجبين شاحب، ناعم الصدغين، بلون زيتوني، هذا اللون الإيطالي الذي يبدو بياضاً تحت النور، بشعر كستنائي طويل، وعنفقة سوداء؛ وهو يبدو بسحنة رصينة كئيبة فشخصيته وطبعه يشكلان تبايناً مدهشاً. وعند سماع الاسم، ورؤية الشخصية، بدرت من كلودين شبه ارتعاشة. ولاحظ لاپالفرين ذلك: فوجّه إليها نظرة نافذة من عينيه السوداوين العميقتين، اللوزيتي الشكل بأجفان مجعّدة قليلاً، سمراء داكنة تكشف عن فرح مساوٍ لجهد مضن. وتحت هذه النظرة قالت له: «اعطني عنوانك! أجاب: يا للرعونة! ردّت باسمة: آه! عصفور على غصن؟. قال وهو يحييها دون أن يلتفت: «وداعاً، يا سيدتي، فأنت المرأة التي يجب أن تواجهني، فثروتي بعيدة عن أن تماثل رغبتي...».

بعد يومين، وبإحدى هذه المصادفات التي لا تحدث إلا في باريس، ذهب إلى تاجر ملبوسات يُقرِض لُقاءَ رهنٍ، ليبيعه الفائض من ثيابه؛ وقبض الثمن بمظهر قلق بعد أن ساومه طويلاً، وفجأة مرّت المرأة المجهولة وعرفته. هتف للبائع المندهش: «بكلّ تأكيد، لن اشتري بوقك!» وأشار إلى بوق هائل محدّب، معلّق خارجاً، يرتسم على ثياب مراسلي السفارات وقادة الامبراطورية. وبأنَفة وتهوّر تبع مجدّداً تلك المرأة الشابة. ومنذ ذلك اليوم الكبير، يوم البوق، تفاهما أحسن تفاهم. كان لشارل إدوار، عن الحب، الأفكار الأكثر صحّة، ففي رأيه لا يوجد حبّان في حياة

(١) كان لاپالفرين إذاً من مواليد ١٨١٢، وبذلك لا يمكن أن يكون ابن جنرال قتل في واغرام (١٨٠٩) لكنه في مسلسلة «المجلة الباريسية» كان في الخامسة والعشرين وذلك لتسهيل تدخله في خاتمة رواية «بياتريس» بينما جعله بلزاك هنا في طبعة «بوتر» أكثر شباباً.

الانسان، بل حبّ واحد فقط، عميق كالبحر، إنّما بدون شطآن، ويمكن له في أي عمر أن يسطع كما سطعت النعمة الالهية على القديس بولس[1]. يمكن للإنسان أن يعيش ستين عاماً دون أن يحسّ به[2]، وربّما كان هذا الحبّ، وفقاً لتعبير رائع لهايني[3] مرضاً خفياً في القلب، اندماجاً بين عاطفة اللامتناهي في داخلنا مع النموذج الجميل الذي ينكشف بشكل مرئي، أخيراً فإن هذا الحبّ يعانق المخلوق والخَلْق. ومادام الأمر لايتعلّق بهذه القصيدة الكبرى، فلايمكن التعامل إلا بالفكاهة مع غراميات ستنتهي كما القصائد الخفيفة بالمقارنة مع الملحمة. لم يشعر شارل إدوار في تلك العلاقة لا بالحبّ المفاجئ الذي يتمّ من النظرة الأولى، ولا بالكشف البطيء للمفاتن، والتعرّف على المزايا الخفيّة التي تجذب كائنين كلا إلى الآخر بقدرة متزايدة. فالحب الحقيقي ليس له إلا هاتان الطريقتان، إما النظرة الأولى وهي دون شكّ الرؤيا الإسكوتلندية الثانية[4] أو الاندماج المتدرّج بين طبيعتين الذي يحقق

---

(١) هي حادثة نعمة الهداية التي سطعت على الرسول بولس وهو في طريقه إلى دمشق (أعمال الرسل، الفصل التاسع)

(٢) شطب بلزاك في العام ١٨٤٤ تلميحاً لهوى الصحفي الألماني فردريك فون غنتز (١٧٦٤ -١٨٣٢) للراقصة فاني إلسلر الذي سبق أن ذكر في **«ربة وحي المقاطعة»** وفي **«بهاء وتعاسة الغانيات»**

(٣) في دراسة عن المدرسة الرومنسية (هامبورغ ١٨٣٦) كتب هايني أن الشعر مرض الانسان، كما أن اللؤلؤة هي مرض الصدفة. لكن أين ولدت هذه الصيغة؟. كتب سانت بوف في تقريره العبودية والكِبَر العسكريان (١٥ تشرين أول ١٨٣٥): «اللؤلؤة الثمينة للشعراء ليست على مايقال إلا انتاجاً مرضياً للقواقع البحرية» وكان هايني الذي أهديت له هذه القصة يعيش في باريس، ومن الممكن أن يذكر هذه الكلمة شفهياً قبل تسجيلها مكتوبةً.

(٤) تقارب السيّدة ل. فرابيه -مازور بين هذا التعبير وفقرة وردت في **«النسية بت»** «في الحب النظرة الأولى هي فعلاً الرؤيا الثانية (مقال بلزاك والخنثى -السنة البلزاكية ١٩٧٣) لكن لماذا وردت كلمة الرؤيا الاسكوتلندية الثانية؟.

أراد السيد ترتير أن يوجه انتباهنا إلى الملاحظتين التاليتين: «في الجزء الأول من وان كلور ص: ٢١٢ نقرأ... كان مدفوعاً بهذا الاهتمام الخاص الذي يسميه الأسكوتلندي رؤيا ثانية ٢٢ وهو تلميح محتمل لوالتر سكوت. وقد جاء في معجم الأكاديمية (١٨٣٥): «رؤيا ثانية قدرة بعض سكان الشمال، كما يزعمون، على أنّهم وهبوا ملكة رؤية أشياء حقيقية موجودة أو حاصلة في أماكن بعيدة، بعين الخيال.

twitter @baghdad_library

الخنثى[1] الافلاطونية لكن شارل إدوار كان محبوباً بجنون، فتلك المرأة كانت تحسّ بالحبّ الكامل المثالي والمادي؛ وقد كان لاپالفرين بالنسبة لها هواها الحقيقي. أما كلودين فلم تكن بالنسبة له إلا خليلة لطيفة. والشيطان مع جحيمه، وهو دون شكّ ساحر جبّار لم يتمكن أبداً من أن يغيّر هذين السيّالين الحرارين غير المتساويين. إنّني أجرؤ على التأكيد بأن كلودين كانت تزعج غالباً شارل إدوار؛ إذ كان يقول لنا: «خلال ثلاثة أيام، لا تصلح المرأة التي لا نحبّها، والسمكة المحفوظة إلا للإلقاء من النافذة». وفي بوهيمية لايراعى سرّ الغراميات الخفيفة إلا قليلاً. وكان لاپالفرين يحدّثنا غالباً عن كلودين. غير أن ما من أحد منا رآها. واسمها كامرأة لم يلفظ أبداً، فكلودين كانت شبه شخصية أسطورية. ونحن نتصرف جميعاً بذات الطريقة؛ نوفق هكذا بين متطلّبات حياتنا في المجتمع وقوانين حسن الذوق: فكلودين، وهورتنس، والبارونة، والبورجوازية، والامبراطورة، واللبوة، والإسبانية هن عناوين تسمح لكل منا أن يعبّر عن أفراحه، وهمومه، وأحزانه، وآماله، ويبلّغ عن اكتشافاته، ولا يُذهَبُ إلى أبعد من ذلك. وهناك مثال في بوهيمية يتعلّق بكشف تمّ بالمصادفة عن الشخص المقصود. وفي الحال، وباتفاق إجماعي، لم يتحدّث أحد منا عنه، هذا الحدث يمكن أن يشير إلى مدى إحساس الشبيبة باللياقات الحقيقية. فأي معرفة رائعة يملكها الأشخاص لاختيار الحدود التي يجب أن تتوقف عندها السخرية أمام هذا العالم من الأشياء الفرنسية المشار إليها تحت الكلمة الجندوية «المزاح»[2] كلمة ستكون مستبعدة من اللغة على ما نأمل ولكنها الوحيدة التي يمكن أن تساعد على فهم روح البوهيمية!

---

(١) فكرة ترد في غريزة الحبّ البلزاكية، وهي واردة في «المأدبة لأفلاطون» ص١٨٩-١٩٣ كما وردت في المقال المذكور أعلاه.

(٢) BLAGUE كلمة «جندوية» لأن اطلاقها منسوب إلى كاده -غاسيكور، صيدلي نابوليون الأول خلال حملة النمسة (١٨٠٩) وقد بقيت مدة طويلة كلمة عاميّة. وفي العام ١٨٤٠ استخدم بلزاك في رواية بييريت «فم هائل مزّاح، إن سمح لنا باستعمال هذه الكلمة الجندوية، وهي الوحيدة التي يمكن أن تصفه.

كنا نمازح إذاً غالباً الكونت عن كلودين فنسأله: «ماذا ستفعل بكلودين؟ وكلودين حبيبتك؟ ونغني «كلودين دائماً؟ على نغم «جسّلر دائماً[1] لروسيني، الخ... قال لنا يوماً: «أتمنى لكم جميعاً رغم الشرّ الذي أنويه لكل منكم أن يحظى بخليلة مماثلة. ما من كلب سلوقي، أو معوّج القوائم أو أجعد الشعر، يضارعها في الرقّة، أو الخضوع أوالحنان المطلق. تمرّ علي لحظات ألوم فيها نفسي أو أتساءل عن سبب قسوتي. فكلودين تطيعني بعذوبة قديسة. تأتي فأطردها، فتذهب ولا تبكي إلا في الفناء. أرغب أن أبعدها عني لأسبوع، وأحدّد لها يوم الثلاثاء التالي، في ساعة معيّنة، سواء أكانت منتصف الليل، أو السادسة صباحاً، العاشرة، أو الخامسة، في الأوقات غير الملائمة أبداً، وقت الغداء، أو العشاء، أو الاستيقاظ أو النوم... أوه! تأتي، جميلة، متزيّنة، فاتنة، في تلك الساعة المحدّدة تماماً! رغم أنها متزوّجة ومرتبكة في التزامات وواجبات منزل. والحيل التي تبتكرها والأسباب التي تجدها لتتلاءم مع نزواتي تحيّرنا، نحن الآخرون!... ما من شيء يتعبها؛ فهي صامدة! قلت لها ليس هذا حباً، إنّه العناد. كانت تكتب لي كلّ يوم، ولم أكن أقرأ رسائلها. ولاحظت ذلك، واستمرت في الكتابة! انظروا، هوّذا مئتا رسالة في هذا الصندوق. رجتني أن آخذ في كل يوم إحدى رسائلها لأمسح بها أمواس حلاقتي؛ ولم أقصر في ذلك! كانت تعتقد، عن حقّ، أن رؤية خطّها يجعلني أفكر بها.

كان لاپالفرين يرتدي ثيابه وهو يحدثنا بذلك، فأخذت الرسالة التي كان مزمعاً على استخدامها وقرأتها، واحتفظت بها دون أن يطالب بها؛ وها هي، إذ أنني عثرت عليها وفقاً لوعدي.

الإثنين، منتصف الليل.

«وبعد، يا صديقي، هل أنت مسرور مني؟ لم أطلب تلك اليد التي كان من السهل عليك أن تمدّها لي والتي رغبت كثيراً أن أضمها إلى قلبي، وإلى شفتيّ. كلا

(١) من أوبرا غليوم تلّ الموضوعة في العام ١٨٢٩ (الفصل الأول -المشهد السادس).

twitter @baghdad_library

لم أطلبها إذ خشيت كثيراً أن أكدّرك. هل تعلم هذا الأمر؟ بالرغم من أنني أشعر بمرارة بلا مبالاتك الكاملة تجاه تصرفاتي، فهذا لايقلّل من خجلي الكامل في سلوكي، فالمرأة التي تنتمي إليك، أيّا كان نوع هذا الانتماء، ورغم سرّيته الشديدة، يجب أن تتجنب التعرّض لأيّ نوع من الملامة مهما خفَّت. فلتشهد ملائكة السماء التي لا يخفى عليها أي سرّ أن حبي يساوي أكثر أنواع الحبّ نقاء؛ وأنني أينما وُجِدتُ، يبدو لي دائماً أنني في حضرتك، وأريد أن أكون جديرة بك.

كل ما ذكرته لي عن طريقة تأنقي قد أثّر بي، وجعلني أدرك كم يسمو أبناء السلالة النبيلة على غيرهم! ما تزال بعض مظاهر فتاة الأوبرا في تفصيلات أثوابي، وتسريحات شعري. وفي لحظة شعرت بالمسافة التي تبعدني عن الذوق السليم. وفي أوّل مرة قادمة، ستستقبلني دوقةً، ولن تتعرف عليّ. أوه! كما كنت طيباً مع حبيبتك كلودين! وكم مرّة يجب علي أن أشكرك لأنك ذكرت لي كل هذا! يا لفائدة هذه الكلمات القليلة! ألا تعني أنك مهتم بهذا الشيء الذي يخصك والمسمّى كلودين؟ ليس ذلك الأحمق مَنْ نوّرني؛ فهو يستحسن كل ما أفعله، عدا عن أنه ضيّق الأفق، كثير الابتذال، وأبعد ما يكون عن الإحساس بالجمال. كما هو بعيد يوم الثلاثاء أمام نفاد صبري! الثلاثاء، سأكون إلى جانبك لعدة ساعات! آه! سأجهد يوم الثلاثاء لأتخيّل هذه الساعات أشهراً، وسأبقى هكذا دائماً، إنني أحيا على أمل ذلك اللقاء كما سأحيا فيما بعد انقضائه على ذكراه. الأمل ذاكرة تشتهي، والذكرى ذاكرةٌ استمتعت. أيّ حياة جميلة يصوّرها لنا الفكر! أتصوّر أن أبتكر أشكال ودّ خاصة بي، لم تكشف سرّها أيّة امرأة غيري. تنتابني زخات عرق بارد خشية أن يقوم عائق بيننا. أوه! سأقطع كل علاقة لي به، إن وجب ذلك؛ لكن العائق لنْ يقوم أبداً من هذا الطرف. وإنما منك. فقد ترغب في الإنطلاق في الدنيا، ربّما إلى امرأة أخرى. أوه! رحمة بهذا الثلاثاء! فإن حرمتني منه يا شارل، فإنّك لن تعرف ما ستسبّبه له، سأجعله مجنوناً. إن كنت لم تعد راغباً بي، إن

أردت أن تنطلق في المجتمع، دعني مع ذلك آتي إليك، أراك وأنت ترتدي ثيابك، أراك فقط، لاأريد أكثر من ذلك؛ دعني أبرهن لك هكذا عن مدى حبي الخالص! فمنذ أن سمحت لي بحبك، ذلك أنك سمحت لي به بما أنني لك. ومن يومها، أحببتك بكل قدرة روحي، وسأحبك دوماً: إذ بعد حبك، لا يمكن أبداً، ولا مبرّر أبداً لحبّ شخص آخر. وستحسّ عندما تشاهد نفسك تحت نظرة لاتطمح لأكثر من تأمُّلك أن لدى فتاتك كلودين شيئاً سماوياً أيقظته فيها. فللأسف لست أبداً فتاة لعوباً في علاقتي بك بل أنا كأمّ مع طفلها: أضحّي بكل شيء من أجلك؛ أنا الشديدة الصَّلَف، المفرطة في الأنَفة مع الآخرين، أنا التي صدّت أدواقاً وأمراء ومرافقي شارل العاشر الذين يساوون كل البلاط الحالي، أعاملك كولد مدلّل. ولكن مافائدة الغنج؟ إنّه دون جدوى، غير أنني لم أوح إليك بالحبّ، ياسيدي! لأنني لم استخدم هذه الوسيلة في الإغراء إنني أعرف هذا، وأحسّ به، وأنا مستمرة في حبّك لشعوري بأنه قَدَري الذي لايُقاوم.

لكنني أفكّر بأن هذا الاستسلام الكامل يجعلني استحقّ منك هذه العاطفة التي يقال إنَّ جميع الرجال يكنّونها نحو ما هو ملكهم».

الأربعاء.

أوه! كم حلّ الحزن قاتماً في قلبي عندما علمت أنَّ عليَّ العدولَ عن سعادة لقياك البارحة! فكرة واحدة منعتني من أن ألقي نفسي بين ذراعي الموت: هي أنك أردت ذلك! فعدم المجيء تنفيذٌ لإرادتك؛ وإطاعة أحد أوامرك. آه! يا شارل، كم كنت جميلة، لكنت فضّلتني على تلك الأميرة الألمانية الفاتنة التي قدّمتها لي كمثال، وكنت قد راقبتها في الأوبرا. ولكن ربّما كنت ستجدني خارجة عن طبيعتي. فأنت قد أفقدتني كل ثقة بنفسي. فلعلّني دميمة. أوه! إنني أستقبح نفسي، أغدو حمقاء وأنا أفكر بحبيبي المتألّق شارل إدوار، وسينتابني الجنون بكل تأكيد، لاتسخر، ولاتحدثني عن طيش النساء، فإن كنّا طائشات فأنتم غريبو

twitter @baghdad_library

الأطوار! كيف تحرم مخلوقة مسكينة من ساعات حبّ، كانت ستسعدها لعشرة أيام؟ وتجعلها طيّبة، ودوداً مع كل من يأتون لرؤيتها! أخيراً كنت سبب تلاطفي معه، وأنت لاتعلم مدى الأذى الذي سبّبته له. تساءلت عما يجب علي أن أختلق لاحتفظ بك، أو لأستحقّ فقط أن أكون لك أحياناً... عندما أفكّر بأنك لم ترد أبداً المجيء إلى هنا! وبأي إحساس عذب كنت سأخدمك! توجد من هنّ أكثر حظوة مني، نساءٌ تقول لهن: أحبّك. أما لي فأنت لم تقل أبداً إلا: أنت فتاة طيّبة. ودون أن تدري فإن بعض الكلمات تنخر القلب. يسألني بعض النبهاء بماذا أفكّر: أفكر بحقارتي؛ وهي حقارة الأكثر إثماً من الخاطئات أمام المخلص»[1].

وكما ترين يوجد ثلاث صفحات أيضاً، وسمح لي لاپالفرين بأن أحتفظ بهذه الرسالة، حيث رأيت آثار دموع بدت لي وكأنها ماتزال حارّة. فهذه الرسالة قد برهنت أن لاپالفرين يقول الحقيقة. وقد افتتن ماركاس[2] الخجول تقريباً مع النساء برسالة مماثلة قرأها في زاويته قبل أن يشعل بها سيكاره.

هتف لاپالفرين: «إن جميع النساء المغرمات تكتب مثل هذه الأشياء. فالحب يعطيهن جميعاً توقّد الذهن والأسلوب. وهذا مايبرهن على أن الأسلوب في فرنسة يرد من الأفكار لا من الكلمات. انظروا مدى التفكير السليم ومدى منطقية العاطفة». وقرأ علينا رسالة أخرى كانت أكثر سموّاً من الرسائل المتكلّفة التي نجرّب تدبيجها، نحن مؤلفو الروايات، بعد دراسات عميقة، في يوم عرفت كلودين المسكينة أن خطراً ما حقاً يهدّد لاپالفرين بسبب كمبيالة، فخطَرت لها الفكرة

---

(١) أهو تلميح إلى مريم المجدلية: الخاطئة التائبة في الإنجيل؟ لكن هنا تغير مفاجئ في النَغَم!

(٢) وضع إسم ماركاس متأخراً، وكان سابقاً: مارسيل، وادمون.. وقد ورد في قصة ز. ماركاس التي نشرت قبل قصة «أمير من بوهيمية» بشهر: «تستثير لامبالاته العاطفية دهشتنا: فالمرأة لاتعكر أبداً حياته وماركاس يفسر هذا الأمر بنظرية عداوة المرأة MISOGYNE في العمل الأدبي، وهي نظرية لايأنف بلزاك من أن يتناولها: «حتى المرأة التي تهب نفسها تأخذ وقت الفنان فهي تبعده عن ميدانه «وتفرغه خاصة من طاقته المبدعة»

المشؤومة بأن تحمل إليه في كيس مطرّز ببراعة مبلغاً معتبرا بشكل قطع ذهبية. صرخ بها آنذاك لاپالفرين غاضباً: من ولّد بك هذه الجرأة لتتدّخلي في شؤون منزلي؟ لك أن تَرفئي جواربي، وتطرّزي أخفافي، إن كان هذا يسليك، ولكن.. آه! تريدين أن تكون دوقة، وتعكسين أسطورة دانايي[1] ضد الارستقراطية وعندما قال هذه الكلمات، أفرغ الكيس في يده. وتظاهر وكأنّه يريد أن يرمي المبلغ في وجه كلودين، المرتعبة، غير المدركة لهذه الفكاهة، مما دفعها إلى التراجع، فتعثّرت بكرسيّ، وسقطت وقد اصطدم رأسها بحافة المدفأة الحادة. وخيّل إليها إنّها لقيت الموت؛ ولم تنطق المرأة المسكينة إلا بعبارة واحدة عندما استطاعت الكلام بعد نقلها إلى السرير: «إني أستحقُّ ذلك يا شارل!». ومرّت لحظة قنوط على لاپالفرين؛ قنوط ردّ الحياة إلى كلودين؛ فكانت سعيدة بهذه المصيبة، واستغلّتها لتقنعه بقبول المبلغ والخلاص من أزمته. ثم كان هذا نقيض حكاية لافونتين عن ذلك الزوج المعترف بجميل اللصوص لأنهم أتاحوا له فرصة التعرف على بادرة ودّ من زوجته[2]. وبهذا الخصوص فإن كلمة تشرح لك لاپالفرين بكليته.

عادت كلودين إلى بيتها، ورتّبت كيفما اتفق عذراً لتبرير جرحها الذي سبّب لها مرضاً خطيراً إذ ولّد خرّاجاً في رأسها. وأراد الطبيب، وهو بيانشون على ما اعتقد، نعم إنه هو[3]، أن يحلق شعر كلودين، وكان بمثل جمال شعر الدوقة دي

---

(١) دانايي: هي ابنة أكريزيوس ملك آرغوس في الميتولوجية اليونانية، وقد زارها زيوس رب أرباب الإغريق السائد على جبل أولمب بشكل مطر من ذهب وكان له منها ابن هو بيرسه. وفي رواية «النسية بت» تلميحان لهذه الأسطورة.

(٢) تلميح غير دقيق ليس إلى إحدى حكايات لافونتين الشعرية، وإنما إلى قصة له هي: «تضرّع من جوليان» وفي هذه القصة يُسلب رينو داست من كل شيء معه من قبل ثلاثة من قطاع الطريق خلال رحلة، لكنه يجد ملجأ غير متوقع وسريراً دافئاً ليس لدى امرأته وإنما لدى أرملة شابة هي خليلة حاكم المدينة التي دفعها الفضول إلى التغيير. (لافونتين • قصص وأقاصيص، الجزء الثاني)

(٣) فكر بلزاك أولا بجاك ليفران دي سان مارتن (١٧٩٠ -١٨٤٧) وهو معاون ثم منافس لديبويترن رئيس جراحي مشفى لابيتية من ١٨٢٥ -١٨٤٧، وكان يعنى بلور سورفيل -أخت بلزاك المصابة بالتحام رحم مزمن.

twitter @baghdad_library

بري[1]. فرفضت وأسرّت إلى بيانشون بأنها لاتستطيع قصّ شعرها دون إذن من لاپالفرين. وجاء بيانشون إلى شارل ادوار يشرح له مطوّلا ضرورة قص الشعر لإمكان إجراء عملية خرّاج الرأس، وشارل إدوار يستمع إليه برصانة. وعندما انتهى الطبيب صاح هذا بصوت حاسم: «قصّ شعر كلودين، أبداً أفضل أن أفقدها ولا أسمح بذلك!». ومايزال بيانشون بعد أربع سنوات على انقضاء هذه الحادثة يذكر كلمة لاپالفرين. وهذا ما أضحكنا لنصف ساعة. وكلودين التي نُقِل إليها هذا القرار اعتبرته دليل ودّ، وظنّت نفسها محبوبة. وتجاه عائلتها المنتحبة، وأمام زوجها الجاثي على ركبتيه، لم تتزعزع، وحافظت على شعرها. ونجحت العملية المدعومة بهذه القوة الداخلية المتولّدة من إيمانها بكونها محبوبة، نجاحاً تاماً.

هناك هذه الحركات في الروح التي تَقلِب كل مفاهيم الجراحة وقوانين العلوم الطبية. وقد كتبت كلودين دون إملاء، ودون تنقيط، رسالة لطيفة إلى لاپالفرين لتنبئه بالنتيجة السعيدة للعملية الجراحية، قائلة له إن الحبّ يعرف أكثر من جميع العلوم.

قالَ لنا لاپالفرين: «والآن، ماذا يجب أن أفعل لأتخلص من كلودين؟.

- ولكنها ليست مزعجة فهي تترك لك حريّة التصرف.

ردّ لاپالفرين: هذا صحيح، لكنني لاأريد أن ينزلق في حياتي شيء ما دون موافقتي».

ومنذ ذلك اليوم بدأ يعذّب كلودين، فهي لاتعدو كونها من البورجوازية التي يكنّ لها الكره العميق، هي امرأة دون اسم، وهو يريدها ذات لقب. صحيح أنّها

---

(١) الدوقة دي بري: (١٧٩٨ - ١٨٧٠) أرملة دوق دي بري ابن الملك شارل العاشر الذي اغتاله لوڤل في العام ١٨٢٠. اشتهرت الدوقة برومانسيتها ونشاطها وجرّبت في العام ١٨٣٢ أن تثير فتنة في ڤانده ضد لويس فيليب.

حقّقت تقدّماً، فهي تبدو بمثل أناقة سيدات ضاحية سان جرمن، وتعرف كيف تحيط مسلكها بالوقار، وتمشي برقّة محتشمة لا تضاهى. لكن هذا لايكفي. بل إن هذه التقريظات تجعله يتحمّل كلودين. قال لها يوماً: «وبعد، إن أردت أن تبقي خليلة للاپالفرين فقير، معدم، دون مستقبل، فيجب على الأقل أن تُمثليه بشكل لائق. يجب أن تمتلكي عربة، وخَدَماً، وشعاراً، واسماً نبيلاً. امنحيني جميع متَع الزهو التي لاأستطيع الحصول عليها بنفسي، فالمرأة التي أشرفها بإيناسي يجب ألا تسير على قدميها، إذ يغيظني أن يصيبها رذاذ وحل. فأنا وجدت كذلك! ويجب أن تحظى امرأتي بإعجاب كل باريس. أريد أن تحسدني باريس كلّها على سعادتي. وأن يقف أي فتى وهو يرى عربة فخمة تستقلها كونتة متأنّقة ليتساءل: لمن تكون أمثال هذه الربّات المعبودات؟ ويستغرق في التفكير، فهذا يضاعف من مسرّاتي». واعترف لنا لاپالفرين بأنه بعد أن قذف رأس كلودين بهذا البرنامج، ليتخلّص منها، ذُهِلَ لأوّل مرة، وربّما للمرّة الوحيدة في حياته، عندما قالت له بصوت تهدّج بما خالج روحها من رعشة داخلية شاملة: «حَسَن يا صديقي! سيتمّ كل هذا أو سأموت . . .» وأضافت: «انني سعيدة لأنك شرحت لي ما يجب أن أكون لأبقى خليلتك». ثم أنبأنا لاپالفرين بأنها خرجت وهي تشير له بحركة دلع امرأة مسرورة وقال: «وقفت على باب سقيفتي، كبيرة، معتزة، بسموّ إحدى عرّافات العصر القديم».

تابع ناتان بعد لحظة توقّف: يجب أن يشرح لك كل هذا طبائع البوهيمية المتجليّة في أحد ألمع وجوهها، وهو هذا المرتزق. والآن إليك كيف اكتشفت من هي كلودين، وكيف استطعت أن أدرك الحقيقة الرهيبة التي تحملها كلمة وردت في رسالتها، لم تنتبهي اليها على الأرجح»[1].

---

(١) حذف بلزاك في العام ١٨٤٥ تلميحاً إلى «القيثارة الأخرى» وهي القطعة الثالثة والعشرون من مجموعة ڤيكتور هوغو: «أشعة وظلال» التي ظهرت لدى دلوي في ١٦ أيار ١٨٤٠ ووضعها عنوانا للفصل (٨٩) من الطبعة الأصلية للنسبية بت.

twitter @baghdad_library

كانت المركيزة مستغرقة في تفكير، منعها من الضحك، فقالت لناتان «تابع!» بلهجة برهنت على مدى اهتمامها بهذه الغرائب، وعلى مدى انشغالها بموضوع لاپالفرين خاصة.

استأنف ناتان: «في العام ١٨٢٩، كان من بين جميع المؤلّفين المسرحيين، أحد الأكثر رصانة، وتعقّلاً، وإقناعاً، دو بروبل. وكان اسمه مجهولاً من الجمهور، فهو يسمى في الاعلانات دي كورسي. وفي عهد الملكية الثانية، كان يشغل مركز رئيس مكتب في إحدى الوزارات، وهو متعلق بكل إخلاص بالفرع البكر من العائلة المالكة؛ وقدّم بكل شجاعة استقالته؛ وضاعف منذ ذلك الوقت من انتاج مسرحياته، ليعوّض عن النقص الذي سبّبه تصرفه الطيب على ميزانية مداخيله. كان دو بروبل آنذاك في الأربعين من العمر، وسيرة حياته معروفة لكم[١]. وعلى مثال بعض المؤلّفين، كان يكنّ لإحدى ممثلات المسرح إحدى هذه المودّات التي لاتفسّر، وهي مع ذلك توجد على مرأى المجتمع الأدبي ومسمعه وأنتم تعرفون هذه المرأة[٢] فهي توليا، وهي إحدى أقدم أوائل الأكاديمية الملكية للموسيقى، واسم توليا بالنسبة لها مستعار، كاسم دي كورسي بالنسبة لدو بروبل. وخلال عشر سنوات أي من العام ١٨١٧ إلى العام ١٨٢٧، لمعت هذه الفتاة في أشهر تمثيليات الأوبرا. هي أكثر جمالاً منها حذلقة ذات شخصية تافهة، لكنها أكثر رهافة حسّ من بعض الراقصات، فلم يستغن عنها خلال التسريح الأخلاقي الذي شتّت فرقة الباليه، واستمرت ضمن سلالة خليفات غيمار[٣]. كما أنّها تدين

---

(١) ذكر بلزاك سيرة دي بروبل في قصة **المستخدمين** وفي رواية **«أوهام ضائعة»** القسم الثاني: رجل من المقاطعات في باريس.

(٢) ذُكِر توليا في قصة **المستخدمين**.

(٣) ماري مادلين غيمار (١٧٤٣ -١٨١٦) راقصة في الأوبرا من ١٧٦٢ إلى ١٧٨٩ واشتهرت بطبائعها وترفها أكثر منها بمواهبها.

بارتقائها لعدة حماة معروفين: للدوق دي رتوره ابن الدوق دي شوليو، ولنفوذ مدير شهير للفنون الجميلة[1]، ولدبلوماسيين، وغرباء أثرياء. وكان لها في قمة شهرتها قصر صغير في شارع شوشا[2]، وكانت تعيش عيشة حوريات الأوبرا القديمات. وشُغف دو بروبل بها بعد خمود عاطفة الدوق دي رتوره نحو العام ١٨٢٣. وتحمّل دو بروبل، معاون رئيس الدائرة البسيط، مدير الفنون الجميلة. وكان يعتقد أنه الأثير! . وغدت هذه العلاقة، بعد سنوات، شبه زواج. وكانت توليا تتكتّم بعناية على عائلتها. وكان أحد أعمامها نجار صقالات أو بنّاء، فغدا بفضل توصياتها وبقروض سخيّة -على مايقال- متعهد أبنية غنياً؛ وقد أفشى هذا السرّ دي بروبل، عندما ذكر أن توليا ستحظى، عاجلاً أو آجلاً بميراث قيّم. فالمتعهد غير المتزوج يكنُّ حنانا لنسيبته ويشعر أنه مدين لها. وكانت تقول عنه «إنّه رجل لايملك من الذكاء ما يدفعه ليكون جاحداً». وفي العام ١٨٢٩ أحالت توليا نفسها على التقاعد من تلقاء ذاتها. فقد وجدت نفسها وهي في الثلاثين من العمر ببعض بدانةٍ وجرّبت عبثاً التمثيل الإيمائي فلم تعرف شيئاً إلا أن تظهر كبالون وهي تدور حول نفسها ليرتفع ثوبها على طريقة الأختين نوبله[3] ثم تبدو شبه عارية في ردهة المسرح. وقال لها العجوز فستريس[4] مباشرة أن هذه الوصلة نفذت جيّداً وأن

---

(١) هذا المدير هوالفيكونت سوستين دي لاروشفوكول (١٧٨٥ -١٨٦٤) وقد أحدث له هذا المنصب في العام ١٨٢٤ وهذا المصلح «الفاضل» للفنون (تطويل أثواب الراقصات وتغطية الأشكال العارية في اللوفر الخ. .) كان مثار تهكّم لرعايته في ذات الوقت للراقصة جوليا (وهي نموذج توليا) وقد برهنت السيدة مينينجه أن سوستين الذي كان مرافقاً لشارل العاشر هو نموذج الدوق دي رتوره.

(٢) اعتاد بلزاك أن «يسكن راقصات رواياته في شارع سان -جورج (ولنذكر «القصر الصغير» لاستير، والسكن الباريسي لفلور برازيه، والشقق المقدمة لكارابين من قبل تيليه وللسيدة شونتز من قبل روشفيد ويبدو أنه رأى الشارع السابق قد ازدحم فأسكن توليا في شارع شوشا».

(٣) من الأختين نوبله عرفت ليز (١٨٠٢ -١٨٥٢) الشهرة. ويمكن معرفة المزيد من أخبارهما بالرجوع إلى تحقيق ليتوفيل غوتيه نشر في صحيفة لابرس بتاريخ ٢ تشرين أول ١٨٣٧.

(٤) ماري -جان -اوغوستن فستريس (١٧٦٠ -١٨٤٢) الملقّب في الأوبرا «ربّ الرقص» (١٧٧٢ -١٨١٦) وكان أستاذ التأهيل الفني في الكونسرفاتوار من ١٨١٩ إلى تموز ١٨٢٠.

twitter @baghdad_library

العري الجميل في راقصة يعادل جميع المواهب القابلة للتصوّر، فهو النغم الأعلى في الرقص. وهكذا، كان يقول، إنّ الراقصات الشهيرات كامارغو، وغيمار، وتاغليوني[1]، وكلهن راقصات نحيلات، سمراوات، ودميمات لم يستطعن أن يبرزن إلا بالعبقرية.

انسحبت توليا وهي في ذروة مجدها مفسحة المجال لراقصات أقل عمراً وأكثر مهارةمنها؛ وحسناً فعلت. فهذه الراقصة الارستقراطية، التي لم تخلّ في ارتباطاتها، لم ترد أن تلوّث عقبيها بأوحال تموز. وكلودين المتغطرسة الجميلة تمتلك أجمل الذكريات وأقلّ المال، لكن لها أجمل الحليّ وأحد أفخم أثاث في باريس. وبمغادرتها الأوبرا لم تخطر على بال الفتاة الشهيرة، المنسيّة اليوم، إلا فكرة واحدة؛ أرادت أن يتزوجها دو برويل، وهكذا تدركين الآن إنها السيدة دوبرويل، دون أن يُعلَن عن هذا الزواج. كيف يعمد هذا الصنف من النساء بعد سبع أو ثماني سنوات من المعاشرة إلى الزواج؟ أي دوافع تدفعهن؟ أي آلات يَدْفعن إلى الحركة؟. أيّا كانت الفكاهة في هذه الدراما الداخلية، فليست هي موضوعنا. فالحدث قد تم ودو برويل تزوّج سراً. وكان كورسي، قبل زواجه، يعتبر رفيقاً مرحاً؛ فهو لايعود دائماً إلى منزله، وحياته فيها شيء من البوهيمية، لا يرفض الذهاب إلى حفلة، أو عشاء متأخر، ولا يضن بوقت لحضور تدريب على مغناة هزلية، وهكذا يجد نفسه فجأة في دييب، أو في بادن، أو في سان جرمن؛ وهو يدعو إلى حفلات عشاء، ويمارس حياة حافلة ومبذّرة عرف بها المؤلّفون والصحفيون والفنانون. وهو ينال بشكل جيّد حقوقه كمؤلّف في جميع كواليس

(١) كامارغو: هي ماريا آناكوبي دي كامارغو (١٧١٠ -١٧٧٠) وكانت راقصة في الأوبرا من ١٧٢٦ إلى ١٧٣٤ ومن ١٧٤٠ إلى ١٧٥١. أما غيمار (١٧٤٣ -١٨١٦) فقد سبق أن ذكرنا انها كانت راقصة في الأوبرا من ١٧٦٢ -١٧٨٩. وماريا تاغليوني كونتة دي ڤوازن (١٨٠٤ -١٨٨٤) مارست الرقص من ١٨٢٧ إلى ١٨٤٧ وكانت شهيرة جداً في العام ١٨٤٠ ونافستها على الشهرة الراقصة النمساوية ألسلر (١٨١٠ -١٨٨٤) الملقبة فاني.

باريس. وكان يعتبر واحداً من شلّتنا التي تضمّ فينو، ولوستو، ودوتيه، ودي روش، وبيكسيو، وبلونده، وكوتور، ودلوبو وهم يتحملونه رغم مظهره المتحذلق، ووضعه الثقيل كبير وقراطي. ولكن ما أن تزوّج حتى جعلته توليا كالعبد. ماذا تريدين؟! فهذا الشيطان المسكين يحبُّ توليا؛ التي قالت إنّها تخلّت عن المسرح لتتفرغ كلّياً له، ولتغدو زوجة طيبة ولطيفة. وعرفت توليا كيف تنسجم مع النساء الأكثر تزمتاً في عائلة دو برويل. ودون أن تدرك نواياها في البدء، كانت تذهب لتقضي أوقات مملة لدى السيّدة دي بونفالو، وتقدّم هدايا ثمينة للعجوز الشحيحة السيدة دي شيسه عمة والد زوجها، وقد قضت لدى تلك السيّدة صيفاً لم تتأخر فيه عن حضور أي قدّاس. وكانت الراقصة تعترف، وتتلقى الغفران، وتتناول القربان المقدّس، ولكن في الريف تحت عيني العمة العجوز. وقالت لنا في الشتاء التالي: «هل تعلمون؟ إنّ لي عمات حقيقيات!».

كانت مسرورة في أن تغدو بورجوازية؛ وسعيدة في أن تتنازل عن استقلاليتها، وفي أن تجد الوسائل التي توصلها إلى هدفها. كانت تتملّق إلى هؤلاء العجائز؛ وتذهب كلّ يوم على القدمين لتقضي ساعتين لدى والدة دوبرويل خلال مرض ألمّ بها. وكان دو برويل منذهلاً من اتباعها هذه الخدعة على طريقة السيدة مينتنون[1]. ويبدي إعجابه بهذه المرأة دون أن يفكّر مرّة واحدة بالتساؤل عن هذا التصرف. كان قد قيّد إلى درجة لم يعد يشعر فيها بالقيد. وقد أقنعت كلودين دو

(١) تلميح إلى المناورات الطويلة المتملقة التي قامت بها السيدة دي مينتنون (١٦٣٥ -١٧١٩) «حفيدة الأديب الكالفني أغريبا دوبينيي، تزوّجت الشاعر سكارون في العام ١٦٥٢ وترملت في العام ١٦٦٩، كلّفت بتربية أبناء لويس الرابع عشر والسيدة دي مونتسبن الثمانية» وبعد موت الملكة ماري تريز ١٦٨٣ تزوّجها الملك في كانون أول ١٦٨٤ وبعد موته في ١٧١٥ انسحبت إلى دير لتعلم الفتيات النبيلات الفقيرات كانت قد أسسته في سان سير. كان بلزاك قد أضاف هنا كما تشير المخطوطة اسم تلك اليونانية الشهيرة دلفين كومار التي تزوجت الكونت البولوني بوتوكي ثم عاد فحذفه خشية أن يسيء ذلك إلى الكونتة ماري بوتوكا أخت الكونت وصديقة بلزاك ومراسلته.

twitter @baghdad_library

برويل بأن النظام المرن للحكومة البورجوازية، والملكية البورجوازية، والبلاط البوزجوازي، هو الوحيد الذي يمكن أن يسمح لتوليا، وقد غدت السيدة دو برويل، بأن تندمج في هذا المجتمع الذي دفعها حسّها السليم إلى رفض الاختلاط به؛ وقد اكتفت بأن تُستَقبَل لدى السيّدات دي بونفالو، ودي شيسه، ودو برويل الوالدة دون أن تناقض نفسها كامرأة عاقلة، بسيطة، فاضلة. ولكنها بعد ثلاث سنوات استقبلت لدى صديقاتهن. وقد قالت السيدة آنسلم بوبينو بكل سذاجة: «لايمكنني أن أتصوّر أن السيّدة دو برويل الشابّة قد كشفت عن ساقيها والباقي لكل باريس على ضوء مئة مصباح غازي!. وملكية تموز ١٨٣٠ تشبه من هذه الجهة امبراطورية نابوليون الذي استقبل في بلاطه خادمة قديمة في شخص السيدة غارا زوجة كبير القضاة[١].

يمكن أن تخمّني أن الراقصة القديمة قد قطعت علاقاتها صراحة مع جميع رفيقاتها، ولم تعاشر من بين معارفها القدامى أي شخص يمكن أن يحرج موقفها؛ واستأجرت بعد زواجها في شارع لافيكتوار، قصراً صغيراً لطيفاً يحيط به فناء وحديقة، وأنفقت عليه مبالغ طائلة؛ وملأته بأفضل قطع الأثاث المختارة من منزلها السابق ومنزل دوبرويل؛ بينما باعت كل ما بدا لها عادياً أو شائعاً. ولإيجاد ما يماثل الترف المتألّق لديها يجب العودة إلى الأيام الجميلة للراقصة غيمار أو صوفي آرنو، أو دوته[٢] اللواتي افترسن ثروات أميرية.

---

(١) خطأ من بلزاك. فلقب كبير القضاة يطلق على وزير العدل. وإذا كان دومينيك جوزيف غارا (١٧٤٩ -١٨٣٣) قد شغل هذه الوظيفة من تشرين أول ١٧٩٢ إلى آذار ١٧٩٣ فإنه في عهد نابوليون الأول كان سناتوراً (١٨٠٠) ثم اكاديميا (١٨٠٣) وأخيراً كونتاً امبراطورياً (١٨٠٥).

(٢) صوفي آرنو (١٧٤٤ -١٨٠٣) مغنية شهيرة، حرمتها الثورة من ثروتها المتواضعة. وروزالي دوته (١٧٥٢ -١٨٢٠) راقصة عادية لكنها عاشرت الأمراء (الدوق دي شارتر، والكونت دارتوا خاصة) هاجرت إلى انكلترة حتى العام ١٨١٥ وماتت ثريّة جداً. وبلزاك هنا يردّد صدى ملاحظة لتيوفيل غوتيه في مقال له في «لابرس» (١٦ تشرين أول ١٨٣٧) يقول فيه: (أين دوته، وصوفي آرنو، وجميع هذه العلقات اللطيفات اللواتي كن يمتصصن أموال كبار النبلاء والأثرياء ويبذرنها يميناً وشمالاً في نزوات خارقة ومرهفة ويمتن بعد التهامهن الملايين؟) غير أن بلزاك سبق أن ذكر هذه الأسماء في أوقات مبكرة إذ ورد اسم غيمار ودوته في مرقص سو في العام ١٨٢٩.

إلى أي حدّ أثّر هذا الوجود الداخلي الثري على دوبرويل؟ يصعب طرح هذا السؤال، والأصعب منه الإجابة عليه. ولإعطاء فكرة عن نزوات توليا، يكفي أن أحدثك عن إحداها، كان غطاء سريرها من مخرمات انكلترة، وهو يساوي عشرة آلاف فرنك. وكان لإحدى الممثلات الشهيرات غطاء مماثل له، وعرفت بذلك كلودين، ومن حينها وضعت على سريرها غطاء رائعاً من الأنغورا. هذه الطرفة تصوّر المرأة. ولم يجرؤ دو برويل أن يقول كلمة بل تلقى أمراً بأن يذيع هذا التحدي في الترف ليصل إلى مسامع «الأخرى». وكانت توليا تحرص على هذه الهدية من الدوق دي رتوره؛ ولكن في يوم ما، وبعد خمس سنوات من زواجها، كانت تداعب هرّها بحيث تمزّق الغطاء؛ فصنعت منه دوائر أثواب وبعض زخارف زينة أخرى؛ وأبدلته بغطاء سرير ينمّ عن ذوق، غطاء حقيقي، وليس دليلاً على عقدة نقص خاصة بهؤلاء النسوة اللواتي ينتقمن بترف أحمق، كما قال أحد الصحفيين[1]؛ لأنهن عشن في أيام طفولتهن على البطاطا النيئة.

بدأ في اليوم الذي تمزّق فيه الغطاء عصر جديد في المنزل العائلي؛ فانصرف كورسي إلى نشاط ضار؛ ولم يشتبه أحد لمن تدين باريس بالأسباب الحقيقية لهذه التمثيليات الخفيفة المموّهة، الهادفة (قودفيل) القرن الثامن عشر التي امتلأت بها المسارح. كان سبب تأليف هذه الألف مسرحية هزلية ومسرحية، التي طالما شكا منها أصحاب المسلسلات، إرادةً جازمة من السيدة دوبرويل: فقد ألزمت زوجها بشراء هذا القصر الذي أنفقت عليه بإسراف وصرفت على أثاثه خمسمئة ألف فرنك. لماذا؟ لا تشرح أبداً توليا الأسباب، بل كانت تطلق بشكل رائع حجّة النساء السائدة: لأنّ..

قالت: «سُخِر كثيراً من كورسي، لكنه في النهاية وجد هذا البيت في علبة الحُمرة، ورشاشة البودرة وثياب القرن الثامن عشر المزركشة، لم يفكر أبداً بذلك دوني» وغاصت بين أرائكها قرب النار.

(١) ورد تعبير «الفتاة المتغذية بالبطاطا النيئة عند حديث بلزاك عن أوروبا في رواية «بهاء وتعاسة الغانيات».

twitter @baghdad_library

قالت لنا هذه الكلمات بعد العودة من العرض الأول لمسرحية ناجحة لدوبرويل، توقعت ضدها وابلاً من المسلسلات.

كانت توليا تستقبل وتقيم كل يوم اثنين حفلة شاي، وقد اختارت مجموعة زوّار لها بقدر ما تستطيع من عناية، ولم تهمل شيئاً لتجعل بيتها مستحباً. ففي أحد الصالونات تقوم لعبة ورق «البويوت»[1]؛ وفي آخر تقوم مسامرات وأحاديث. وأحياناً تقوم في ثالث وهو أكبرها حفلات موسيقية، قصيرة دائماً، لكنها لاتقبل أبداً إلا مشاهير الفنانين. كانت تمتلك حساً سليماً يوصلها إلى الرقّة الأكثر رهافة؛ وهي ميزة تعطيها دون شكّ نفوذاً كبيراً على دوبرويل؛ عدا عن أنّ المؤلف المسرحي يحبّها هذا الحبّ الذي تجعله العادة ضرورياً للوجود. وكل يوم يزيد خيطاً إضافياً لهذه اللحمة القوية، التي لاتقهر، الدقيقة بحيث تأخذ شبكتها الطيف الأكثر رقّة، وتحصر الأهواء الأكثر هروباً، وتجمع فيما بينها؛ وتترك الرجل مقيّد اليدين والرجلين والقلب والرأس. كانت توليا تعرف جيّداً كورسي، وتعرف أين يُجرَح، وكيف يُداوى. وبالنسبة لأي ملاحظ، وحتى للرجل الذي يعاند مثل عنادي في ممارسة ما، فإنّ كل شيء ينغص في هذه الأنواع من الأهواء؛ والأعماق هنا أكثر قتامة منها في أيّ مكان آخر. أخيراً فحتى الأماكن الأكثر وضوحاً تكون أيضاً بألوان مشوّشة كان كورسي المؤلّف القديم المنهك بحياة الكواليس يحب رفاهيته، والحياة المترفة، الغنية السهلة. وهو سعيد بكونه ملكا في منزله، يستقبل مجموعة من رجال الأدب حيث يتجلّى ترف ملكي، وتلتمع تحف مختارة من الفن الحديث.

كانت توليا تترك دوبرويل يتبوأ عرش هذا الشعب حيث يوجد صحفيون يسهل استمالتهم واقتيادهم. وبفضل أمسياته، وبعض إعارات حَسُنَ اختيارها، لم يُهاجَم كورسي كثيراً، ونجحت مسرحياته وهكذا فهو لاينفصل عن توليا ولو نصّبوه امبراطوراً. بلْ ربّما تهاون تجاه خيانة شرط ألا يحسّ بأي اقتطاع من متْعِه المعتادة.

---

(١) لعبة ورق نشأت في أيام حكومة الإدارة وهي تحتاج إلى ذكاء. وبالتالي تصنّف جيّداً الصالون الممارس لها.

لكن الشيء الغريب هو أن توليا لم تسبّب له أي خشية من هذا القبيل. ولم يعرف عنها أي نزوة كراقصة أولى قديمة، أو إن بدر منها ذلك فإنها قد حافظت بالتأكيد على المظاهر بشكل تام.

قال لي مرّة دوبرويل بتعاظم ونحن في الجادة: «يا عزيزي، ما من شيء يماثل الحياة مع إحدى هؤلاء النسوة اللواتي عَدلن عن الأهواء بعد إسراف. فالنساء ككلودين مارسن حياة شاب عازب، وعرفن مسرّات إلى ما فوق رؤوسهن؛ فكنّ النساء الأكثر جدارة بالعبادة والإشتهاء: عارفات لكل شيء، وبالغات، وبعيدات عن التعفّف؛ مؤهّلات لكل شيء، ومتسامحات. وهكذا فأنا أنصح كل انسان أن يتزوّج بقية حصان انكليزي[1] إنني الرجل الأكثر سعادة على وجه الأرض!». هوّذا ما قاله لي دوبرويل بحضور بيكسيو، وعلّق لي الرسّام على ذلك: «يا عزيزي، ربّما كان على حقّ في خطئه!»

بعد ثمانية أيام، دعانا دوبرويل على عشاء في منزله، حدّد موعده يوم الثلاثاء، وذهبت في صبيحة ذلك اليوم لرؤيته من أجل موضوع يتعلق بالمسرح موضوع تحكيم عهد به الينا من قبل لجنة المؤلّفين المسرحيين[2]، وكنا مضطرين للخروج، لكنه مرّ قبل ذلك على غرفة كلودين، وقرع الباب مستأذنا بالدخول، وقال باسماً: إننا نعيش ككبار النبلاء، لكلّ حريته في منزلنا!». فُتِحَ لنا، وقال دوبرويل لكلودين: «دعوت بعض الأشخاص للعشاء هذا اليوم.

- صاحت هاأنت، تدعو أناساً دون أن تستشيرني. هل أنا لاشيء هنا.

---

(١) تلميح ممكن إلى شهرة انكلترة في تربية الخيول الأكثر مهارة في الصيد بمساعدة الكلاب؛ وتحويل هذه الحيوانات بعد مرحلة قصيرة وباهرة في هذا المجال إلى مهام أخرى أقل شأناً. ودوبرويل وبلزاك ممن لايتراجعون عن مثل هذه الاستعارة.

(٢) هنا تلميح لمرحلة من المنافسة بين جمعية الأدباء الناشئة، وجمعية المؤلفين المسرحيين: «في ١٨ نيسان ١٨٤٠ كان بلزاك نائباً لرئيس الجمعية الأولى وتقرّر أن يقوم بمساعٍ مع جمعية المؤلفين المسرحيين لتأمين مصالح الجمعيتين حبياً ودون منافسة» (ادوار مونتاني: تاريخ جمعية رجال الأدب -١٨٨٨ -ص٢٣).

twitter @baghdad_library

وتوجهت إلي بنظرة كأنها تعتبرني مُحكماً وقالت: إنني أسألك أنت بالذات. عندما يُرتكَب جنون العيش مع امرأة على شاكلتي، إذ أنني أخيراً كنت راقصة أوبرا... نعم، من أجل أن ينسى هذا، يجب علي أنا بالذات ألا أنساه. وعلى الرجل الذكي، ليرفع شأن امرأته أمام الرأي العام أن يجهد ليفترض لها علو شأن؛ ليبرّر سبب اختياره لها بالاعتراف بمزايا فائقة لتلك المرأة! إن أفضل وسيلة ليفرض احترامها على الآخرين هي أن يحترمها في منزلها، ويتركها سيّدته المطلقة. آه! بالرغم من أنه يمنحني حبّ الذات، لكنه يخشى أن يُرَى بمظهر المستمع المطيع لي، ويجب أن أكون على عشرة أضعاف الحق ليتنازل ويقبل بمطلب لي».

ما من عبارة كانت تمرّ دون أن يقابلها دوبرويل بحركات نفيٍ. لكنها تابعت بحرارة وهي ترى حركات زوجها: «أوه! كلا، كلا، يا دوبرويل، يا عزيزي؛ فأنا قبل أن أتزوّجك لعبت طيلة حياتي دور الملكة في منزلي. وأنا أعرف نفسي فيه! فقد كانت رغباتي تلاحظ بدقّة، وتؤمّن وتُشبَع... بعد كل حساب، إنني في الخامسة والثلاثين، والنساء في الخامسة والثلاثين لايمكن أن يحببن. أوه! لو أنني ما أزال في السادسة عشر، وبهذا الذي يباع غالياً جداً في الأوبرا. فأي اهتمامات كنت توليني إياها يا سيّد دوبرويل! إنني في غاية الإزدراء للرجال الذين يتبجحون بحبّ امرأة ولا يحيطونها دائماً برعايتهم. أترى يا دوبرويل إنّك صغير ومكّار، إنك تحبّ تعذيب المرأة، فليس أمامك سواها لتظهر قوّتك. كان نابوليون يخضع لخليلته، ولم ينقص هذا شيئاً من عظمته؛ أما أنتم فإنكم تغدون لاشيء؛ لاتريدون أن يُهيمَن عليكم». ثم تابعت موجهة الكلام إليه والتفتت إليّ وقالت: «خمس وثلاثون سنة يا عزيزي؛ هوّذا السرّ...» هيا، مايزال يقول كلا، أنت تعرف جيّداً إنني في السابعة والثلاثين. وأنا مستاءة جداً، لكن اذهب وقل لجميع أصدقائك إنك تدعوهم إلى مطعم صخرة كانكال[1]. كان بإمكاني أن أقدم لهم العشاء هنا، لكنني

(١) مطعم شهير في باريس ذكره بلزاك مرات عديدة في الملهاة الانسانية.

لاأريد، ولن يأتوا! إن منولوجي الصغير المسكين سينقش في ذاكرتك المبدأ الملائم «لكل منا حريته» وهو شعارنا» وابتسمت وعادت إلى طبيعتها الحمقاء والنزوية كفتاة أوبرا.

ردّ دوبرويل: حسن، يا صغيرتي العزيزة، إلى هناك، إلى هناك، لاتغتاظي. نحن نعلم كيف نعيش». وقبّل يديها وخرج معي؛ لكنه كان غاضباً. وهوّذا ما قاله لي بين شارع لافيكتوار والجادّة، هذا إن أمكن للعبارات التي تتحملها الطباعة من بين أعنف الشتائم أن تتمثّل الكلمات البغيضة والأفكار السامّة التي تدفقت من فمه كشلال أفلت من جهة سيل كبير: يا عزيزي، سأترك هذه الراقصة الخسيسة الكريهة؛ هذه الطائشة المزعجة التي دارت تحت سياط جميع أنغام الاوبرا. هذه العاهرة[1]، هذه القردة[2] ألهيَة فتيان السافوا! أوه! أنت المغرم أيضاً بممثلة[3] يا عزيزي، احذر أن تجول بخاطرك فكرة الزواج بخليلتك! أترى، إنها عذاب منسي من جحيم دانتي! سأجلدها الآن، سألطمها، سأبيّن لها فعلتها. إنّها سمّ حياتي، تريد أن تحركني كأنني آلية[4] إغلاق باب كان على الجادة، في حالة من الغضب، حتى أن الكلمات لاتخرج من حلقه.

«سأرفسها بقدميّ.

قلت له: ولكن ما السبب؟

---

(١) استخدم بلزاك كلمة GUÉNIPE وهي نادرة الاستعمال، وقد وردت لدى غوتيه خاصة في رواية «الآنسة دي موبن؛ كما في الفصل العاشر: «بعض الأشخاص يجعلون من عشيقاتهم موضوع سخرية، وبذلك يعلنون عن أنفسهم أنهم أكبر أهل الأرض حمقاً لأنهم يعاشرون أمثال هؤلاء العاهرات.

(٢) كان فتيان السافوا في السابق يعملون غالباً منظفي مداخن لكن حيوانهم الأثير هو المرموط. لكن بلزاك جعل الهيتهم القردة GUÉNON للمجانسة بينها وبين GUÉNIPE

(٣) كانت الممثّلة فلورين خليلة ناتان وخاصة في قصة ابنة حواء.

(٤) آلية اغلاق باب: جهاز يوضع في أعلى الباب ليغلقه تلقائياً دون تدخل بشري. لكن الكلمة وردت لرغبة بلزاك في المجانسة بين كلمة VALET وVOLET.

twitter @baghdad_library

- أنت لا تعلم يا عزيزي آلاف النزوات التي تبدر من هذه العاهرة! عندما أريد أن أبقى، فإنّها ترغب في الخروج. وعندما أريد أن أخرج فإنّها تطلب مني البقاء؛ وهي تخلق الأسباب، وتتلفّظ بالإتهامات، والجدل الشكلي، والنمائم، والكلمات التي تدفع إلى الجنون! الخير، في نزواتهن! الشرُّ ما نقوم به! إن تصعقهن بكلمة تقطع اعتراضاتهن، يصمتن وينظرن إليك كأنّك كلب ميّت، سعادتي؟ . . . تتفسّر بعبودية مُطلقة، بذلّ كلب الزريبة. إنّها تبيعني غالياً جداً القليل الذي تمنحني إياه. إلى الشيطان! سأترك لها كلّ شيء، وسأهرب إلى سقيفة. أوه! السقيفة مع الحريّة! ها هي خمس سنوات لاأجرؤ فيها أن أعبر عن إرادتي!».

وبدلا من أن يذهب لإخطار أصدقائه؛ بقي كورسي على الجادة، يذرع الإسفلت بدءاً من شارع ريشليو وحتى شارع مون بلان؛ وهو يطلق اللعنات الغاضبة والمبالغات المثيرة للضحك كان في الشارع فريسة ذروة من الغضب تتناقض مع هدوئه في المنزل.

ساعدته نزهته في استنفاد اضطراب أعصابه وعاصفة روحه. وحوالي الساعة الثانية، وفي إحدى هذه الحركات المشوّشة صرخ: «هؤلاء الإناث اللعينات لايعرفن ماذا يردن. أراهن على قطع رأسي أنني إن عدت لأقول لها إنني بلّغت أصدقائي بالذهاب إلى **صخرة كانكال** لتناول العشاء لما أعجبها هذا الترتيب الذي طلبته». ثم قال لي: «ولكن لعلها غادرت المنزل، وربّما كان طيّ هذه المشاحنة موعد مع لحية تيس ما! كلاّ، فهي في صميم نفسها تحبّني!».

قال ناتان وهو ينظر نظرة ماكرة للمركيزة التي لم تستطع الامتناع عن الابتسام: آه! يا سيدتي، النساء والأنبياء وحدهم يعرفون كيف يستخدمون الإيمان.

تابع ناتان: أعادني دو برويل إلى منزله، فسرنا بهدوء وكانت الساعة تقارب الثالثة، وقبل أن نصعد رأى حركة في المطبخ، فدخل إليه، ورأى إعداد الأطعمة، ونظر إليّ وهو يستجوب الطاهية؛ التي أجابت: «طلبت سيّدتي إعداد عشاء.

ارتدت السيّدة ثيابها، واستدعت عربة، ثم غيّرت رأيها، وصرفت العربة طالبة من الحوذي العودة قبل بدء سهرة المسرح.

هتف لي دو بروبل: وبعد، ماذا ذكرت لك!

ودخلنا بخطوات الذئب إلى أجنحة المنزل، فلم نشاهد أحداً، ومن صالون إلى آخر وصلنا إلى غرفة جلوس حيث فاجأنا توليا باكية. ومسحت دموع تصنّع وقالت لدو بروبل: «أرسل كلمة صغيرة لمطعم **صخرة كانكال** لإعلام مدعويك بأن العشاء سيتمّ هنا». كانت قد أجرت إحدى هذه التبرّجات التي لاتعرف نساء المسرح القيام بها: أنيقة، متناسقة في اللون والشكل، ثياب ذات تفصيل بسيط، وقماش يعبر عن حسن ذوق، ليست باهظة الثمن، ولا كثيرة الشيوع؛ ما من شيء صارخ، أو مبالغ فيه، أو مما يُطمَس تحت كلمة «**فنان**» التي يكتفي بها الحمقى. أخيراً كانت بالمظهر اللائق.

في السابعة والثلاثين من العمر، وجدت توليا نفسها في أجمل طور من الملاحة لدى الفرنسيات، فالشكل البيضوي الشهير في وجهها كان في تلك الفترة في شحوب رائع جداً؛ وكانت قد خلعت قبعتها، فظهر الزغب الخفيف، زينة الثمار، يلطّف القسمات الطليَّة بنعومتها الفائقة في وجنتيها؛ وعنقودان من خصلات شعر شقراء يتموّجان بلطف حزين حولهما، وعيناها الشهباوان البرّاقتان غارقتان في الدمع؛ وأنفها الأقنى الجدير بأجمل مدالية رومانية ترتعش أرنبتاه. وفمها الطفولي الصغير، وعنقها الملكي الطويل بأوردته المنتفخة قليلاً، وذقنها المحمر للحظة ببعض قنوط خفيّ، وأذناها المهتزتان بحركات مضطربة تعبّر عن الألم. كانت في سمو مهيب وقد سحقت عبارتها دو بروبل، وألقت علينا هذه النظرة النافذة ولا ينفذ إليها كنظرات الهررة والتي اختصت بها سيّدات النخبة وفتيات المسارح، ثم مدّت يدها إلى دو بروبل قائلة: «يا صديقي المسكين، ما أن ذهبت حتى وجّهت لنفسي ألف لوم، واتهمتها بجحود مروّع، واعتبرتها ممتلئة بالشرّ. وتساءلت هل أنا شريرة حقاً؟ لماذا لا أستقبل أصدقاءك، ألست في بيتك؟

twitter @baghdad_library

هل تريد أن تعرف سرّ ذلك؟ خشيت ألا أكون محبوبة. أخيراً، كنت بين الندم والخجل من التراجع، عندما قرأت الصحف، ولاحظت عرضاً أولاً في «القاريته» وفكرت بأنّك تريد التداول مع أحد المتعاونين معك. وفي وحدتي انتابني الضعف؛ فارتديت ثيابي لألحق بك... يا عزيزي المسكين!»

نظر إليّ دو برويل نظرة المنتصر، ولم يعد يتذكّر أيّا من فورات غضبه ضد توليا. وقال لها: «حسن يا ملاكي العزيز، لم أذهب إلى أي شخص.

هتفت: كم نحن متفاهمان!.

في اللحظة التي أطلقت فيها هذه العبارة الفاتنة لاحظت في زنارها ورقة صغيرة برز طرفها، لكنني لم أكن بحاجة إلى هذه القرينة لأخمّن أن نزوات توليا كانت تعود إلى أسباب خفيّة.

إنّ المرأة، في رأيي، هي الكائن الأكثر انسجاماً مع نفسه بعد الطفل. فكلاهما يعبران عن الظاهرة السامية لانتصار الفكرة الوحيدة الثابتة. والفكرة لدى الطفل تتغيّر في كل لحظة، لكنه لاينشغل إلاّ بها، وبذلك الحماس الذي يستجيب كل شخص له، مسحوراً بالبراءة، والإصرار على تنفيذ رغبته. والمرأة تغيّر رأيها غالباً بشكل أقلّ، لكن اعتبار ذلك غرابة أطوار هو شتيمة جاهل؛ وهي تتصرف دائماً بتأثير هوى من الأهواء، وكم هي مدهشة رؤيتها تجعل من هذا الهوى مركز الطبيعة والمجتمع.

كانت توليا هرّة تأسر دو برويل فيغدو نهاره قاتماً ليزدهر مساؤه. وهذا المسرحي الفكه لا يلاحظ الألم الدفين في قلب زوجته. وكان يقول لي: «يا عزيزي، هذه هي الحياة معارضات، وتباينات!

فأجيبه: وخاصة إذا لم نهزل بها.

وتابع: أفهم ذلك جيّداً، ولكن دون هذه الانفعالات العنيفة، فإننا نموت ضجراً! آه إن لهذه المرأة موهبة في إثارتي».

بعد العشاء عزمنا على الذهاب إلى مسرح «فاريته» وتسلّلت قبل الانطلاق إلى جناح دو برويل، وتناولتُ من أحد الرفوف من بين الأوراق المهملة عدداً من صحيفة «الاعلانات الصغيرة»[1] نُشر فيه إشعار عقد القصر المشترى من قبل دو برويل وهو مايلزم إجراؤه للتثبّت من خلوّه من كل رهن أو بيع سابق، وعند قراءة هذه الكلمات، التي قفزت أمام ناظري كشعاع وضاء: بناءً على طلب جان فرنسوا دو برويل وكلودين شافارو زوجته»، توضح كلّ شيء لي. أخذت بذراع كلودين وتظاهرت بإفساح الطريق لبقية المدعوين لنزول السلّم، وعندما أصبحنا منفردين همست لها: «لو أنني لاپالفرين لما فوّتُّ أي موعد معك!»

وضعت برزانة إصبعها على شفتيها -كأنها تطلب مني حفظ سرّها- ونزلت وهي تضغط على ذراعي، ونظرت إليّ بشيء من البهجة وقد ظنّت أنني أعرف لاپالفرين.

هل تخمّنين ماذا كانت فكرتها الأولى؟ أرادت أن تجعل مني جاسوساً لها. لكنها لقيت عبث البوهيمية. وبعد شهر من ذلك، وبعد الخروج من عرض أول لمسرحية لدو برويل، وكانت السماء تمطر، وكنا معاً، ذهبت أبحث عن عربة، بعد أن بقينا برهة في ردهة المسرح ولم تأتِ أي عربة إلى المدخل؛ أنّبت كلودين بعنف دو برويل، واستمرت في جدالها معه بعد أن ركبنا العربة، وكانت توجّه اليه عبارات مُذِلّة، وهم يوصلونني، في طريقهم، إلى منزل فلورين. سألت: «وبعد! ما الأمر؟

رد دو برويل: يا عزيزي، إنّها تلومني لأنني تركتك تجري سعياً وراء عربة، ونتيجة لذلك، أرادت من الآن فصاعداً أن يكون لها عربتها الخاصة.

وعلّقت توليا: «بعد أن غدوت الراقصة الأولى لم استخدم قدميّ إلا للرقص

---

(١) دوريّة اعلانات صغيرة، أسّست في العام ١٦٣٨ من قبل رنودو تحت اسم **«مكتب العناوين»** ثم اتخذت اسم **الإعلانات الصغيرة** بدءاً من العام ١٧١٥، وكان يخطر فيها عن بعض الصكوك ذات الطابع القضائي أو القانوني.

twitter @baghdad_library

على خشبة المسرح، فإذا كنت صاحب قلب، فستبتكر أربع مسرحيات إضافية في العام، وتهتم جيّداً بوجوب انجاحها وأنت تفكر بوجهة ريعها، وبذلك لا تغوص زوجتك في الوحل. إنني أخجل من المطالبة بها. وكان يجب أن تُخمّن الامي المستمرة منذ السنوات الخمسة بعد زواجي

أجاب دو برويل: أودُّ جيّداً تحقيق رغبتك، لكننا سنفلس.

- إن استدنت فإن ميراث عمي سيفي ديونك.

- انّك قادرة على أن تتركي علي الديون وتحتفظي بالميراث.

ـ آه! أهكذا تظنّ؟ لم يعد لي قول، فمثل هذه الكلمة تخرسني».

عندها راح دو برويل يقدّم الاعتذارات، ويشيد بمدى حبّه، وهي لاتردّ عليه.

تناول يديها، فتركتهما بين يديه، كانتا شبه متجلدتين كيدي ميتة. فتوليا تعرف، بكل تأكيد، أن تلعب دور المتماوتة، الذي تلعبه النساء ليبرهنّ عن رفضهن قبول كلّ شيء، أو أن يلغين روحهنّ، وفكرهنّ، وحياتهن، وينظرن إلى أنفسهن كبهائم. ما من شيء يؤلم أصحاب القلوب الطيّبة كهذه المناورة. لكن هذه الوسيلة لاتصلح للاستعمال إلا مع من يعبدونهن.

قالت لي وهي بالمظهر الأكثر ازدراءً: أتظنّ أن بمقدور كونت أن يوجّه مثل هذه الشتيمة حتى لو فكّر بها؟ لسوء حظّي عشت مع أدواق، وسفراء، ونبلاء كبار، وأعرف طرائق تصرفاتهم. كم يجعل هذا الحياة البورجوازية لاتطاق! بعد كل حساب، فإن مؤلفاً هزلياً ليس راستينياك ولا رتوره . . .» وعندها بدا على دو برويل مزيد من الشحوب.

بعد يومين التقيت مع دو برويل في بهو الأوبرا، وقمنا ببعض جولات معاً، وانتقلنا في الحديث إلى توليا، فقال لي: «لاتنظر إلى فورات غضبي في الجادّة نظرة الجدّ. فأنا شديد العنف».

ثابرت خلال شتاءين تقريباً لدى دو بروبل، وتابعت بيقظة مناورات كلودين وقد حَصَلَتْ على عربة فخمة، واندفع دو بروبل في السياسة، وجعلته يرتد عن آرائه الملكية، ويوالي العهد القائم، فيرجع إلى الإدارة التي كان موظفاً فيها، ويحوز على رضى الحرس الوطني فينتخب رائد فوج فيه، ويبرهن عن شجاعة كبيرة في إحدى الفتن، فيحصل على وريدة ضابط في جوقة الشرف، ويسمّى مقرّر لجنة العرائض ورئيس قسم. ويموت العم شافّارو ويترك دخل أربعين ألف فرنك سنوياً لابنة أخيه، وهو ثلاثة أرباع ثروته تقريباً. ويسمّى دو بروبل نائباً، لكنه قبل ذلك وكي لايخضع لانتخاب جديد يعمل على تعيينه مستشار دولة ومديراً. ويعيد طباعة دراسات في علم الآثار، ومؤلّفات في الإحصاء، ونشرتين سياسيتين تتخذ ذريعة لتسميته في إحدى الأكاديميات المتسامحة من المجمَّع[1]. وفي هذه الفترة أُنعم عليه برتبة كوماندور في جوقة الشرف؛ وكثرت حركته في مكائد المجلس إلى أن سمّي عيناً من أعيان فرنسة ومنح لقب كونت. لكن صديقنا لم يجسر حتى الآن على حمل هذا اللقب، إنّما وضعته امرأته على بطاقاتها الشخصية: «الكونتة دو بروبل». وقد حصل المؤلف المسرحي القديم على وسام ليوبولد، ووسام ايزابل، وصليب سان فلاديمير من الدرجة الثانية، ووسام الاستحقاق المدني من باڤاريا، ووسام المهماز الذهبي البابوي؛ أخيراً فإنه يحمل كلَّ الصلبان الصغيرة عدا صليبه الكبير[2].

منذ ثلاثة أشهر جاءت كلودين حتى باب لاپالفرين في عربتها الفخمة المزيّنة بشعار النبل؛ فدو بروبل حفيد طبيب معالج مُنح لقب نبالة في نهاية عهد لويس

---

(١) بدلاً من الاكاديمية الفرنسية التي سحب بلزاك ترشيحه منها لمصلح فيكتور هوغو (في ١٩ كانون أول ١٨٣٩) الذي لم ينجح وفاز عليه الفيزيولوجي بيير فلورنس. والأكاديميات المتسامحة التي يتطرّق إليها بلزاك هنا هي إما أكاديمية الحفر والفنون الجميلة (بسبب الدراسات في علم الآثار) أو اكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية بسبب مؤلّفات الإحصاء وخاصة النشرتين السياسيتين أيضاً.

(٢) هذه الأوسمة حقيقية، ووسام إيزابيل اسباني، وصليب سان فلاديمير -روسي، وقد حصل عليهما لابيلارديير أيضاً في قصة «المستخدمين».

twitter @baghdad_library

الرابع عشر، وقد ركّب له شعاره شرين[1]، ولم يكن تاج الكونتية متلائماً مع هذا الشعار الذي لايظهر أيّاً من المساخر الامبراطورية. وهكذا نفّذت كلودين في ظرف ثلاث سنوات[2] البرنامج الذي فرضه عليها لاپالفرين المرح الجذاب. ومنذ شهر، كانت تصعد في أحد الأيام سلّم الفندق الحقير الذي يقيم فيه عشيقها، وهي تتسلق متسربلة بمجدها، متأنّقة ككونتة حقيقية من كونتات ضاحية سان اونوره إلى سقيفة صديقنا.

رأى لاپالفرين كلودين وقال لها: «أنا أعلم أنك سميت من الأعيان. لكن هذا حدث متأخراً يا كلودين، فكلُّ الناس يحدثونني عن صليب الجنوب. وأريد أن أراه.

- سأحصل لك عليه».

عند ذاك أطلق لاپالفرين ضحكة هوميرية وقال لها: «بكلّ تأكيد، لاأريد امرأة جاهلة كسمكة الزنجور خليلةً، وهي تقوم بمثل قفزات الشبوط[3] من كواليس الأوبرا إلى البلاط، لأنني أريد أن أراك في بلاط المواطن[4].

سألتني بصوت حزين مهان: «ما هو صليب الجنوب؟

أُسرتُ إعجاباً بهذا الاستمرار في حبّ حقيقي، وهو في الحياة الواقعية، كما في حكايات السحْر الأكثر سذاجة، ينطلق في المهاوي ليفوز بالزهرة التي تشدو أو ببيضة طائر الرخ[5].

---

(١) برنار شرين CHÉRIN(١٧١٨ -١٧٨٥): نسّابة في الرتب الملكية (١٧٧٢) ومؤرّخ رسمي (١٧٧٦) واختصاصي بالشعارات عنيت سجلاته بأكثر من أربعة آلاف عائلة نبيلة.

(٢) تأريخ يتناقض مع ماورد في النص ومع رواية بياتريس فنحن الآن على الأقل في العام ١٨٣٨ (مما يعني أن اللقاء الأول حدث في العام ١٨٣٤) وفي بياتريس تمّ لقاء لاپالفرين بالسيدة دي روشفيد في نيسان ١٨٤١.

(٣) الزنجور نوع من السمك النهري المستطيل الشكل السهل الاصطياد. وقفزة الشبوط كناية عن قفزات سريعة دون الاعتماد على اليدين.

(٤) كان يطلق على لويس فيليب لقب الملك المواطن.

(٥) طائر الرخ: طائر خرافي ذكر في قصص ألف ليلة وليلة.

شرحت لها أن صليب النجوم هو مجموعة كويكبات تأخذ شكل صليب سديمي أكثر بريقاً من درب التبّانة وهو لايرى إلا من البحار الجنوبية.

قالت للاپالفرين: حسن يا شارل، لنذهب إلى هناك.

بدت دمعة في عيني لاپالفرين رغم شراسة روحه لكن أيّة نظرة وأيّة لهجة صوت لدى كلودين! لم أشهد يوماً ما يماثلها حتى في جهود كبار الممثلين الأكثر تفرّداً.

جثت كلودين على ركبتيها، وهي ترى هاتين العينين، على قسوتهما بالنسبة لها، تخضلّان بالدموع وقبّلت يد هذا اللاپالفرين العديم الشفقة، فأنهضها، وعاد إلى مظهره المتعاظم، هذا المظهر «القروي الفظّ»، وفقاً لوصفه، وقال لها: هيّا، يا ابنتي، سأفعل شيئاً ما من أجلك، سأذكرك في وصيتي!».

قال ناتان للسيدة دي روشفيد منهياً حديثه: «وبعد، أتساءل إن كان دو برويل قد خُدع. من المؤكّد أنّ ما من أمر أكثر غرابة وأدعى للسخرية من رؤية فكاهات شاب لامبال تسيّر أمور عائلة، وأقلّ نزواته تأمر وتنهي في الشؤون الهامّة فيها، فحادثة دعوة العشاء، المذكورة كمثال، قد تكررت، كما تتوقعين في ألف مناسبة وفي أشياء أكثر أهمية! ولكن لولا نزوات توليا لبقي دو برويل حتى الآن كورسي، المؤلّف الهزلي بين خمسمئة مؤلّف هزلي على شاكلته. بينما هو الآن في مجلس الأعيان..»

قال ناتان للسيّدة دي لابودري: آمل أن تغيّري الأسماء في قصتك.

همست في اذن الشاعر: أعتقد جيّداً أنني سأفعل ذلك، يا عزيزي ناتان، وأنا لا أضع أقنعة على الأسماء إلا من أجلك، إذ أنني أعرف عائلة أخرى، المرأة فيها هي في موقع دو برويل[1].

(١) المقصود ابنة البارونة دلفين دي نوسنجن بعد زواجها من راستينياك (مما سيرد شرحه في الدراسة).

twitter @baghdad_library

سأل لوستو الذي عاد في اللحظة التي أنهت فيها السيّدة دي لابودري قراءة قصتها: «والخاتمة؟

ردت السيدة دي لابودري: لا أؤمن بالخواتيم، فيجب أن تكون على قدر من الجمال لتبرهن على أن الفن بمثل قوّة المصادفة، والقصة، يا عزيزي، لا تعاد قراءتها إلا من أجل تفاصيلها.

قال ناتان: لكن هناك خاتمة

سألت السيدة لابودري: ايه! وماهي؟

- إن المركيزة دي روشفيد متيّمة بشارل إدوار، فقصتي قد أثارت فضولها.

هتفت السيّدة دي لابودري: أوه! يا للتعيسة!

قال ناتان: ليست على هذا القدر من التعاسة لأن مكسيم دي تراي ولاپالفرين قد أفسدا بين المركيز والسيّدة شونتز، وسيصلحان بين أرثور وبياتريس.

(انظر بياتريس، مشاهد من الحياة الخاصة[1]).

انتهت

(١) ملاحظة أضيفت مؤخراً من قبل بلزاك في الطبعات اللاحقة كدعاية للرواية التي قرّر تعديلها لتتلاءم مع الخاتمة.

دراسة حول المؤلّف والقصة

إعداد باتريك برتيه

علينا أن نحمل محمل الجد هذه الرواية التي كتبها بلزاك على عجل : ففي صيف ١٨٤٠ ، كتب بلزاك : لوحده تقريباً الأعداد الثلاثة من **المجلة الباريسية**[١] . أجل نحملها محمل الجد ، لأنها تمثّل في جميع أقسامها حاصلاً نقدياً حقيقياً يعرضه الكاتب كصورة فوتوغرافية للأحداث السياسية والثقافية خلال العام ، ومن هذه الناحية فقط فإن **نزوات كلودين** (وهي العنوان الأول لأمير من بوهيمية تعتبر استمراراً منطقياً **لماركاس**[٢] المنشورة في العدد السابق : والمؤلّفان يدينان ، بالحماس نفسه ، الإهمال الذي يلقاه أصحاب المواهب في ظلّ نظام «حكم الشيوخ» الجيروندين والتعفن الذي يَحكُم به «مرضُ العصر» على الشباب الطموح .

وببساطة يعرض ز . **ماركاس** التصوير الرمزي ، بقَدَر استثنائي ، لحقيقة لاتعطي عنها **نزوات كلودين** ، ظاهرياً ، إلا توضيحاً هجائياً . هل يعني هذا أن العمل

---

(١) المجلة الباريسية LA REVUE PARISIENNE : أنشأ بلزاك هذه المجلة على نسق مجلة «الزنابير» النقدية -السياسية لألفونس كار (١٨٠٨ -١٨٩٠) . وقام أرمان دوتاك (١٨١٠ -١٨٥٦) بتسديد نفقاتها فصدر منها ثلاثة أعداد (٢٥ تموز -٢٥ أيلول ١٨٤٠) حرّرها بلزاك بكاملها تقريباً . واضطرت بعدها إلى التوقف ، بعد أن تراجع دوتاك عن تمويلها .

(٢) ز . ماركاس : قصة سابقة لبلزاك .

twitter @baghdad_library

«ثانوي»؟ إنّنا نريد أن نُشعرَ، بعد قراءتها على مختلف المستويات من العمق، أنّه لايكفي، دون شكّ، أن نرى فيها، كما رأى موريس باردش، مجرّد فقاعات شمبانية.

مع الاعتراف بأن انطباعي شخصي، فإنني أميل إلى الإعتقاد بأن بلزاك سعى أولاً إلى انتهاز فرصة لتسجيل نقاط ضد سانت بوف. فهذا الناقد لم يرض إلا مؤخراً بملاحظة وجود الروائي، وقد صرّح دائماً بملء تحفظه، وحتى بضغينته على نتاجٍ ضلَّ عن مفهومه للأدب **الملائم**.

وسواء أكان من المبالغة أم لا، اعتبارُ الدافع الأوّل لكتابة **الزنبقة في الوادي** الرغبة في مناقضة رواية «**نشوة**»[1]؛ فقد تجمّعت لبلزاك كل الأسباب، في العام ١٨٤٠، ليحقد أكثر من أي وقت مضى على خصمه. فسانت بوف نقد بشدّة رواية **رجل كبير من المقاطعات في باريس**، في مجلة «**العالَمين**» بتاريخ ١٥ تموز ١٨٣٩؛ وفي الأوّل من أيلول بمقاله الشهير «أدب صناعي»، سخر من كتّاب المسلسلات، الخبراء في «تسويد الصحائف» ليكسبوا زيادة من المال، وهاجم جمعية رجال الأدب التي انتُخِبَ بلزاك رئيساً لها بتاريخ ١٦ آب. أخيراً فإنّه في أوّل آذار ١٨٤٠ وفي مقال: «بعد عشر سنوات من الأدب» غالى في التحامل الشخصي حتى التطرف فكتب: «يبدو أن السيد دي بلزاك منصرف في شغل شاغل لإنهاء مئة مجلد، كما بدأها، بحيث لايقرؤها إنسان. إننا لانرى من شهرته إلاّ وسطها كظهر بعض الأسماك الكبيرة في البحر». وهكذا فإن نشر رندويل في ٧/ ٤/ ١٨٤٠ للجزء الأوّل من المحاضرات التي ألقاها سانت بوف في جنيف عن **بور رويال**[2]. حرّض لدى بلزاك ردّ فعل مضاعف: مقال «أساسي» مؤلّف في قسمه الأعظم من

---

(١) رواية شهيرة لسانت بوف صدرت في العام ١٨٣٤. ناقضها بلزاك في العام ١٨٣٥ برواية «الزنبقة في الوادي» كما ناقضها فلوبير بعد ذلك في العام ١٨٦٩ برواية «التربية العاطفية»

(٢) دراسات عن دير بور رويال والجانسنية لسانت بوف (١٨٤٠ -١٨٥٩) في ستة أجزاء. ظهر الجزء الأوّل بعنوان «أصل ونهضة بور رويال» في العام ١٨٤٠ وهو الذي وجه إليه بلزاك نقده العنيف، كما هو مبين في الحواشي.

نقد لاذع **لشخص** سانت بوف وإظهار تناقضه؛ ثم معارضة ساخرة موجهة مباشرة للهزء من أسلوبه كمؤرّخ، وقد ظهر المقال في ذات العدد من **المجلة الباريسية** الذي نُشِرت به قصة **نزوات كلودين** المشكّلة لنواة المعارضة الساخرة -التي بدت لنا طريفة- واخترنا منها عدداً من المقاطع المحوّرة، والتلميحات البيّنة.

لكن وجب وجود نصّ إلى جانب هذه الذريعة، وفكّر بلزاك في أن يقدّم تتمة لشخصيتي دو بروبل وتوليا اللتين ابتكرتا من أجل قصة **المستخدمين** (وكانت آنذاك بعنوان **المرأة السامية**). فمن هما هاتان الشخصيتان؟

وُجدت راقصة عادية باسم توليا احترفت الرقص ما بين التاريخين اللذين حدّدهما بلزاك بالنسبة لبطلته (١٨١٧ -١٨٢٧)، كما وجدت ممثلة ليست أكثر شهرة من الراقصة باسم جوليا وكان «يرعاها سوستن دي لاروشفوكو الشهير: وقد أرهقتها صحيفة «الناقد» الصغيرة، بسخرياتها من تشرين أول إلى كانون أول ١٨٢٥؛ ونوّهت آن ماري مينينجة بهذه المقالات. والحال أن جوليا هو الاسم الأول الذي أُطلق في البدء على توليا في مخطوطة **المستخدمين**، ومعطيات السيرة الذاتية التي قدّمها بلزاك في **أمير من بوهيمية** تتيح إيجاد علاقة بين هذه الشخصية والواقع الذي ذُكر عنها.

أما دوبرويل فاسمه في القصة دي كورسي يذكّر بفردريك دي كورسي المؤلّف الهزلي الذي شاع صيته في عهد ملكية تموز، ويمكن لبلزاك أن يفكر أيضاً بفورسي غوسدون الملقب مورتونفال، وكان يعرفه. أما اسمه في الهوية المدنية فوارد دون شك من پ. -ج دو برويل، صديق بونالد (وقد قرأ بلزاك مؤلّفاته في العام ١٨٤٠)؛ لكن موديلات الشخصية بالذات يصعب اكتشافها: وذكرت السيدة مينينجة منها ليون دي وايلي مؤلّف مسرحية **الموت في الحيرة** (الممثّلة في الاوديون بتاريخ ٨تشرين أول ١٨٢٥) وهي تذكّر **بالقاضي**[1] **في حيرة** لراوول وكورسي في **أوهام ضائعة**. وامرأته، وهي بطبعٍ محبّ للفكاهة، لها على الأرجح ملامح

(١) القاضي Alcade: كلمة اسبانية من أصل عربي.

twitter @baghdad_library

كلودين بعد الزواج. والماضي البيروقراطي لدو برويل يقرّبه لأمبيس، المستخدم في دائرة المخصّصات الملكية، ثم رئيس مكتب فيها، وقد توفي باروناً وأكاديمياً. كما أن جان توسان مرْل زوج ماري دورڤال والموالي المخلص للفرع البكر من العائلة المالكة، وصديق بلزاك، هو نموذج ممكن، دون شك، جزئي كالآخرين. أخيراً يجب عدم إهمال پيكسركور المؤلف الشهير للميلودرامات، الذي ذكر ثم شطب من مخطوطة **المستخدمين**.

مقابل هذين الزوجين، ابتكر بلزاك شخصية لاپالفرين انطلاقاً من عناصر متعددة. نجد من غير المجدي تقرير النموذج الغالب من بين النماذج الممكنة، فشارل لوتور -مزراري[1] يرجح المركيز دي كونتاد «رجل الكاميليا». وكان بلزاك يعرف هذا المتأنق منذ العام ١٨٣٠، وتقاسم معه في الأوبرا «المقصورة الجهنمية». وهنري مالو في **سنوات البوهيمية للدوقة دابرنتس** يفكر، بعد ج. توركان، بنابوليون دابرنتس (١٨٠٧ -١٨٥١)، وهو متأنق شهير آخر غني «بروح الفكاهة، وبالمتاعب المالية». وهو مثل لاپالفرين يتظاهر بأنه رجل أدب. وألفونس كار يذكّر بدور روجه دي بوفوار (المعروف بكادور) وهو من المعنيين المعاصرين بالأدب؛ وكاد بلزاك عقب نقد شخصي، موجّه في عدد ٢٥آب ١٨٤٠ من «المجلة الباريسية»، التي نشرت فيها أيضاً **نزوات كلودين**، يتصارع وإياه في مبارزة[2].

جميع هذه الآثار المقتفاة تضيع، وحتى تركيب القصة بالذات، وهو واضح في تقسيماته إلى فصول في طبعة ١٨٤٤، يدعو إلى النظر إلى شارل إدوار دي لاپالفرين كركيزة عامة لعدد من الفكاهات، يحتمل أنها حقيقية، لكنها واردة من مؤلّفين عدة. يبقى أن نذكر أن بلزاك في طبعة **المجلة الباريسية** يعرض القصة «وكأنّها حقيقة تماماً في جميع تفاصيلها». وسيعود، دون شك، إلى باحث سعيد الحظّ أن يكتشف أي «ثلاثي» حقيقي قدّم النموذج للشخص الذي عرض في القصة: ومع ذلك فهذه مسألة ثانوية.

---

(١) في «صورة معاصرة» ١٨٨٧

(٢) وفقاً لما ذكره في مراسلة له، وفي رواية بياتريس.

بالعودة إلى تاريخ النصّ يبدو لنا من الضروري، بسبب المسائل التي يطرحها، التعليق هنا بالذات على تعديل رئيس أجراه بلزاك على مؤلَّفه؛ ومع ذلك فنحن نقتصر على تعميق الملاحظات التي أبداها في السابق السيّد انطوني ر. بوغ[1].

في العام ١٨٤٠ لم تكن القصة مرتبطة **بالملهاة الانسانية** إلا بواسطة ثلاثة أشخاص: دو بروبل وتوليا، وقد سبق أن ذكرنا ابتكارهما لقصة **المستخدمين**، ثم القصّاص راوول ناتان الذي انتسب إلى عالم بلزاك، نحو العام ١٨٣٨، في ظروف معقدة. وتبدأ القصة مباشرة بالكلمات: «بين جميع هؤلاء الأشخاص المعروفين . . .» وكانت محاورة ناتان هي السيّدة الشابة أوجين دي راستينياك واسمها قبل الزواج اوغوستا دي نوسنجن؛ وفيما بعد فإن رواية **نائب آرسي** تفيدنا بأن بطل رواية الأب غوريو تزوّج في العام ١٨٣٨، الابنة بعد أن كان عشيقاً للأم، وقد سجلنا هذه الخلاصة البدائية كنقطة تغيّر، وناتان الذي قرأ أو سمع قراءة القصة مكتوبة بعد أن قصّها هو بالذات شفهياً، يسأل المؤلّفة إن كانت ستنشرها: وتأثير «مؤلف في مؤلف» وهذا الحوار بين المُبدع وصنوه كان له وقعه، فلم تعدّل الطبعة الأصلية الصادرة في العام ١٨٤٤ هذه المعطيات.

لكن بلزاك وجد من الضروري أن يعدّل قصته من أجل فورن **للملهاة الإنسانية** فأضاف أولا استهلالاً: وغدت من الآن فصاعداً دينا دي لابودري، وليست مؤلفة مجهولة، هي من يقدم لناتان القصة المنشأة وفقاً لروايته الشفهية؛ وبهذه الحيلة منحنا الروائي فرصة الإحساس بنفحة من أسلوب «**ربّة وحي المقاطعة**» (وكان قد أنهى الرواية التي تحمل هذا الاسم، ودينا لابودري بطلتها منذ نيسان ١٨٤٣)؛ خاصة، وأنه قد أرسل إلى العدم زوجة أوجين دي راستينياك التعسة، لتحلّ محلها بياتريس دي روشفيد؛ هوذا ما يبيّن ببعض الدقة تاريخ التعديل.

---

(١) ملاحظة حول خاتمة «أمير من بوهيمية» في السنة البلزاكية ١٩٦٧ ص٣٥٧ - ٣٦١.

(٢) انظر ب. بريته: «ناتان، وبلزاك، و**الملهاة الانسانية** في السنة البلزاكية ١٩٧١ ص١٧١ - ١٧٤.

twitter @baghdad_library

والواقع أن بلزاك حرّر بين نهاية ١٨٤٤ وبداية ١٨٤٥ ، القسم الأخير من **بياتريس** ، وهو **المناورات الصغيرة لامرأة فاضلة** ، وقد ظهر متسلسلاً في «المسّاجه» بين ٢٤ كانون أول و٢٣ كانون الثاني ، وهو يقصّ فيه عودة السيّدة دي روشفيد إلى منزل الزوجية ، بوساطة لاپالفرين الذي يلقيه ناتان كلياً بين ذراعيها : «وناتان ، المتأكّد من أن الكونت لن يفشي أي شيء آخر ، يقوم بمدح هذا الشاب الظريف الوقح لدى السيّدة دي روشفيد حتى أن بياتريس المتحرّضة بقصص الشاعر أبدت رغبتها في رؤية هذا الشاب ملك المتشردين الظرفاء» ؛ ولانشك في أن هذا المديح كان في خاطر الروائي هو العَرَض الذي يشكل القسم الرئيس في قصة **أمير بوهيمية** ؛ فناتان يؤكد في الأسطر الأخيرة من هذا المؤلّف : «إن قصتي أثارت فضولها» ونشير هنا إلى تقارب فعلي الإثارة والتحريض[1] ، وهكذا غدت قصة ١٨٤٠ من الآن فصاعداً مرتبطة بشكل وثيق ببياتريس إحدى الروايات الرئيسة في الملهاة الانسانية .

تمّ هذا للأسف على حساب بعض الشوائب ؛ فبلزاك ، في الواقع ، بخطأ من إعادة النظر في التأريخ الخاص بالحبكتين ، أدخل في قصة **أمير من بوهيمية** تفاوتا زمنياً لم يكن موجوداً فيها من قبل . فالسياق الداخلي لهذه القصة ، بالرغم من عدم الدقة فيه ، يشير إلى أن الخاتمة في سرد ناتان -عندما تصعد كلودين إلى سقيفة شارل إدوار تعود في أقرب حدٍّ إلى العام ١٨٣٧ (إذ أن اللقاء قد تمّ قبل ذلك بثلاث سنوات في العام ١٨٣٤) والأكثر احتمالاً بعد ١٨٣٨ (وفقاً لمجمل النصّ ، ومع القبول بالتحديد المتعمّد لتاريخ زواج أوغوستا دي نوسنجن في رواية **نائب آرسي**) وعلى أبعد حدّ في ربيع ١٨٤٠ (إذا أخذنا بالاعتبار قول ناتان «ستقومين بنشر هذا» معاصراً للتحرير الفعلي **لنزوات كلودين** من قبل بلزاك) ؛ غير أن سير الأحداث الداخلية في بياتريس الأكثر سهولة في التأريخ الدقيق ، يشير إلى أن سرد مآثر شارل إدوار من قبل ناتان للسيدة دي روشفيد قد تمّ في نيسان ١٨٤١ ، وعودة هذه الأخيرة إلى المسكن الزوجي كان في شهر أيار : والحال هناك تلميح إلى هذه العودة في

---

(١) استخدم لهما بلزاك استعارة PIQUER و AIGUILLONNER

الاستهلال المضاف إلى **أمير من بوهيمية**. والعبارة الأخيرة في القصة، في نصّ ١٨٤٥، تدعو القارئ لاعتبار قراءة دينا لقصتها قد حدثت عشية هذه العودة. وهذا ما لا يتفق لامع ١٨٤٠، الحد الأقصى، ولا مع التلميح المنوّه عنه في **ربّة وحي المقاطعة**، الذي يذكر أن ناتان كان مواظباً لدى دينا خلال شتاء ١٨٣٩ - ١٨٤٠ (وهو تاريخ يتلاءم جيّداً مع الاستهلال، لو لم يتم التعرّض في ذات الوقت إلى بياتريس).

لم يقتصر إحلال بياتريس محل السيّدة دي راستينياك على التشويش في التأريخ، وإنّما تعدّاه إلى الاحتمال السيكولوجي للخاتمة. فهنري إيفانس يقدر أنّ بلزاك على حق في التصحيح، لأن فكرة راستينياك محكوم من قبل حماته لا تبدو متوافقة مع جملة الشخصيّة في **الملهاة الانسانية**، ولكن علاوة على أن هذا الرأي يناقش كما هو (إذ أن واستينياك هو في أكثر من جهة ضعيف، ومن المعروف أن شخصيته «التقنية بعيدة عن الإنسجام»؛ فإننا نعتقد وفقاً لكلمة للسيد بوغ أن بلزاك في العام ١٨٤٥ قد جعل إحدى الأفكار الحسّاسة غير مفهومة. فعبارة: «إنني أعرف عائلة أخرى، المرأة فيها في موقع دي برويل» ليس لها دلالة إلا بقدر ما يبدو واضحاً أن السيدة الشابة دي راستينياك تشعر تجاه تأثير دلفين دي نوسنجن على أوجين بذات وضع دو برويل تجاه تأثير لاپالفرين على توليا وإلا لتعذّر فهم صدور هذه العبارة من فم السيّدة دي لابودري التي ليس لها تأثير إلا على لوستو الضعيف. كانت قصة ١٨٤٠ تطرح انشاء لاغور له، يشير فيه انعكاس الأوضاع والعواطف بطريقة دقيقة تقريباً إلى القوّة التي يمكن أن يمارسها المؤلّف على قارئ أو سلمع يُحمَل بشكل طبيعي على أن يتطابق مع الأبطال؛ بينما السرد في قصة ١٨٤٥ ليس إلا أداة إغواء مخصّصة لأخذ مركيزة مغامرة على «الطرقات السيئة» في شَرَك. ومن المسوّغ التأسّف لأن الإهتمام الإعلامي بالإحالة إلى **بياتريس**، المعبّر عنه بوضوح في الخاتمة، قد قاد إلى تضحية هذه اللقية الجميلة السابقة.

لنتجنّب استخلاص أي حكم متسرّع على الدلالة المجملة لقصة **أمير من بوهيمية** في نِتاج بلزاك. من المؤكّد للوهلة الأولى أن الروائي يعود مجدّداً إلى تقاليد

twitter @baghdad_library

صحيفة أكثر منها أدبية **فأمير من بوهيمية** هي، في آن واحد، الأولى من مجموعة قصص بأسلوب متقارب (على سبيل المثال: **رجل أعمال**، أو **ممثلون غافلون**) وهي أيضاً عودة إلى النقد اللاذع للطبائع، مما سبق لبلزاك أن مارسه حوالي ١٨٣٠ خلال تعاونه مع مجلة **كاريكاتور**، والدوريات الأخرى. وكلُّ القسم الأول من القصة، وخاصة في طبعة العام ١٨٤٤ التي تعطي لكل عنصر في السرد عنواناً متميزاً، ممهور بما يسميه بروس تولّي «بلزاك راوي النوادر[١]»، إنّه طابع الدفاتر التذكارية، إنَّه الهوس الصالوني في التصنيفات المثيرة للإعجاب؛ إنَّه بعض فنّ النقش. فبعد اللوحات الباريسية الكبرى من القسم الثاني **لأوهام ضائعة**؛ يبدو في صورة شارل إدوار، كما يقول م. باردش، شيء من **مُشه**. والمقصود إثارة الذهن بتلميح متكرّر إلى الأحداث الجارية: وعلاوة على الإشارات البارزة إلى الجزء الأول من **بور رويال**، يتضمَّن المؤلّف، في الواقع، عدداً مدهشاً من **الأصداء** لجمل مكتوبة هنا وهناك في الصحف، أو مهموسة في كواليس المسرح أو الأوبرا. ويصعب علينا تحديد هذه الأصداء جميعها: لكن من الملفت للنظر العودة عدة مرات إلى اسم تيوفيل غوتيه؛ إنّما قد نكتشف بتوجيه قراءتنا إلى مواضع أخرى تشابهات أخرى في التفصيل؛ ولايمكن أن يفوت القارئ اليقظ المتابع للحياة الباريسية في العام ١٨٤٠ الشعور، على كل حال، بأنه هنا في مجال مألوف له.

يمكن أن يقال مع ذلك أن دو برويل لايمكن أن يصمد أبداً أمام فنانين كبار سبق لبلزاك إبداعهم -ومن المؤكد أن ليس له قدرة ناتان، هذا الذي يقصّ صدفته المتكلّفة. لكن أي نجاح هزلي في خلق هذا المهرج، الذي نراه كما كُرْفِل فيما بعد، يأخذ وضعاً ليبدأ عباراته الأكثر ابتذالاً بهذه المخاطبة المتكررة: «يا عزيزي...»! ثم أنّ دوبرويل ليس هنا إلا بطلاً غير مباشر احتاج إليه بلزاك ليبرر مجابهة طبعين أكثر أهمية في نظره. والعنوانان المتتابعان في المؤلّف يشيران، على الأرجح، إلى عدم البحث بجدية عن تفوّق روائي بين شارل إدوار وكلودين. ينوّه بول غارن[٢] بشكل

---

(١) عنوان مقال منشور في السنة البلزاكية ١٩٦٧

(٢) مقدّمة «أمير من بوهيمية» في نتاج بلزاك، نشر النادي الفرنسي للكتاب. الجزء التاسع ص٦٣١ -٦٤٤

يثير الإعجاب إلى الإغراء المضاعف لهذين المخلوقين على بلزاك. فالروائي معجب بكلودين لإخلاصها بقدر إعجابه بشارل إدوار لكلبيته. فالأولى بخضوعها لذلّ الحب تصل إلى الكبر الحقيقي، وهو أن تحيا بسعة؛ بينما الآخر بإذلاله لمن يحب، يمارس القدرة المشتهاة لموجّه اللعب.

إن ذلك الذي رأى فيه سانت بوف خبيراً مفرطاً «بأسرار المضجع» وَجَدَ في توليا الوجه الرابع الكبير للعاهرة العاشقة المبتكرة خلال هذه السنوات الخصبة ١٨٣٨ -١٨٤٠ فتوليا تضحّي بنفسها للمعبود لاپالفرين، كما ضحت كورالي ومن بعدها استير لمعبودهما لوسيان (هل يجب القول أيضاً وبقدر تضحية فلورين؟ إنّما ناتان أدونيس تافه). أما عن «أمير بوهيمية»، يكون فيها دي تراي «الأرشيدوق»[1] السائر إلى الشيخوخة؛ فلا شك أنه يمارس على بلزاك ما اصطلح على تسميته تأثير «الطبقة». فالحقارات الخسيسة لهذا الصيّاد الأثيل الوقح تعتبر من التحف لأنها أميرية: ولئن تبرّرت كليشه لبلزاك عاميّ بفم مفتوح دهشة أمام النبالة العتيقة فربما كانت في الحالة الخاصة لهذا البطل الذي هو في آن واحد الأصل والكاريكاتور.

نعود هنا إلى نقطة الانطلاق في هذه الدراسة، إذ لاننسى أن لابالفرين يظهر، منذ تعديل ١٨٤٥، كوسيلة مناسبة خاصة لربط المؤلّف **بالملهاة الإنسانية**؛ وقد قدمه بلزاك أولاً في العام ١٨٤٠ كضحيّة، من بين آخرين، **لنظام** سياسي: فشارل -أدوار رجل سطحي، لأن العهد يدينه؛ عاطل وبَطِر لأن خزي الكسل وفضيحة سوء الأخلاق هما السلوكان الوحيدان اللذان مازالا متاحين له. والضرورة الاجتماعية هي التي تقسر شارل إدوار على العيش بالوكالة في خط صعود دو بروبل؛ وربما كان السعي إلى توجيه هذا الصعود من بعيد، بإهانة كلودين المتيّمة والهزء منها، لايعود إلا إلى هذه السخرية المرّة المستثارة فيه بهذا السبيل الوحيد الباقي من العجز. فلاپالفرين، في ظلّ عهد لايمنحه إلا ترف

(١) انظر رواية «بياتريس».

twitter @baghdad_library

الظهور، **لا يمكنه أن يحبّ** «بالكيان والحقيقة»: فحياته الوحيدة الممكنة هي في عدم الإحساس. تُلمح بهذا المنظور هوة الطموحات البلزاكية، التي يغرق فيها، منذ رفع الشراع، هذا الشبيه الواهي للويس الثالث عشر... لأن بلزاك أيضاً يرى في لاپالفرين نجاحات الكاتب المسرحي ذي التوفيق الذي لم يحصل عليه، والأكاديمي الذي لم يفز، والرجل المتزوج الذي لم يكنه: «أريد أن تحسدني باريس كلّها على سعادتي! وأن يقف أي فتى وهو يرى عربة فخمة، تستقلها كونتة متأنقة ليتساءل: لمن تكون أمثال هذه الربات المعبودات، ويستغرق في التفكير. لكن «الكونتة المتأنقة» بعيدة، في أوكرانيتها، ولم تترمّل حتى الآن...

هذه هي المزية غير المتوقعة لهذه الأعمال المهملة بعض الإهمال. إنّها تكشف لنا عن بلزاك بكليّته في كل صفحة من صفحاتها: هاوي نوادر، إنما ليس هنا أقل منه في الأماكن الأخرى مؤرّخا للتقاليد السياسية أو جرّاحاً للروح، حتى لو لم يكن في كامل الوعي، في لحظة التحرير، لإشراكات نصّه. إنّ على القارئ أن يظهر الغنى المضمر: أليس من المسموح به، من جهة أخرى، أن يُفضّل على التأثير المباشر لدعابة خشنة أحياناً، أو على الطعم العابر لمعارضة لاذعة، الوصف المنفعل سراً لحبّ يستحيل تبادله (أسطورة الخنثى الكاذبة)، أو النداء الملحّ لطموح إلى نبالة أو مركز سياسي، لاتنطفئ جذوته؟ مشكال[1] اجتماعي (بوهموراما[2] كما يقال لدى الأم ڤوكه). نتاج ملتقى (بعض أعمال بلزاك تضم أكثر من ثلاثين شخصا)، اعتراف (لاإرادي؟) **بتوقّع سعادة لايُمَلُّ**، أيّا كان، فهذا العمل الصغير يفيض بسعة عن إطاره. «رغوة شمبانية»؟ بكل تأكيد، لعدة ثوان (أو عند القراءة الأولى)، لكن تتجلى عند تذوق الكأس الحقيقية؛ عند إعادة القراءة، جودتها.

---

(١) المشكال KALEIDOSCOPE: آلة انبوبية تحتوي على مرايا مركّزة بحيث أن الأشياء الملونة الصغيرة الموجودة معها في الأنبوب تتحرك فتولّد رسوماً مختلفة الأشكال والألوان.

(٢) بوهموراما BOHEMORAMA: كلمة مؤلفة من BOHÉMIE بوهيمية وRAMA منظر أي منظر بوهيمي؛ انّما فضلنا إبقاء الكلمة، على منوال سينراما وبانوراما الخ.

٢- رجل أعمال

دراسات طبائع

مشاهد من الحياة الباريسية

العنوان الأصلي:

BALZAC
LA COMÉDIE HUMAINE

UN HOMME D'AFFAIRES

ETUDES DE MŒURS
SCÈNES DE LA VIE PARISIENNE

twitter @baghdad_library

رجل أعمال

الإهداء

إلى السيد البارون جَمْس روتشيلد قنصل النمسة العام في باريس؛ صاحب مصرف[1].

لوريت[2] كلمة محتشمة ابتكرت لتعبّر عن فتاة، هي في وضع تصعب تسميته، وأهملت الأكاديمية الفرنسية، في احتشامها، تعريفها، نظراً لأعمار أعضائها الأربعين. عندما يستجيب اسم جديد لوضع اجتماعي لايمكن قوله دون

---

(١) في نادي «سيركل» في اكس -لي -بَن، ولدى اقامته، في خريف ١٨٣٢، في ضيافة المركيزة دي كاستري التقى بلزاك لأول مرّة مع البارون جمس دي روتشيلد (١٧٩٢ -١٨٦٨)، وقد سجّل اسمه هذا كما سجل اسم البارونة في اهدائها «الولد الملعون» بدون «دي» دلالة النبالة. وفي العام ١٨٣٥، يستدين بلزاك ١٥٠٠ فرنك من المصرفي لرحلته إلى ڤيينا. ويذكر الناشر «وَردة» في «ذكرياته» ما قاله له روتشيلد عندما زاره ليسدّد له هذا الدين: «احذر جيّداً دي بلزاك، فهو رجل خفيف» وبلزاك في هذا الاهداء أبعد ما يكون عن السخرية، وقد أضافه عند ظهور قصة «رجل أعمال» في الملهاة الانسانية في آب١٨٤٦، سعياً لاكتساب ثقة موزع أسهم «خطوط حديد الشمال» الشهيرة، والتي كان إصدارها وشيك الوقوع. لكن الخيبة التي نتجت بعد ذلك تسمح بالتساؤل ما إذا لم تكن الأرباح العجيبة التي أمّل بها من وراء هذه الأسهم «خفيفة جداً بدورها».

(٢) لوريت: اسم مستمد من كنيسة نوتردام دي لوريت، وهي تقع في حيّ كانت تسكن فيه كثير من النساء المستهترات. لذلك أطلق هذا الاسم في العام ١٨٤٠ على كل فتاة شابة لعوب مستهترة على مثال نسوة ذلك الحي.

twitter @baghdad_library

تورية، يواتي الحظ الطيّب هذه الكلمة. وهكذا فكلمة لوريت انطلقت في جميع طبقات المجتمع حتى في تلك التي لن تمر فيها أي لوريت؛ ولم تثبت الكلمة إلا في العام ١٨٤٠. وذلك، دون شكّ، بسبب هذا التراكم لأعشاش السنونو هذه حول الكنيسة المكرّسة لنوتردام دي لوريت. أسوق هذه الاعتبارات من أجل علماء الاشتقاق اللغوي؛ فهؤلاء السادة ما كانوا ليرتبكون لو قام كتاب العصر الوسيط بتحليل أخلاق الفتيات المعنيات ووصفها كما نفعل نحن في هذا الزمن في التحليل والوصف.

كانت الآنسة توركه، أو مَلاغا[٢] - إذ أنها اشتهرت باسمها الحركي هذا (انظر روايتنا الخليلة المزعومة) هي إحدى أوائل رعيّة هذه الكنيسة الجذّابة. فهذه الفتاة الطروب، الفكهة، كان جمالها هو رصيدها الوحيد، فوظفته في الفترة التي تجري فيها هذه القصة لإسعاد موثق عقود، كانت زوجته على مزيد من التقى، والتيبُّس، والنَشَفان، بحيث غابت عن منزله الزوجي كلّ متعة.

ففي إحدى أمسيات الكرنفال دَعَا الموثق السيد كاردو إلى وليمة في بيت الآنسة توركه؛ ديروش المحامي المرخّص، وبيكسيو رسّام الكاريكاتور، ولوستو كاتب المسلسلات، وناتان، لما كانت جميع هذه الأسماء الشهيرة من أبطال الملهاة الانسانية[٣]، فلسنا بحاجة إلى إعادة توصيفهم، كماأن الشاب لابالفرين، وهو

(١) أنشئت الأكاديمية الفرنسية في العام ١٦٣٥ من قبل ريشليو، وعدد أعضائها أربعون. وآخر طبعة لمعجم الأكاديمية يعود إلى العام ١٨٣٥.

(٢) ملاغا MALAGA: يعود هذا الاسم إلى لاعبتي سيرك باريسيتين حقيقيتين شهيرتين هما: راقصة الحبل ملاغا (فرنسواز -جوزفين داسي، زوجة جوزيف بنفان، ١٧٦١ -١٨٥١) وابنتها فرنسواز -كاترين بنفان (المولودة في العام ١٧٨٦) الملقبة «ملاغا الابنة» والتي كتب عنها بلزاك إلى السيدة هانسكا في ٦ نيسان ١٨٤٣: «عرفت من بلتزار ببراعة ملاغا، التي ستسألينني عنها في أمسية ما من هذا الصيف، وهي جديرة ببوكاس، وعندما حدّثني صديقي لوران -جان، وهو آنذاك خليل ملاغا عن هذا الدورّ، وجب أن أقطع علاقاتي مع هذا العرّاف الكبير.

(٣) اسماء شهيرة بالفعل: اشتهر ديروش منذ قصة **بيت نوسنجن** (في العام ١٨٣٧)، وبيكسيو منذ رواية **المستخدمين** (أو **المرأة السامية**، ١٨٣٧)؛ ولوستو، وناتان منذ **ابنة حواء** (١٨٣٨) وزوجة الموثق المتيبسة منذ **ربة وحي المقاطعة** (١٨٤٣) حيث نعرف من تلك الرواية أيضاً أن كاردو «يرعى» «ملاغا» المعروفة منذ **الخليلة المزعومة** (١٨٤١). وقد عمد بلزاك، ربّما من أجل ألا يتناقض، أو يتشوّش، إلى أن يبدّل

كونت من أسرة عريقة، لكنها للأسف لاتملك أية وثيقة على عراقتها، قد شرّف بوجوده المنزل غير الشرعي للموثق. وفي عشاء اللوريت وحده يُحظَى بتناول العجل المسمّن، وإلا فإن الفروج المعروق على المائدة الزوجية وسلَطة العائلة لن يسندا الأود، ولن يفسحا المجال لهذه المسامرات المرائية في صالة مؤثّثة بفضائل البورجوازية. آه! متى ستغدو الطبائع الرفيعة جذّابة؟ ومتى ستُظهر نساء طبقات المجتمع العليا قدراً أقل من عري أكتافهن، وقدراً أكبر من طيبتهن ونباهتهن؟ إن مرغريت توركه، أسبازيا السيرك الأولمبي[1] هي إحدى هذه الطبائع الصريحة الحيّة، التي يُغفَر لها كل شيء بسبب سذاجة خطئها وتجلّي روحها في الندم، التي يقال أن كاردو رغم كونه موثقاً بلغ من رهافة الحسّ ما دفعه ليقول لها: «اخدعيني جيّداً». ومع ذلك لاتعتقدوا بالكبائر؛ فديروش وكاردو كانا طفلين طيبين، ومن العراقة في المهنة بحيث يمكنهما مجاراة بيكسيو ولوستو وناتان والكونت الشاب. وكان هؤلاء السادة يلجؤون غالباً إلى هذين الرجلين القضائيين، وهم على معرفة وثيقة بهما بحيث ترتفع الكلفة بينهم وفقاً للأسلوب اللوريتي.

← من أجل «مجلة القرن LE SIÈCLE» تفصيلين من نصّ قصته الأولى المعنونة «مكرٌ دائن» حيث كان قد حدّد زمن الأمسية في العام ١٨٤٣، واعتبر فيكتورينان دسغرينيون «راعياً لملاغا. والشخصيات التي سنصادفها بعد ذلك هي أيضاً من الممثلين المحنّكين في **الملهاة الانسانية**: تراي منذ رواية **الأب غوريو** وتعديل غوبسك (١٨٣٥) وسريزه منذ القسم الثالث من **أوهام ضائعة** (١٨٤٣) وكلابارون منذ **سيزار بيروتو**، و**بيت نوسنجن** (١٨٣٧) ولا بالفرين منذ **أمير من بوهيمية** (١٨٤٠)، ودستورني منذ رواية **مودست مينيون** (١٨٤٤).

(١) السيرك الأولمبي أو فرانكوني، نسبة إلى أوكَ مدير من ذرية شهيرة، حلّ في العام ١٧٨٨ محل المسرح الانكليزي الذي أسسه في العام ١٧٨٦ آستلي. وبعد عدة تنقلات وحريق استقرّ في العام ١٨٢٧ في أرض واسعة في جادة «التامبل» كان يشغلها سابقاً مسرح التروبادور -الجديد، والظلال الصينية، وما يهمنا هنا هو مسرح ملاغا حيث كانت تعمل المشعوذة الشهيرة والدة ملاغا الابنة. أما السيرك الأولمبي فكان يقوم بعروض فروسية خاصة: وبالتالي فملاغا الابنة كانت فارسة إذاً. وهذا ما يتبيّن بجلاء في **الخليلة المزعومة**، أو في الصيغة الأولى **لمكر الدائنين** حيث تظهر ازدراءها لانطونيا التي لم تعرف يوماً ركوب الجياد.

twitter @baghdad_library

كانت المسامرة، المعطرة برائحة دخان التبغ المنبعثة من سبعة[1] سجائر، عجيبة أولاً كحركة ماعز طليقة، ثم تركّزت على الاستراتجية التي تخلقها في باريس المعركة المستمرة القائمة بين الدائنين والمدينين. والحال أنكم إذا تكرّمتم بتذكّر حياة هؤلاء المدعوين وسوابقهم فمن الصعب أن تجدوا في باريس أشخاصاً أكثر خبرة بهذا الموضوع. فبعضهم من المتحنكين والآخرون من الفنانين، وهم يشبهون القضاة الذين يمازحون المتقاضين. وكانت سلسلة من الرسوم التي وضعها بيكسيو عن كليشي[2] هي سبب تحوّل المحادثة إلى هذا المجرى.

كان الليل قد انتصف، وانصرف هؤلاء الأشخاص المتجمعون في زمرتين حول المائدة وأمام المدفأة إلى هذه التخمينات التي لاتحدث إلا في باريس، ولاتدرك

---

(١) الرجال الموجودون ستة، هذا يعني أن السيجار (مفرد سجائر) كان من نصيب ملاغا.

(٢) في العام ١٨٤٦ حُذف من نسخة **الملهاة الانسانية** ما ذكر عن لوريتات غافارني ووصفه لسجن كليشه «وغافارني (١٨٠٤ -١٨٦٦) رسام وكاريكاتوري فرنسي اشتهر برسومه الناقدة للبورجوازية عدا عن رسوم اللعوبات (اللوريتات) وكان يتعاون مع المجلة الساخرة شاريفاري الصادرة في العام ١٨٣٢ والتي استمرت حتى العام ١٨٩٢». وهكذا فقد موضوع هذه المحادثة منبعين هامين جليين أثناء التحرير الجاري في كانون ثاني ١٨٤٤ : الدعاية لغافارني المتعاون في تقويم الشيطان في باريس ثم حداثة المرجع عن اللوريتات إذ أن آخر/ ٧٩/ لوحة حجرية من هذه السلسلة الشهيرة التي بدأ غافارني بنشرها في مجلة **الشاريفاري** بتاريخ ٣٠حزيران ١٨٤١ كانت قد ظهرت في عدد ٣٠كانون أول ١٨٤٣ أي قبل أقل من أسبوع من كتابة بلزاك لقصته. أما ٢٩قطعة المعنونة باسم «كليشي» فقد ظهرت في **الشاريفاري** بتاريخ ٢٤آب ١٨٤٠ وحتى ١٢أيار ١٨٤١ باستثناء لوحة واحدة نشرت في «**الكاريكاتور**» في كانون أول ١٨٤٠ و«كليشي» تمثّل إقامة غافارني في السجن الشهير في العام ١٨٣٥ في لوحة «ساخرة جداً على السطح عندما روى غافارني ذكرياته المتعلقة بالشائعات التي انتشرت عن إحداث تغيير ومضاعفة القسوة في نظام المنزل، وقد رجا مدير **شاريفاري** غافاري بالتعرّض للناحية المؤسفة في عقوبة السجن بسبب الدين. وكانت إحدى التعليقات الأكثر شهرة في هذه السلسلة قد طرحها أحد المدعوين على عشاء ملاغا وهي «لاتسدّد الأقساط! فالدائن الذي لا تسدّد له هو مجرّد دائن، أما الدائن الذي تدفع له فإنه نَمرٌ!» وإذا كانت كل الأسباب الدافعة للدعاية قد غدت غير ذات جدوى أو أن الحداثة المحلية قد وضعت جانباً. ينتج أن بلزاك لا يخشى من أن ينزع ملكية «**كليشي**» وينسبها إلى بيكسيو؛ هذا أمر تفصيلي دون شك، لكنه يصوّر إحدى الوسائل التي يستخدمها باني صرح **الملهاة الانسانية**.

إلا بها. بل ولايمكن أن تقع أو تفهم إلا في المنطقة المحدودة بضاحية مونمارتر وشارع شوسه دانتن بين صعدة شارع نافارين ومسار الجادّات.

خلال عشر دقائق استندت جميع الأفكار العميقة، والعبر الصغيرة والكبيرة، وكل السخريات حول هذا الموضوع المستنفد منذ العام ١٥٠٠[١] من قبل رابله. ولم يكن مما يعتز به أن تفوتهم هذه البارقة الممتعة التي أطلقتها ملاغا كسهم ناري.

قالت: إن كل هذا يرتدُّ لمصلحة الحذّائين. إذ أنني تخليت عن إحدى صانعات القبعات لأنها أخفقت في صنع قبعتين لي. وجاءت الحانقة للمرة السابعة والعشرين تطلب مني عشرين فرنكا. إنّها لا تعلم أن ليس لدينا أبداً عشرون فرنكاً. لدينا الألف فرنك، ويمكن أن نطلب من موثق عقودنا أن يؤمّن لنا خمسمئة فرنك. لكن ورقة العشرين فرنك لم أحصل عليها أبداً. ربّما كان لدى طاهيتي بالاشتراك مع وصيفتي عشرون فرنكاً. أما أنا فليس لديّ إلا اعتباري، وسأفقده إن اقترضت عشرين فرنكاً[٢]. إن طلبت هذا المبلغ، فلا شيء يميّزني عن زميلاتي اللواتي يتسكعن على الجادة.

---

(١) الاشارة إلى هذا التاريخ غير الدقيق يدفع إلى المناقشة فرابله من مواليد ١٤٨٤ على الأرجح وأول كتاب له وهو بنتاغرويل ظهر في العام ١٥٣٢ وبعده غارغنتوا في العام ١٥٣٤.

(٢) لدى بلزاك، حتى لاعبة الفروسية في سيرك تتميز بالذكاء فملاغا توجه بثلاث عبارات نقداً لاذعاً لأحد العيوب الرئيسة في ذلك الزمن، وهو نقص التعامل بالعملة الورقية، وهذا «التهافت على المال» الذي عبر عنه رينه بوتيه وبيّن دوره في الملهاة الانسانية، ودرس أسبابه وكتب:

«إن بنك فرنسة المهتم بإقامة توازن صارم بين الاحتياطي المعدني والأوراق النقدية يقرّر بعد لأي، وبتأخير مستمر، إصدار هذه الأوراق بكميات كافية. فيُحترسُ منها، ويُسعى إلى وسيلة لعرقلة وجود العملة المناسبة لأن المصارف لاتقبل التسديد إلا بأوراق أصدرتها هي بالذات. وكانت أصغر الأوراق النقدية هي ورقة/ ٥٠٠/ فرنك. وفي العام ١٨٤٧ فقط وجدت أصغر ورقة بمئتي فرنك. وفي العام ١٨٣١ بلغ تداول الأوراق النقدية مبلغاً اجمالياً قدره ٢٨٦ مليون فرنك، وفي العام ١٨٤٧ لم يتجاوز ٣١١ مليوناً ووجب على الأقل أن يكون النقد المعدني أكثر انتشاراً، لكن هذا لم يحدث، بل بالعكس، ففي عهد الملكية الثانية كان الانتاج السنوي من المعادن الثمينة في ظل حكومة تموز أقل منه في السنوات الأخيرة من الملكية الأولى إذ لم تزد مشتروات فرنسة من ١٨١٠ إلى ١٨٤٧ من المعادن الثمينة عن ٧٠مليون فرنكا ربعها من الذهب. فيما وصلت بين ١٧٨١ و١٨١٠ إلى ٢٥٨مليوناً. وهكذا فلا يمكن أن ←

twitter @baghdad_library

قال لابالفرين : وهل قبضت صانعة القبعات؟

ردت ملاغا وهي تنظر إليه بطرف عينها : آه! هكذا! هل أصابك الغباء؟ جاءت هذا الصباح للمرة السابعة والعشرين، هوذا سبب حديثي لكم عنها .

سأل ديروش : وماذا فعلت؟ .

- أشفقت عليها و . . . أوصيتها على القبعة الصغيرة التي ابتكرتها للخروج عن الأشكال المألوفة . وإذا نجحت الآنسة آماندا، فإنها لن تطلب مني شيئاً : فثروتها قد تحققت . قال الأستاذ ديروش : «أجمل ما رأيت في هذا النوع من الصراع يصور، في رأيي، باريس بالنسبة للأشخاص الذين يمارسونه، بشكل أفضل بكثير من جميع اللوحات التي تُرسّم فيها باريس عجيبة» .

ثم نظر إلى لوستو وبيكسيو ولابالفرين وناتان واستأنف : إنكم تعتقدون بقوّتكم، ولكن الملك في هذا الميدان هو أحد الكونتات المهتم حالياً بتبديل نمط حياته، والذي اعتبر في زمنه الأكثر مهارة، وبراعة، ومكراً، واطلاعاً، وشجاعة، وسمواً، وحزماً، وتبصّراً، من جميع القراصنة ذوي القفازات الصفراء والعربة الخاصة، والتصرفات الأنيقة، الذين أبحروا ويبحرون وسيبحرون في بحر باريس العاصف . دون ذمة أو خُلُق؛ تسيِّر سياسته الخاصة المبادئ التي تسير عليها الوزارة الانكليزية . وكانت حياته حتى زواجه حرباً متواصلة كتلك التي يخوضها لوستو؛ وقد كنت وما أزال محاميه المرخّص .

قال لابالفرين : والحرف الأوّل من اسمه هو مكسيم دي تراي

نلحّ كثيراً على هذه النقطة، إذ أنها إحدى الانعكاسات الأكثر تميّزاً لهذا الوضع في نتاج بلزاك -فكلّ البدائل «التي تسعى إلى معالجة هذا الجوع إلى المال، قد بسطت عندئذ بنسب غير طبيعية، ومجهولة آنذاك : سندات تجارة، كمبيالات ورهونات بجميع أشكالها . ومافتئت هذه البدائل تتداول، وتهاجم بكل طوّاقق الثروات المكتسبة، كأسهم تنطلق من جميع الجهات، ويظهر فتكها في كل صفحة من **الملهاة الانسانية**، أسلحة جديدة يُصارَع بها وتشيع الخراب والقنوط؛ بحيث يمكن بحق التأكيد بالمعنى الحقيقي والمجازي أن نصف المجتمع «يطلق النار» على النصف الآخر، وغدت باريس المكان الأكثر مكراً والأكثر خطراً في عالم المال، وربّما كان هذا لأنها الأكثر عسراً» (ر . بوڤيه، بلزاك رجل الأعمال ص٢٧٠ - ٢٨٠) .

استأنف دي روش : لقد سدّد كل ما عليه، ولم يسئ لإنسان، ولكن كما قال منذ لحظة صديقنا بيكسيو : المطالبة في آذار بما يتوجّب دفعه في تشرين أولّ مسّ بالحرية الشخصية، وفقاً لإحدى مواد قانونه الخاص، فمكسيم يعتبر اختلاساً الحيلة التي يلجأ إليها دائنوه لحمله على الدفع مباشرة. وقد فهم منذ مدة طويلة الكمبيالة بجميع نتائجها المباشرة وغير المباشرة. سمع مرة في مكتبي أحد الشباب يطلق على الكمبيالة لقب «جسر الحمير»، فعلّق بقوله: «كلا، انّها جسر التنهدات[1]، لأن لاعودة منه». وهكذا فإن خبرته في الاجتهادات القانونية التجارية تامة بحيث لا يمكن لأي قانوني معتمد أن يعلمه شيئاً جديداً فيها. وهكذا تعرفون أن ما من شيء مسجّل في ملكيته فعربته وخيوله مستأجرة، ومسكنه باسم خادمه[2] الذي يعتبره، على ما يقال، رجلاً كبيراً حتى بعد الزواج الذي يزمع إجراؤه! وهو عضو في ثلاثة نوادٍ حيث يتعشى في أحدها عندما لايكون مدعواً في المدينة. وقلّما يستخدم منزله بشكل عام...

هتف لابالفرين مقاطعاً ديروش: سبق أن قال لي «إن حماقتي الوحيدة هي ادّعائي بأنني أسكن في شارع بيغال.

تابع ديروش: هذا أحد المكافَحِين، والآن إليكم الآخر. سمعتم بعض كلام عن شخص اسمه كلابارون...

هتف بيكسيو وهو يُشعّث شعره: وهو يظهر وشعره منفوش بهذا الشكل» وبالموهبة التي عرفت عن شوبان الموسيقي في تقليد الأشخاص[3] بدرجة عالية من

---

(١) «جسير الحمير»: كناية عن الصعوبات التي يلاقيها الجهلة. و«جسر التنهّدات» هو الجسر الذي يمرّ عليه المحكومون بالتعذيب والسجن في البندقية من قصر الدوق إلى الزنزانات الرهيبة.

(٢) حيلة بالطبع ليتجنب أي حجز يوضع على ما يملكه.

(٣) كان شوبان صديقاً لجورج صاند، وكان بلزاك يقدر عالياً موهبته، ويراه متفوقاً واسمى بكثير من ليْست. أما موهبة التقليد المثارة هنا فقد أكّدتها جورج صاند وبيّنت كيف كان شوبان يعمد أحياناً إلى تبديد أحزانها الناشئة عن ارتجالاتها: «كان يلتفت إلى مرآة، وخفية يقوم بترتيب شعره وربطة عنقه ليظهر فجأة وقد تحوّل إلى انكليزي بارد، أو عجوز سفيه، أو انكليزية عاطفية ومثيرة للسخرية، أو يهودي خسيس.

twitter @baghdad_library

الإتقان، قام بتمثيل الشخصية بشكل مذهل قائلاً: «إنّه يهزّ رأسه هكذا عند الكلام، وكان مندوباً تجارياً ومارس جميع المهن. . .

ردّ ديروش: وبعد، فإنه وُلِد للسفر، وفي هذه اللحظة التي أتحدث بها، هو في طريقه إلى أمريكة، فحظّه الوحيد هناك، إذ من المحتمل أن يحكم عليه غيابيا لافلاس احتيالي في الدورة القادمة.

هتفت ملاغا: رجل في البحر!.

تابع دروش: كان كلابارون هذا خلال ست إلى سبع سنوات الواجهة، الرجل المسخَّر، كبش الفداء، لاثنين من أصدقائنا: دوتيه ونوسنجن، لكن دوره في العام ١٨٢٩ قد فضح بحيث أن. . .

قاطعه بيكسيو: بحيث تخلى عنه صديقانا.

استأنف ديروش: أخيراً تركاه لقَدَرِه، فتمرّغ في الوحل، وتشارك في العام ١٨٣٣ مع شخص اسمه سريزه للقيام بمشاريع تجارية. . .

سألت الغانية اللعوب: من؟! هذا الذي أجرى، خلال مشاريع وصائية[1]، تركيبة دفعت الغرفة السادسة إلى الحكم عليه بسنتي سجن؟.

أجاب ديروش: هو بذاته. ففي ظل الملكية الثانية كانت مهنة هذا السريزه من

---

(١) نتيجة أخرى للبنيات الاقتصادية والمالية غير السليمة وقد كتب عنها ر. بوثيه: «لم تكن الأموال تُقرَض للمشاريع بالذات، كما يجري في الوقت الحاضر عندما يسجّل على أسهم في شركة مغفلة أو عند الموافقة على دفع سُلَف لها. عدا عن أن الشركات المغفلة الخاضعة لنظام الترخيص المسبق، كانت ماتزال هي الاستثناء» كان شكل المشاركة المرجَّح قبل قانون ١٨٦٧ الشهير هو الشركة الوصائية المتضمّنة تعهّدات شخصية. غدت الشركات الوصائية الياناصيب، المقامرة بدون مائدة خضراء، وبغرفة غير مرئية، وبخداع مخطط له مسبقاً. (بيت نوسنجن). وكانت هذه الشركات تدفع إلى الحذر المبرّر جزئياً لنقص المرونة فيها وصعوبة ممارسة الرقابة الفعّالة على إدارتها. لذلك كان الدائنون يبدون مزيداً من التشدّد واليقظة.

١٨٢٣ إلى ١٨٢٧ أن يوقّع ببسالة على مقالات، ويلاحق بضراوة من قبل النيابة العامة، ويذهب إلى السجن. وهكذا اشتهر الرجل بثمن بخس. وسمّى الحزب الليبرالي بطله المُقاطعي سريزه الشجاع. وكوفئ هذا الحماس في العام ١٨٢٨ **بالصالح العام**. والصالح العام نوع من التاج المدني تمنحه الصحف. وأراد سريزه أن يستغلّ هذه المنحة، فجاء إلى باريس، حيث بدأ تحت رعاية مصرفيي اليسار، بوكالة أعمال مختلطة بعمليات مصرفية، وبرأسمال مقترض من رجل نفى نفسه بنفسه، مقامر ماهر جداً، غرق رأسماله في تموز ١٨٣٠ برفقة مركب الدولة الغارق...

هتف بيكسيو: وهذا ما لقّبناه طريقة المشاريع الورقية.

اعترضت ملاغا بقولها: لاتتلفّظ بسوء عن هذا الفتى المسكين. فدستورين فتى طيّب.

تابع دروش: هل تدركون الدور، الذي وجب أن يلعبه في العام ١٨٣٠، رجل مفلس، يسمى من وجهة النظر السياسية، سريزه الشجاع. لقد أرسل إلى إحدى المناطق الجميلة جداً كمدير لها. ولسوء حظ سريزه، ليس للسلطة ذات القدر من براعة الأحزاب التي تستخدم خلال الصراع كل شيء كقذائف. واضطرّ سريزه بعد ثلاثة أشهر من الممارسة أن يقدّم استقالته! ألم يُنبّه إلى ضرورة السعي ليكون شخصية شعبيّة؟ وبما أنه لم يفعل حتى الآن ما يفقده لقب نبالته (سريزه الشجاع!)، فقد اقترحت عليه الحكومة كتعويض أن يغدو مديراً لصحيفة معارضة في العلَن موالية في السرّ. وهكذا فإن الحكومة هي التي شوّهت هذا الطبع النقي.

وهكذا وجد سريزه نفسه في إدارته كعصفور فوق غصن متعفّن، فانطلق في تلك العملية الوصائية اللطيفة، حيث لقي بنتيجتها، ما سبق أن ذُكِر، سنتي السجن، بينما يلقى من هم أكثر نباهة فيها ثقة الجمهور.

twitter @baghdad_library

قال بيكسيو : إننا نعرف هؤلاء الأكثر نباهة ، فلا تَلُم هذا الفتى المسكين فقد اصطيد بخدعة ، وتمّ السطو على صندوقه ، من حيث لايتوقع ! .

تابع ديروش : مع ذلك فإن سريزه رجل خسيس ، وقد شوّهته هذه البليّة الناتجة عن فساد من درجة منحطّة . والآن لنعد إلى المنافسة الموعودة! لم يسبق أبداً لصناعيين بمثل هذا السوء في الصنف ، وهذه الخسّة في الطبائع ، وهذه البشاعة في التوجّه أن تشاركا للقيام بتجارة بمثل هذه القذارة ، وهما يعتمدان كرأسمال جار على ما أكسبتهما باريس من اصطلاحات شائعة ، وما منحهما البؤس من جرأة ، وما ولّد فيهما تسيير الأعمال من مكر ؛ إلى جانب ماتعرضه الذاكرة من علم عن الثروات الباريسية ، وعن أصلهما ، وقراباتهما ، وعن اتصالات كل منهما وقيمه الإنسانية . هذه الشراكة بين مبتّزين[1] ، وأرجو أن تسمحوا لي بهذه التسمية ، فهي الوحيدة في لغة البورصة الصالحة لتعريفها ، لم تستمر طويلاً : إذ إنهما ككلبين جائعين أخذا يتنازعان على كلّ رمّة . غير أن المضاربات الأولى لشركة سريزه وكلابارون كانت مقنعة ، فقد تفاوض هذان الفكهان مع بيوتات باربه ، وشابواسو ، وسَمَنون ، ومرابين آخرين واشتريا منهم ديونا ميئوساً تحصيلها . كانت وكالة كلابارون قد اتخذت مقراً لها آنذاك في طابق نصفي[2] مؤلّف من خمس غرف ، لاتتجاوز أجرته السنوية سبعمئة فرنك . وكان كلّ شريك ينام في حجرة صغيرة مغلقة بعناية ، زيادة في الحيطة ، حتى أنّ رئيس الكتبة لديّ لم يتمكن يوماً من الدخول إلى أيّ منهما . أما المكاتب فتتألّف من بهو وصالة وقاعة اجتماع لا يزيد ثمن أثاثها عن ثلاثمئة فرنك في دائرة الدلالة : كراسٍ داكنة بقماش من شعر ، ومنضدة بغطاء جوخ أخضر . وساعة ذات رقّاص زهيدة الثمن بين شمعدانين تحت

(١) استخدم كلمة CAROTTEURS : قاضماً الجزر ، كناية عن مبتزّين أو نصّابين

(٢) الطابق النصفي ENTRESOL : طابق منخفض السقف يقام فوق المخازن التجارية وتحت دور السكن في الطابق الأول من الأبنية السكينة الواقعة على الشوارع التجارية .

زجاج ينتابهما السأم أمام مرآة ذات إطار مذهّب فوق حافة مدفأة لم تعرف الجمر، وفقاً لتعبير رئيس كتبتي، منذ شتاءين! أما على المكاتب، فعلب من كرتون خالية من الملفّات، ولكل شريك حافظة كرتونية مبتذلة، وفي الوسط خزانة ذات دواليب فارغة كالصندوق! ثم كرسيّان بمساند إلى جانبي المدفأة الحاوية على نار من فحم خُثٍّ. وقد مُدّت على الأرض سجّادة رخصة كالديون العتيقة. أخيراً هذا المكتب من خشب الأكاجو الذي ينتقل خلال خمسين سنة من السلف إلى الخَلَف. أنتم تعرفون الآن كلاًّ من المتنافسين، والواقع أنّهما في غضون الأشهر الثلاثة الأولى من شراكتهما التي صفيت بعد ذلك باللكمات خلال سبعة أشهر، اشترى سريزه وكلابارون سندات بقيمة ألفي فرنك موقعة من قبل مكسيم (إذ أن مكسيم موجود[1]) وحَشْوَ مِلَفين (حكم، وإنذار، وقرار فصل، وتنفيذ، والتماس استعجال)، باختصار دين مستحق بمبلغ ثلاثة آلف ومئتي فرنك وبضعة سنتيمات نُقل إليهما، لقاء خمسمئة فرنك، بموجب توقيع شخصي ووكالة خاصة تمكنهما من اتخاذ اجراءات التحصيل مع تجنّب النفقات[2]. . . وفي تلك الفترة، كان مكسيم، رغم نضجه، في إحدى هذه النزوات الخاصة بمن بلغ الخمسين من العمر. .

هتف لابالفرين: «غرامه بانطونيا. هذه التي اكتسبت شهرتها برسالةٍ طالَبتُها فيها بفرشاة أسنان[3]!

---

(١) المعني مكسيم دي تراي -أي أن التوقيع بكامل الاسم الأول والكنية.

(٢) عملية إعادة شراء بثمن بخس لديون ميئوس من تحصيلها رغم الاجراءات القضائية ووجود كمبيالات مما يوقعها أمثال تراي. وهكذا فإن سريزه وكلابارون ينتميان إلى الصف الأخير من أولئك الذين يمارسون هذا الشرّ الضروري المسمّى الحسم. ومع أمثال هؤلاء الدائنين والمدينين يتمّ الدخول في متاهة، جميع مراحل الإجراءات فيها لاتتمّ إلا بموجب عمليات احتيال من قبل جماعة من المكارين.

(٣) هذه الرسالة مذكورة بنصّها في قصة «أمير من بوهيمية».

twitter @baghdad_library

قالت ملاغا التي أغاظها هذا الاسم الدّعيّ: واسمها الحقيقي شوكاردل

عقّب ديروش بالقول: هو ذاك.

وقال بيكسيو: لم يرتكب مكسيم، طيلة حياته، إلا هذه الغلطة، ولكن ماذا تريدون؟.. إن العيب لايعرف الكمال!.

وتابع ديروش: كان مكسيم مايزال يجهل الحياة التي يجب ممارستها مع فتاة لعوب في الثامنة عشر من العمر، تريد أن ترتمي منقلبة على رأسها من سقيفتها المحترمة لتسقط في أول عربة فخمة، ورجال الدولة يجب أن يعرفوا كل شيء. في تلك الفترة كان دي مارسي يستخدم صديقه، صديقنا، في ملهاة السياسة الكبرى[1]. كان لمكسيم غزواته الكبرى، لكنه لم يعاشر سابقاً إلا النساء النبيلات، وغدا من حقه، وهو في الخمسين من العمر، أن يعضّ على ثمرة صغيرة، يدّعي، أنها برّيّة؛ مثله مثل صيّاد يتوقّف ليستريح في حقل مزارع، تحت شجرة تفاح. وقد وجد الكونت للآنسة شوكاردل حجرة أدبية أنيقة، لقطة سانحة، كما هو الحال دائماً...

قال ناتان: باه! إنّها لم تبق هناك إلا ستة أشهر، فجمالها لا يتحمل البقاء في حجرة أدبيّة.

سألت اللوريت اللعوب ناتان: أتكون والد طفلها؟

تابع ديروش: ذات صباح، وكان سريزه قد توصّل، على درجات، منذ شراء الدين على مكسيم، إلى هيئة كاتب أوّل لمحضّر محكمة، وأُدْخِلَ بعد سبع محاولات غير مجدية لمقابلة الكونت، وكان سوزون الخادم القديم، رغم خبرته، قد اقتنع بأن سريزه هو ملتمس جاء يعرض على مكسيم ألف إكو ليتوسط لسيّدة شابة من أجل الحصول على مكتب لبيع ورق الطوابع؛ ولم يُثر هذا الرجل القصير الغريب أي ريبة لدى سوزون، السوقي الباريسي الحقيقي، المحترس باستمرار،

---

(١) التفصيل الروائي لهذا التلميح موجود في قصة «نائب آرسي»

نتيجة إداناته من قبل شرطة الجنح؛ وأقنع سيده باستقبال هذا الوافد الذي يبدو كرجل أعمال، بنظرته المشوّشة، وشعره القليل النادر، وجبينه العاري، وثوبه القصير الأجرد الأسود، وحذائه الملطّخ بالوحل.

هتف لوستو: أيّة صورة لدائن.

استأنف ديروش: خاصة أمام الكونت (بصورة المدين المتغطرس) في مبذل من القطن الناعم الأزرق؛ وخفّ مطرّز من قبل مركيزة ما، وبنطال من صوف أبيض، وعلى شعره المصبوغ بالسواد قلنسوة رائعة، وهو يرتدي قميصاً براقاً، ويداعب شرّابة حزام مبذله؟...

قال ناتان: هذه هي اللوحة المألوفة، لمن يعرف صالة الإنتظار الجميلة الصغيرة، التي يتناول فيها مكسيم غداءه، وهي ممتلئة باللوحات الثمينة، ومبطّنة بالحرير، وأرضها مفروشة بسجادة من سمير[1]، وقد امتلأت أدراج الخزانة الحائطية بالتحف والطرف النادرة التي تثير غيرة حتى ملك الساكس...

قال ديروش: وإليكم مشهد المقابلة.

عند هذه الكلمة صمت الجميع واستأنف القصاص:

«قال سريزه: سيدي الكونت، إنني مرسل من قبل السيد شارل كلابارون، المصرفي القديم.

رد الكونت: آه! وماذا يريد مني هذا الشيطان البائس؟...

- لكنه غدا دائناً لك بمبلغ ثلاثة آلاف ومئتي فرنك وخمسة وسبعين سنتيماً...

قال مكسيم الذي يعرف جميع قضاياه كما يعرف ربّانُ الساحل الذي يجري على موازاته: إنّه دين كوتليه أجاب سريزه وهو ينحني باحترام: نعم يا سيدي الكونت، وقد جئت لأعرف نواياك.

---

(١) سمير: مرفأ على بحر إيجه اشتهر سابقاً بالسجّاد الشرقي، وهو حالياً مدينة أزمير في تركية.

twitter @baghdad_library

قال مكسيم وهو يدقّ الجرس ليستدعي سوزون: لن أدفع هذا الدين إلا عندما أرغب، وقد تجرأ كلابارون واشترى ديناً يتعلّق بي دون استشارتي! إنني مغتاظ منه، فبعد أن خدم بمزيد من الإخلاص أصدقائي، كرجل مسخّر إلى حدّ قلت عنه: يجب أن يكون فعلاً شديد البلاهة ليرضى هذا الراتب القليل ويبدي كلّ هذا التفاني لأشخاص يتلاعبون بالملايين؛ وبعد، فهو يقدّم لي هنا برهانا على حمقه... نعم، إن كل شخص يستحق مصيره! فهو إما أن يسعى إلى تاج أو يجرّ كرة حديد في قيود رجليه!. قد يصبح مليونيراً أو بوّاباً، وفي هذا كل العدل. ماذا تريد يا عزيزي؟ أنا لست ملكاً، وأتمسك بمبادئي[1]. انني لا أشفق على أولئك الذين يجعلونني موضوع أحاديثهم أو الذين لا يعرفون مهنتهم كدائنين.

ثم التفت إلى خادمه وقال له: سوزون أين الشاي؟! أرأيت هذا السيد؟ تركته يخدعك يا صديقي المسكين. فالسيد دائن، كان يجب أن تعرفه من حذائه؛ فلا أصدقائي، ولا أصحاب الحاجات، حتى ولا أعدائي يأتون اليّ سيراً على الأقدام.

ثم نظر إلى الطين الذي يلطخ نعل خصمه وقال: «يجب أن تدرك يا سيدي العزيز سريزه أنك غير قادر على مسح حذائك بسجادتي، قدم مشاعر تعزيتي إلى هذا المسكين بونيفاس دي كلابارون، لأنني سأضع هذه القضية في آخر اهتماماتي.

(قال كل هذا بلهجة من الطيبة تسبب المغص للبورجوازي الفاضل).

أجاب سريزه متخذا نبرة صوت يلوح فيها الحسم البات: إنّك على خطأ يا سيدي الكونت؛ سيسدّد لنا المبلغ كاملاً وبطريقة يمكن أن تغيظك. لذلك أتيت إليك بشكل وديٍّ وفقاً للأسلوب الواجب اتباعه لدى الأشخاص المؤدّبين...

ودّ مكسيم وقد أغضبه تباهي سريزه الأخير: آه! هكذا تفهم الأمر إذاً؟....

---

(١) قال مارسي في رواية: «دراسة أخرى للمرأة»: «كل تعسّف وكل عدل في مناسبته ملك حقيقي» وهاتان الصيغتان تسمحان بتقدير الأهمية الخاصة لكل من الشخصيتين.

كان في هذه السفاهة بعض نباهة تاليران إن لاحظتم التباين بين الهندامين ومظهري الرجلين.

قطب مكسيم حاجبيه، وثبت نظره على سريزه الذي صمد أمام هذه النوبة من الغضب البارد، بل وردّ عليها بذلك المكر الجليدي الذي يتقطّر من عينين كعيني هرّة

قال مكسيم: هيا اخرج، أيها السيّد.

رد سريزه: حسن، وداعاً يا سيدي الكونت، سنتصافى قبل ستة أشهر.

أجاب مكسيم: إن استطعتم أن تسرقوا مني قيمة دينكم، الذي اعترف لكم بصحته، فسأكون شاكراً لك أيها السيّد. إنك قد دفعتني إلى أن أتخذ حيطة جديدة... وسأكون مستعداً لخدمتك...

قال سريزه: سيدي الكونت، ما أنا إلا خادم لكم».

كان هذا كلاماً صريحاً، مليئاً بالقوة، والحيطة من جهة وأخرى. نمران يرتد كلّ منهما إلى نفسه قبل أن يعارك أمام فريسة. أي شيء أكثر فتنة، وأكثر مكراً من هذين الطبعين آنذاك، وكلّ منهما لا يقلّ دهاء عن الآخر، أحدهما في سفاهة أنيقة، والآخر في عدّة موحلة.

قال ديروش وهو ينظر إلى سامعيه المستغرقين في اهتمام بدوا فيه كالمنذهلين: على أيّهما تراهنون؟...

قالت ملاغا: يا لطرافة هذه الحكاية. أوه! تابع، يا عزيزي، أرجوك، فقصتّك تأخذ الألباب.

قال لابالفرين: بين كلبين بهذه القوّة، يجب ألا يمرّ شيء مبتذل.

هتفت ملاغا: أراهن بفاتورة نجّاري وهو قارض كالمنشار أن العلجوم الصغير قد تغلّب على مكسيم.

twitter @baghdad_library

قال كاردو : وأنا أراهن على مكسيم فهو ما أخذ مرّة على حين غرّة .

توقف ديروش لفترة ليحتسي كأس مشروب صغير قبدمته له الغانية ثم استأنف : «كانت قاعة المكتبة العائدة للآنسة شوكادرل تقع في شارع كوكنار[1] على بعد خطوتين من شارع بيغال حيث يقيم مكسيم . وكانت الآنسة شوكادرل تشغل شقّة صغيرة تطلّ على حديقة منفصلة عن القاعة ، بغرفة عائمة تُودَع فيها الكتب . وكانت أنطونيا تدير هذه القاعة بواسطة عمتها .

هتف ملاغا : هل لها عمة الآن؟ . . . يا للشيطان! إن مكسيم قد رتّب الوضع جيّداً .

- تابع دروش : إنّها للأسف عمّة حقيقية لها[2] . واسمها . . . انتظروا فسأتذكره! .

قال بيكسيو : إيدا بونامي .

تابع ديروش : وهكذا فإن أنطونيا تحرّرت من كثير من المهام بواسطة هذه العمّة ، فهي تنام متأخرة ، وتنهض متأخرة ، ولاتلازم القاعة إلا بين الثانية والرابعة بعد الظهر . ومنذ الأيام الأولى شجّع وجودها على الإقبال على القاعة ، فكان يفد إليها عدة كهول من الحيّ بينهم صانع مركبات سابق اسمه كروازو ، عزم بعد أن رأى عبرالواجهة الزجاجية ، هذا الجمال الانثوي أن يأتي لقراءة الصحف في هذه القاعة

---

(١) هو شارع لامارتين حالياً حيث لاتوجد فيه أيّة قاعة مكتبة والمرشد الباريسي الحقيقي المنشور في العام ١٨٢٨ يعطي قائمة ستين قاعة مكتبة منتشرة في باريس آنذاك ، وبعضها ذات شهرة كبيرة . فقاعة كرتن في شارع سان مارتن ٢٥٠٠٠ مجلد -ونصف هذه القاعات تقريباً تديرها سيدات أو آنسات أو أرامل . كما يشرح المرشد أيضاً كيفية عمل هذه المكتبات حيث تقرأ الصحف والنشرات ويمكن لقاء مساهمة بسيطة تتراوح بين ١٥ و٣٠ سنتيماً استعارة كتاب للقراءة في المكان دون تحديد لوقت الجلسة ، كما يمكن تسجيل اشتراك شهري لقاء ٥ -٦ فرنكات واشتراك ثلاثة أشهر بقيمة ١٥ فرنكاً . كما يمكن استعارة الكتب إلى المنزل لقاء تأمين ، وبأجرة ١٠ -١٥ سنتيماً للكتاب الواحد ، كما يمكن الاتفاق لقاء أجر معين على إيصال لمطالعتها في المنزل في يوم صدورها ، أو الأيام التي تليه .

(٢) انظر بهذا الخصوص : «النسية بت»

كلّ يوم، وقلّده في ذلك مدير سابق للجمارك اسمه دنيزار، وهو رجل يحمل وسام جوقة الشرف، وقد رأى فيه كروازو منافساً له، وقال له فيما بعد: «أيّها السيّد، إنّك تربكني!» هذه العبارة تجعلكم تأخذون فكرة عن الرجل. فهذا السيّد كروازو ينتمي إلى هذا الصنف من قصار الكهول الذين يجب تسميتهم أشباه كُوكرل، منذ أن قام هنري مونيه بتمثيل كوكرل في المسرحية الهزلية «**العائلة المرتجلة**»[1] إذ أن لكروازو ذات الصوت الخافت والأساليب الصغيرة، وذيل المعطف، والعين النافذة، والمشية الوئيدة، وحركات الرأس الصغيرة، والنبرة الصغيرة الجافة.

كان هذا الكروازو يقول وهو يضع بحركة متكلّفة درهمي رسم الدخول أمام أنطونيا: «إليك، أيتها السيّدة الجميلة!». وعرفت السيدة إيدا بونامي عمّة الآنسة شوكاردل، بواسطة الطاهية، أن صانع العربات السابق، الرجل المعروف ببخله المفرط في الحيّ الذي يسكنه في شارع بوفو، يُقدّر بدخل أربعين ألف فرنك سنوياً. وبعد ثمانية أيام من افتتاح مؤجرة الروايات الجميلة لمكتبتها، نطق بهذه التورية الغزِلة: «تعيرينني الكتب وأردّ لك الفرنكات...»؛ وبعد عدة أيام اتخذ مظهراً متعاظماً ليقول لها: أنا أعلم أنك الآن مرتبطة، لكن سيأتي دوري: فأنا رجل أرمل». كان كروازو يأتي دائماً بثياب أنيقة: سترة زرقاء زاهية، وصدار من حرير غير صقيل، وبنطال أسود، وحذاء مضاعف النعل معقود بأشرطة حريرية سوداء، يطقطق كحذاء راهب؛ وهو يمسك دائماً بقبعته الحريرية المشتراة بأربعة عشر فرنكاً.

قال بعد عدّة أيام من زيارة سريزه لمكسيم، وهو يدخل إلى قاعة السيّدة الشابة: «إنني كهل، ودون أولاد، وأنسبائي يثيرون الذعر، فجميعهم من الفلاحين الذين خُلقوا لحراثة الأرض! تصوري أنني أتيت من قريتي وليس بحوزتي إلا ستة فرنكات، وجمعت ثروة هنا. ولست معتزا بذلك كثيراً... فالمرأة الجميلة

---

(١) مسرحية هزلية «فودڤيل» لبرازيه، ودوڤر، ودوبتي مُثلت على مسرح ڤودڤيل في ٥ تموز ١٨٣١ وكان مونيه (١٨٠٥ -١٨٧٧) الكاتب والكاريكاتوري والممثل الهزلي قد وضع تصميمها، ومثّل فيها على التتابع أربعة أدوار أثارت ضحكا متواصلاً، وحقّقت له نجاحاً كبيراً.

twitter @baghdad_library

تعادلني. أليس من الأفضل أن تكوني السيّدة كروازو لبعض الوقت، بدلا من أن تكوني خادمةً لكونتٍ خلال سنة، إنّه سيهجرك بين يوم وآخر، وعندها ستفكرين بي... إنني خادمك، أيتها السيّدة الجميلة!». كل هذا أُعدَّ سراً، والمغازلة الخفيفة قيلت خفية، وما من أحد في العالم عرف أن هذا الكهل الصغير القامة، المحافظ بشدّة على نظافته، يحبّ انطونيا، فتصرّف هذا العاشق الحذر في قاعة المكتبة لم يثر هاجس أيّ منافس. وقد ارتاب كروازو خلال شهرين بمدير الجمارك المتقاعد، لكنه في منتصف الشهر الثالث تبيّن له عدم صحة ظنونه؛ إذ أنه وقد أحسّ بتفوّقه تعمّد أن يحاذي دنيزار، وقال له وهما يخرجان سوية: «أليس الطقس جميلا، يا سيدي؟»

ردّ الموظف السابق: «إنّه طقس أوسترليتز، يا سيدي: كنت هناك... وهناك جُرحت، وهذا الوسام الذي أتزين بُوريدتِه نتج عن تصرّفي في ذلك اليوم الجميل...»

ومن موضوع إلى آخر، ومن حديث الدولاب إلى ذكر المعركة، ومن الإشادة بالمرأة إلى وصف جمال العربة، توطّدت الرابطة بين هذين الحُطامين من بقايا الأمبراطورية. فكروازو يحنّ إلى أيام الامبراطورية من جراء علاقاته مع أخوات نابوليون، فقد كان صانع عرباتهن؛ وكم أزعجهن بفواتيره الفادحة، وهو يعتبر نفسه من ذوي الصلة بالعائلة الامبراطورية. علّم مكسيم من أنطونيا بالعروض التي أجازها لنفسه **الكهل الظريف**؛ وكان هذا هو اللقب الذي أطلقته العمة على زبون المكتبة الثري، ورغب الكونت في أن يراه؛ فقد كان لإعلان الحرب الذي صرح به سريزه خاصّة تحفيزِ صاحب القفّاز الأصفر الشهير لدراسة وضعه كلاعب شطرنج يتأمل أصغر بيدق على رقعته، والواقع أنه أحسّ عند تلقي نبأ تقرّب هذا الكهل الظريف بقرع هذا الجرس الخفي الذي ينذر بحدوث كارثة، وفي ذات مساء دخل مكسيم وانطونيا إلى الغرفة العاتمة حيث تخزّن على رفوفها كتب الإعارة؛ وبعد أن تأمّل من شقّ بين الستائر الخضراء روّاد قاعة المطالعة السبعة أو الثمانية، حكم بنظرة على ما يضمر صانع العربات القميء، وقيّم هواه، وكان

مغتبطاً لاقتناعه بأنّه في اللحظة التي ستخبو فيها نزوته سيفتَحُ بادخٌ أبوابَه العريضة لأنطونيا لمجرد إيعاز منها.

سأل أنطونيا وهو يشير إلى الكهل الآخر الطويل والوسيم حامل وسام جوقة الشرف: «وهذا من يكون؟»

- إنّه مدير سابق للجمارك.

قال مكسيم وقد بدا عليه الاستغراب من مظهر السيد دنيزار: «إنّه في هيئة تشغل البال!»

وبالفعل فإن هذاالعسكري القديم كان يبدو منتصباً كأنه قبّة جرس، ورأسه يثير الانتباه بُجمّة شعر مسرّح ومبودر أقرب إلى ما يظهر به الحوذيون في حفلة رقص تنكّرية. وتحت هذه اللبِدَة المقولبة على رأس متطاول يرتسم وجه هرم، إداري وعسكري في آن واحد، تبدو في قسماته دلائل العجرفة، وهو أقرب ما يكون إلى الوجه الذي مثّلت به مجلةُ الكاريكاتور صحيفة «**الدستوري**»[1]. فهذا الإداري القديم، بعمره، وذروره، وتقوّس ظهره مما لايمكّنه من القراءة دون نظارات؛ كان يشدّ جذعه الموقّر بكلّ عجرفة الكهل ذي الخليلة، ويزيّن أذنيه بأقراط من ذهب تذكّر بأقراط الجنرال الشيخ مونكورنه أحد روّاد مسرح القودفيل. ودنيزار من هواة اللون الأزرق: فبنطاله ومعطفه القديم الواسعان جداً من الجوخ الأزرق.

سأل مكسيم الذي بدت له النظارات موضوعتين بشكل مشبوه: «منذ متى يأتي هذا العجوز إلى هنا؟

---

(١) كانت «**الدستوري**» قد جسّدت، في الواقع، بوجه مجعد لرجل ذي مظهر متعجّرف وهو يعتمر قبعة ذات واقية؛ وكانت موضوعاً لعدد كبير من الصور الكاريكاتورية الشهيرة التي بدئ بنشرها منذ ٣٠ حزيران ١٨٣٣ في «**الشاريفاري**» و«**الكاريكاتور**» وواضعها هو الرسام دوميه (١٨٠٨ -١٨٧٩) وبلزاك يعرفه جيّداً؛ ولم يكن الشخص الذي اختبر لتمثيل «الدستوري» إلا مديرها شارل -غيوم إيتين (١٧٧٨ -١٨٤٥) «أحد الرؤوس العنيدة التي هاجمها دوميه بشدة حتى الوفاة وحلول الدكتور فيرون محله في إدارة الجريدة. ويلاحظ أن بلزاك أضاف هذا التلميح بعد وفاة إيتين.

twitter @baghdad_library

- أجابت انطونيا: -أوه! منذ البداية، ها قد مرّ شهران. . . »

قال مكسيم في نفسه: «حسن، فسريزه لم يأت إلامنذ شهر». ثم همس في أذن انطونيا: «ألا دعيه يتكلم؟ فإنني أريد أن أسمع صوته.

- باه! هذا صعب، إذ أنّه لم يوجّه لي كلمة حتى الآن.

- لماذا يأتي إذاً؟.

عقبت أنطونيا الجميلة: لسبب غريب، فهو أولاً ذو خليلة، رغم سنيّه التسع والستون؛ ولكن، بسبب سنيه التسع والستين يبدو منضبطاً كالساعة، فهو يتوجّه للعشاء لدى خليلته، في شارع فيكتوار الساعة الخامسة، كلّ يوم. . . يا لها من تعيسة! وهو يغادرها في الساعة السادسة، ويأتي ليقرأ هنا جميع الصحف لمدة أربع ساعات. ثم يعود إليها في العاشرة. ويقول الأب كروازو إنه يعرف دوافع تصرّف السيّد دنيزار، وهو يقرّه عليها، ولوأنّه في مكانه لتصرّف بذات الطريقة. وهكذا فأنا أعرف مستقبلي، إن غدوت السيّدة كروازو، سأكون حرّة من السادسة إلى العاشرة».

لجأ مكسيم إلى مراجعة «تقويم ٢٥٠٠٠عنوان[1]» فوجد هذا السطر المطمئن:

«دنيزار، حامل وسام جوقة الشرف، مدير الجمارك السابق، شارع لافيكتوار».

لا مبرّر لأيّ قلق إذاً. ورويداً رويداً قام بين السيد دنيزار والسيد كروازو بعض المسارات، إذ ما من شيء يربط بين الرجال مثل التوافق في وجهة النظر إلى النساء. وراح الأب كروازو يتناول عشاءه عند تلك التي سمّاها «حسناء السيد دنيزار» هنا يجب التنويه بملاحظة لها بعض الأهمية: كانت قاعة المكتبة قد اشتريت بحيث دفع الكونت نصف الثمن نقداً وقسّط النصف الآخر على ثلاثة أقساط

(١) «تقويم ٢٥٠٠٠ عنوان من أهم ساكني باريس في سنة . . .» تقويم كان يصدره سنوياً منذ العام ١٨١٥ بانكوك وهو صاحب مطبعة ودار نشر شهيرتين في باريس.

بموجب سندات تسدّدها الآنسة شوكاردل في تواريخ معينة. وحلّت ربع ساعة رابله[1]، والكونت خالي الوفاض. وسُدِّدت قيمة القسط الأول وهي ألف فرنك بلطف من قبل صانع العربات الظريف الذي نصحه الماكر العتيق دنيزار بأن يسجّل قرضه ديناً راجحاً له أفضلية الحجر على قاعة المطالعة. قال دنيزار: «إنني رأيت الأعاجيب مع الفاتنات! . . . وهكذا فإنني في جميع الأحوال حتى عندما أفقد صوابي، آخذ احتياطاتي مع النساء. فهذه المخلوقة التي أهيم بها حتى الجنون، لاتملك الأثاث الذي في منزلها، فهو ملكي وحتى عقد أجار الشقة مسجّل باسمي. . . »

لكنكم تعرفون مكسيم، وقد وجد صانع العربات مبتدئاً جداً في اللعب! وكان بإمكان كروازو أن يدفع الثلاثة آلاف فرنك دون أن يلمس شيئاً مما ينتظر، لأن مكسيم شعر أنه أكثر هياماً بأنطونيا من أي وقت مضى.

قال لابالفرين: إنني واثق من هذا، فهي مثيلة إمبريا[2] العصر الوسيط.

.هتفت ملاغا العابثة: امرأة ذات بشرة خشنة، خشنة إلى درجة تنفق فيها ثروة على حمّامات النخالة.

استأنف ديروش: «تحدّث كروازو بإعجاب صانع العربات عن الأثاث الفخم الذي هيأه دنيزار العاشق لحسنائه، ووصفه بمحاباة شيطانية لأنطونيا الطمّاعة: لديها الخزائن من الإبنوس المطعّم بالصدف وأسلاك الذهب، والسجّاد البلجيكي، وسرير من طراز العصر الوسيط بقيمة ألف إكو، وساعة حائط من صنع بول. وفي قاعة الطعام شمعدانات كبيرة في الزوايا الأربعة، وستائر من حرير

---

(١) هي الفترة التي وجد بها رابله في النُزُل وليس لديه مال يسدّد به ما يترتب عليه، وبالتالي وتعميماً هي كل لحظة مزعجة يجب دفع نصيب فيها.

(٢) إمبريا: وجه وُجِد في كتاب **وسيلة الوصول** (١٦١٠) المكتوب وفق أسلوب رابله من قبل بروالد دي ڤرڤيل (١٥٥٦ -١٦٢٩) الراهب في سان غاتيان في تور. وقد أعجب بلزاك بهذا الوجه فأعطاه المكان الأول في القصص العشرة الأولى من كتابه **قصص ماجنة** (١٨٣٢)

twitter @baghdad_library

الصين رسم عليها الفن الصيني بمنتهى الأناة صور الطيور. ثم سُجُف أبواب تقوم على عوارض وهي أكبر قيمة من السجف ذات القائمتين. ثم قال مختتماحديثه: «هذا ما يلزمك أيتها السيدة الجميلة، وما أريد أن أقدِّمه إليك. . . إنني أعلم أنَّك تميلين إلي بعض الميل، لكنه كاف، وقد بلغت هذا العمر، ليدفعني إلى الخضوع، ولك أن تحكمي على مدى حبي لك بإقراضك ألف فرنك، وهذا ما لم أفعله في حياتي» ومدّ إليها يده بالدرهمين، أجرة الجلسة، بالأهمية التي يعرض فيها عالم نتيجة أبحاثه.

في المساء قالت أنطونيا للكونت في مسرح «الفاريته»[1]: «كم هي مملّة قاعة المطالعة، إنني لاأشعر أبداً بأن هذا الوضع يلائمني، فلا مجال فيه لجمع أي ثروة. هذا نصيب أرملة تريد أن تعيش بالتقتير، أو فتاة في غاية البشاعة تعتقد أنّ بإمكانها أن تقتنص رجلاً ببعض زينة تظهر فيها.

أجاب الكونت: هذا ما طلبته مني.

في تلك اللحظة دخل نوسنجن، وكان ملك الأسود -ذلك أن أصحاب القفازات الصفراء غدوا أسوداً- قد ربح منه ألف إكو فجاءَ ليعطيه إياها. وعندما لاحظ دهشة مكسيم قال له: تلقيت بلاغ حجز من هذا الشيطان كلابارون على مالك عندي. . .

هتف مكسيم: آه! أهذه وسائلهم؟ إنهم ليسوا أقوياء. . .

أجاب صاحب المصرف: أيّا كان الأمر، ادفع لهم، إذ يمكنهم أن يتوجّهوا إلى آخرين غيري، فيحرجوك. سأُشهِد هذه السيّدة الجميلة على أنني دفعت لك هذا الصباح قبل وصول بلاغ حجزهم.

---

(١) مسرح الفاريته VARIETÉS: مسرح يقدم تمثيليات هزلية قصيرة VAUDEVILLE، وقد خلف مسرح مونتانسيه واستقر في العام، ١٨٠٧ في جادة مونمارتر وعرف نجاحات باهرة بفضل عدد من الممثلين والممثلات تعاقبوا عليه، أشهرهم: هياسنت، برونه، بوتيه، أودري، فيرجيني دجازه، فردريك لميتر، أتالا بوشن، بوفّه، فاني ڤربره. الخ. . .

قال لابالفرين باسماً: يا ملكة القفز، ستخسرين رهانك.

تابع ديروش: منذ مدة، وفي حالة مماثلة، إنّما في وضع مدين شريف، مذعور من التوكيد أمام العدالة، ولا يريد أن يُدفع مكسيم، عمدنا إلى الاقتصاص من الدائن المعترض بالحجز، بأن قابلنا اعتراضه بمجموعة اعتراضات بشكل يمكّن من امتصاص كل المبلغ العائد إليه كمساهمة في النفقات المترتبة عن اجراءات الإعتراضات.

هتفت ملاغا: ماهذه الدوّامة؟ . . . ها هي كلمات ترنّ في أذني بلهجة لاأفهمها؛ وبما أنكم وجدتم السمكة لذيذة، أرجو أن تسدّدوا لي ثمن الصلصة دروساً تفهمني هذه المماحكة.

قال ديروش: حَسَنٌ. إن المبلغ الذي يطالب به أحد دائنيك معترضاً على دفع ما لَك من قبل مدينين لك، يمكن أن يكون موضوعاً لإعتراضات حجز مماثلة من قبل جميع دائنيك الآخرين. ماذا تفعل المحكمة التي تنظر في طلبات جميع هؤلاء الدائنين المطالبين بتسديد ديونهم؟ إنّها توزّع قانونياً المبلغ المحجوز. وهذا التوزيع الذي يتم بإشراف العدالة يسمى مساهمة.

إذا وجب عليك عشرة آلاف فرنك واحتجز دائنيك بالاعتراض ألف فرنك ترتب لكل منهم مبلغاً يتناسب مع دينه وفقاً لقسمَة الغَرْماءِ في اصطلاحات قصر العدل أي حصّة معيّنة بنسب مبالغهم، لكنهم لَايقبضون إلا بناء على وثيقة قانونية تسمى صورة عن لائحة ترتيب استحقاق الدائنين» يحررها كاتب المحكمة. هل تتصوّرون هذا العمل الذي يجريه قاض ويحضّر من قبل محامين مرخّصين؟ إنه يتطلب كثيراً من الأوراق ذات الطوابع التي تملأ بأسطر سقيمة مسهبة تغرق فيها الأرقام ضمن أعمدة ببياض كلّي. ويبدأ بحسم النفقات، وهي بذات القيمة سواء أكان المبلغ المحجوز ألف فرنك أو مليون فرنك. وليس من الصعب أن تصل إلى ألف إكو خاصة إن تبيّن وجود بعض الإشكالات[1].

(١) في العام ١٨٣٤ وفي القسم الثالث من «**أوهام ضائعة**» صوّر بلزاك بشكل رائع كيف تتراكم تبعات الدين فتكون ككرة ثلج تتضخّم كلّما دارت.

twitter @baghdad_library

قال كاردو : إن المحامي المرخّص ينجح دائماً، وكم من مرة سألني أحدهم : «هل لديك شيء يمكن أن نستغله؟» .

استأنف ديروش : ننجح خاصة عندما يحرّضنا المدين على أن نستهلك المبلغ كنفقات، وهكذا فإن دائني الكونت لايحصلون على شيء فديونهم تستهلك في الإجراءات ولدى المحامين ومتابعة الدعاوي . ولأجل التحصيل من مدين بمثل قوّة الكونت يجب على الدائن أن يكون في وضع قانوني من الصعب تحقيقه : وهو أن يكون في آن واحد دائنا ومدينا له، وله الحق آنذاك وفقاً لحدود القانون في إجراء التقاص .

قالت ملاغا المتابعة بانتباه لهذا الشرح : كمدين؟

- استأنف ديروش : كلا بصفتيه كدائن ومدين، وبذلك يسدّد لنفسه، وقد بدت سذاجة كلابارون في أنه لم يلجأ إلاّ إلى اعتراض الحجز وهذا ما طمأن الكونت .

وفي طريق العودة مع انطونيا من مسرح المنوّعات، ازداد اقتناعاً بفكرة بيع القاعة الأدبية ليستطيع تسديد الألفي فرنك الباقيين من ثمنها؛ إذ اعتبر من السخرية أن يقدّم المال لمثل هذا المشروع، وهكذا تبنّى خطّة انطونيا التي تريد أن تتصدّى للنطاق الأعلى من مهنتها لتمتلك شقّة جميلة، وعربة، ووصيفة لخدمتها، وتنافس مضيفتنا الجميلة على سبيل المثال .

هتفت فاتنة السيرك الشهيرة : ليست على هذا القدر من الجمال لتطمح إلى ذلك، لكنها مع هذا تسبّبت في إفلاس دسغرينيون الشاب! .

بعد عشرة أيام كان الكهل القميء كروازو، المعتمد على مكانته، يوجّه إلى انطونيا هذه العبارات : «يا صغيرتي، قاعتك الأدبية جحرٌ يصيبك بالشحوب، ويسيء إلى نظرك، فانتهزي الفرصة، إذ أنني لقيت من أجلك سيّدة شابة لاتطمح لأكثر من أن تشتري منك هذه القاعة . إنها امرأة بسيطة مفلسة، كادت أن تغرق

نفسها في النهر لكنها تمتلك أربعة آلاف فرنك نقداً، ومن الأفضل أن تستغلها لتتمكن من إطعام وتربية طفليها . . .

-قالت أنطونيا : الواقع أنّك لطيف أيّها الأب كروازو .

تابع صانع العربات الكهل : أوه! سأكون أكثر لطفاً في الحال، تصوّري أن هذا المسكين دنيزار في حالة من الكآبة سبّبت له اليرقان . . . نعم، إنّه أصيب بعلّة في الكبد كتلك التي تصيب الشيوخ شديدي الحساسية . إنّه مخطئ في حساسيته المفرطة . قلت له : كن مغرماً، هذا حسن! لكن أن تكون حسّاساً . . . فإياك! إنّك تقتل نفسك . . . لكنه لم يستمع لي، الواقع لم أرَ مثل هذا الغمّ لدى رجل بقوّته، وثقافته، حتى أنه يتغيّب ليهضم عشاءه بعيداً عن . . .

- سألت الآنسة شوكاردل : ولكن ماذا حدث له؟ . . .

- تلك المخلوقة الصغيرة، التي أتناول عشائي عندها تركته فجأة، هكذا بكل صراحة . . . نعم، تخلّت عنه دون إعلامه إلا برسالة جافة تنقصها صحة الإملاء .

-هوّذا أيّها الأب كروازو ما يسببه إزعاج النساء! . . .

تابع كروازو المتملّق : هذا درس، أيتها السيّدة الجميلة . وفي الإنتظار، فإنني لم أر رجلاً بمثل هذا القنوط، فصديقنا دنيزار لايعرف يده اليمنى من يده اليسرى؛ وهو لايريد أبداً أن يرى ما يسميه مسرح سعادته . . . لقد فقد الوعي حتى أنه عرض علي شراء كل أثاث شقة هورتنس بمبلغ أربعة آلاف فرنك . . . بالمناسبة اسم خليلته هورتنس .

قالت أنطونيا : إنه اسم جميل .

- نعم إنه اسم ابنة جوزفين زوجة نابوليون الأولى . وقد أعددت لها عربتها .

قالت أنطونيا الماكرة : حسن، سأفكر بالأمر، ولنبدأ بمقابلة المرأة الشابة الراغبة بشراء قاعة المكتبة» .

twitter @baghdad_library

هرعت بعد ذلك أنطونيا لرؤية أثاث خليلة دنيزار وعادت مفتونة به، وفتنت مكسيم بحماس هاوية تحف. وفي المساء نفسه وافق الكونت على بيع قاعة المطالعة، وكانت هذه القاعة كما تعلمون باسم الآنسة شوكاردل. واستغرق مكسيم في الضحك على الكهل كروازو الذي قدّم له مشترياً. صحيح أن شركة مكسيم وشوكاردل خسرت ألفي فرنك ولكن ما هذه الخسارة أمام وجود أربعة أوراق نقدية جميلة كلّ منها بألف فرنك؟ وكما قال لي الكونت: «أربعة آلاف فرنك من النقد الحيّ!... إذ تمرّ فترات نوقّع فيها على تعهدات بثمانية آلاف فرنك للحصول على الأربعة![1]»

بعد يومين ذهب الكونت بنفسه لمشاهدة الأثاث، والأربعة آلاف فرنك في حوزته. وتمّ البيع بناءً على طلب عاجل من الكهل كروازو، الذي أسهم في إتمام الصفقة، وخدع المرأة الأرملة كما قال. ولم يبال مكسيم كثيراً بهذا العجوز الظريف الذي سيخسر ألف فرنكه، وأراد أن ينقل مباشرة كل الأثاث إلى شقة استؤجرت باسم السيّدة إيدا بونامي في شارع ترونشه في منزل جديد. وهكذا حرص على أن يأتي بعدة عربات كبيرة للنقل. وسُحرَ مكسيم مجدّداً بجمال هذا الأثاث الذي يساوي في تقدير تاجر مفروشات ستة آلاف فرنك. ووجد العجوز المسكين مصفراً من شدّة يرقانه، وهو قرب المدفأة ورأسه ملفوف بشال من نسيج مدراس، وقلنسوة من قطن فوقه، متدثّر كثريا، خائر العزم لايتمكن من الكلام. أخيراً كان مهدّماً حتى أن الكونت اضطر للتفاهم مع وصيف للعجوز. وبعد أن سلّم الأربعة آلاف فرنك للوصيف الذي حملها إلى سيّده ليعطيه إيصالاً بها، أراد مكسيم الذهاب ليطلب من عمال النقل تقديم العربات؛ لكنه سمع عند ذاك صوتا رنّ كالناقوس في أذنه صارخاً: «لافائدة من ذلك يا سيدي الكونت، فنحن متخالصان، ويجب أن أعيد لك ستمئة وثلاثين فرنكاً وخمسة عشر سنتيماً تصفية للحساب!» وانتابه الذعر

(١) مثال آخر على الشرّ المتولّد عن «الجشع إلى المال» الذي يضفي قيمة كاذبة على النقود السائلة الجاهزة مباشرة.

لرؤية سريزه وهو يخرج من لفافاته، كفراشة تخرج من شرنقتها، ويمدّ إليه يده بملفّاته الجليلة وهو يضيف: «تعلّمت في أيام تعاستي أن أمثّل الكوميديا، وأنا أعادل بوفّه[1] في ادوار العجائز.

- صرخ مكسيم: «إنني في غابة بوندي.

- كلا، يا سيدي الكونت، إنك لدى الآنسة هورتنس صديقة اللورد العجوز دودلي الذي يحجبها عن جميع الأنظار، لكن شاء ذوقها السيّء أن تهوى خادمكم».

قال لي الكونت: «لو راودتني مرة الرغبة في قتل شخص ما لكانت في تلك اللحظة» ولكن ماذا تريد؟ أطلّت هورتنس برأسها الجميل؛ واقتضى الموقف الضحك ولأحافظ على ترفّعي، ألقيت لها بالستمئة فرنك قائلاً: إليك هذا للخادمة».

هتف لابالفرين: هذا تصرّف مكسيم!

وقال كاردو العميق الغور: خاصة وأن هذا مال الكهل كروازو.

استأنف ديروش: حاز مكسيم على انتصار لأن هورتنس هتفت بتودّد: «آه! لو علمت أن الأمر يتعلّق بك.

هتفت اللوريت: هوذا أحد الالتباسات!» والتفتت إلى الموثق قائلة: «خسرت يا ميلورد»

وهكذا تمّ دفع المئة إكو المطلوبة من ملاغا للنجار.

باريس ١٨٤٥

انتهت

---

(١) الممثل الكوميدي الكبير ماري بوفه (١٨٠٠ -١٨٨٨) وقد لقي نجاحاً متميّزاً في دور «الأب غراندة» في المسرحية الهزلية «ابنة البخيل» التي اقتبسها بايار ودوبور عن رواية بلزاك «أوجيني غراندة» ومُثّلت على مسرح الجمناز بتاريخ ٧كانون ثاني ١٨٣٥.

twitter @baghdad_library

دراسة حول المؤلّف والقصّة

إعداد آن ماري مينينجه

في ١٠ حزيران ١٨٤٦ كتب بلزاك للسيدة هانسكا: «إنّ قضية هتزل بلغت درجة من التعفّن بحيث يجب علينا أن ندفع ونبتعد كلّياً عن هذا الرجل الغريب الأطوار، فهو مجنون بكل معنى الكلمة». غير أن... الصداقة بين هتزل وبلزاك، رغم خاتمتها بخيبة أمل في صدق المشاعر، كان لها نتائجها الطيّبة في الأدب. فهي المتولّدة من توافه، من بعض ترهات طلبها في العام ١٨٤٠ منتج **الحياة الخاصة للحيوانات**[1] من مؤلّف **مشاهد من الحياة الخاصة** قد شقت الطريق لنشر **الملهاة الانسانية**، إذ لولا حماس هتزل، لما رأت، على الأرجح، هذه الملهاة أبداً النور. إضافة إلى أن هتزل عندما أطلق **الشيطان في باريس**، طلب في نهاية العام ١٨٤٣ من بلزاك ترهات جديدة، وبذلك مدّ إليه بعض هذه الأغصان الصغيرة التي تمنع من الغرق؛ فبلزاك التعب، المثبط الهمة، المعرّض للمرض بدأ يخفّ إنتاجه، ويلاقي صعوبات فيه؛ ولولا هذه التفاهات الصغيرة **للشيطان في باريس*** التي لايتطلّب تصوّرها إلا قليلا من الجهد، لكان إبداع بلزاك قليلاً في العام ١٨٤٤، وبصورة خاصة لما أنهى إلا القليل، فقد كان يبدأ بالعديد ولاينهي شيئاً.

---

(١) بيير جول هتزل (١٨١٤ -١٨٨٦) كاتب وناشر فرنسي. بدأ في العام ١٨٤٢ بنشر مؤلّف «**الحياة العامة والخاصة للحيوانات**» المشار إليه أعلاه.

* الأعباء البسيطة هي الكتابات السريعة التي كان يقدمها بلزاك للصحافة وهي التي ستدخل في سياق رواياته. والشيطان في باريس نشرة لهتزل.

twitter @baghdad_library

بعض هذه الأشياء البسيطة ستغدو هامّة، وهكذا **فالممثلون الغافلون** وهي مجموع ترّهات، **والتعاسات الصغيرة في الحياة الزوجية**، تولّدت من **ما يعجب الباريسيات** وهو مقال بسيط للجزء الأول من **الشيطان في باريس**. وبعضها غدت مؤلّفات كبيرة مثل **الأهل الفقراء** وهي آخر التحف وقد نتجت من تضاعف تطعيم **حكاية نسيب فقير** وهو مشروع من العام ١٨٤٤، على عدة مشاريع من ذات السنة **للشيطان في باريس: جادات باريس، ما يمكن أن نراه في عشر دقائق في جادة الايطاليين. والمسرحيات التي يمكن رؤيتها مجّاناً في باريس** وبعضها لم يخرج إلى الوجود: وبعضها أخيراً ستبقى ترّهات، منشورة في **شيطان باريس** مثل **غوديسار الثاني**، أو في مكان آخر، **ورجل الأعمال** من هذه: ثماني صفحات بعنوان **مكر دائن**، بيعت مجدّداً من قبل هتزل لمجلة **القرن**؛ ونُشرت بعد خلْفَتين[٢] أخريين **لشيطان باريس**، كقسم ثالث من مجموعة سمّيت **دراسة طبائع**، فينيق قزم يتولد من أرمدة كبيرة.

ثماني صفحات، من النوع الغريب الطريف**. **فمكر دائن** هذه مدرسة تسكّع[٢] مَدينٍ محنّك جهد في **الفنان الكبير**، **وصغار البورجوازيين** المستقبلية التي لن ينهيها أبداً. ثم يجهد في **ما يعجب الباريسيات** ولا يتمكّن من إعداد هذا المقال الذي طلب منه منذ أكثر من شهر. ثم خلال مدرسة تسكّع يعمل بجدّ خلال بضع ساعات، فيكتب بلزاك للسيّدة هانسكا في ٤ كانون الثاني ١٨٤٤: «عملت بجدّ هذا الصباح، وكتبت قصة صغيرة بعنوان **مكر دائن**» وكان هذا حقيقة بالتأكيد إذ أنه عرضها على هتزل منذ اليوم التالي. ويقول عنها بلزاك في رسالة أخرى بتاريخ ٩

---

(١) الخلْفة LAISSÉ -POUR -COMPTE: شيء غير مرغوب فيه، أو لا يناسب الغرض الذي خصّص له

** تحكي قصة ألاعيب المدين التي سيكون كشفها بالنسبة إلى دائن مليء بمثابة لعبة أطفال وكلها قصص لاتنتهي تسهم في وضع نصوص يطرب لها الباريسيون إنها قصص ذلك الانسان الذي سيشكل البرجوازية الصغيرة

(٢) مدرسة تسكّع ECOLE BUISSONNIÈRE: الهرب من الدراسة أو العمل الجدي إلى التسكّع وإضاعة الوقت

كانون الثاني: «إنّها مُلحة» مُلحة دفيئة باريسية، تروي فكاهة وهي بهذا تبتعد عن الصنف المطلوب **للشيطان في باريس** المتـوجّه إلى وصف لاذع بدلاً من أسلوب الطُرفَة. وهذا ما دفع هتزل الذي نصب نفسه كخطيب مدرسة قروية إلى إعادة المخطوطة إلى «التلميذ بلزاك» مع هذه الملاحظات: «عزيزي بلزاك، يجب أن تعمد إلى إيجاد وسيلة لتجعل من هذه قصة لايبدو عليها أنّها معدة لشيء آخر غير كتابي؛ وهذا ما يبدو ممكناً جداً ويمكنني القيام به [كذا] إن لم تستطع إجراءه». ولمّا أعلن له بلزاك أنه «مريض فعلاً إلى درجة يفكر فيها بإجراء استشارة لدى الأطباء الأربعة الأوائل في باريس» يستغل هتزل الفرصة ويسمح لنفسه بأن يضع بلزاك بتاريخ ٣شباط أمام الأمر الواقع فيكتب له: «لقد قمت بتنفيح الاستهلال» والواقع إنَّ بين مخطوطة **مكر دائن**، وبين **مكر دائن المنشورة**، فروقا وإضافات أهمها استهلال معدّل بنحو عشرين سطراً[1]. لكن من أين أتت البقية؟ من أين **مكر دائن**؟

«كان من المهم لو نستطيع إعطاء بعض إيضاحات دقيقة عن مصادر هذه القصة، التي تبدو لنا قصّة حقيقية، لكن ليس لدينا أي مصدر دقيق» هذا ما سجّله موريس باردش، وهو يطعن في الذكريات البعيدة جداً لبلزاك المستخدم ككاتب

---

(١) من المناسب هنا ذكر بعض ما ورد في تاريخ النص لتوضيح الفروق بين **مكر دائن ورجل أعمال**: كتب بلزاك هذه القصة القصيرة بتاريخ ٤كانون الثاني ١٨٤٤ وقدّمها إلى هتزل الذي اشتراها بتاريخ ٨كانون ثاني بمبلغ ٨٠٠ف سدّدت في ١٥منه على اعتبار أنها «حق مطلق لهتزل» باستثناء السماح لبلزاك في أن يدرجها ضمن **الملهاة الانسانية** أو ضمن أي **«مشهد من الحياة الباريسية»**. طلب هتزل التعديل لتتلاءم القصة مع المؤلّف «الشيطان في باريس» الذي يزمع نشره. ثم يعدل الاستهلال بنفسه كما مرَّ في رسالة له إلى بلزاك بتاريخ ٣شباط، ويقوم خلاف بين الرجلين حول التعديل ولا تدرج **مكر دائن** بين المقالات التي اتفق في شهر آب على وضعها في مؤلّف **الشيطان في باريس**، ويبيع هتزل حقه في نشرها لمجلة «القرن LE SIÈCLE» التي تنشرها بتاريخ ١٥أيلول ١٨٤٥ مسبوقة بعنوان «دراسات طبائع». يعلن بلزاك في بيبليوغرافية فرنسة بتاريخ ١آب ١٨٤٦ عن نشر القصة في الجزء الثاني عشر من «**الملهاة الانسانية**» وضمن «**مشاهد من الحياة الباريسية**» ويضيف إليها الإهداء «الموجّه إلى البارون روتشيلد، وتاريخ ١٨٤٥، ويحذف الفصول، ويغيّر العنوان إلى «رجل أعمال».

twitter @baghdad_library

لدى المحامي غيونه -مرفيل[1] ويتساءل إن لم يكن بلزاك في العام ١٨٤٤ «على علاقة مع فيدوك[2]»، وهو آنذاك مدير مكتب متخصص في تحصيل الديون» وعمّا إذا لم يكن «من الأحرى التفتيش ضمن هذا الاتجاه؟ لكن ملفات وكالة ڤيدوك التي تحرّاها جان ساڤان لم تكشف حتى الآن عن استخدام ڤيدوك لظرف مماثل للخاصية في القانون التي استخدمت كقاعدة في العملية التي رواها بلزاك «غير أن هذا الاتجاه ذو فائدة، إذ أن فيدوك في كل وقت، وخاصة منذ كان رئيساً لجهاز الأمن العام، ثم مديراً لمكتب معلومات «لمصلحة التجارة» لجأ إلى ممارسة فعّالة ومفضّلة لفن التنكّر الذي استطاع بلزاك أن يستمدّ منه خاتمة قصته حيث يلاحظ أن تنكراً بسيطاً ملائماً مع استعارة هويّة يسمح لدائن بالتحصيل من مدين محنّك. لكن باستثناء لهذا المكر، يتم تحصيل الدين بالطريقة الأكثر ابتذالاً. دون أن تستخدم «أيّ خاصية في القانون كقاعدة في العملية» وإذا كان المحامي ديروش يستند إلى الشرع بقوله: «لنا الحق، وفقاً لحدود القانون في إجراء تقاص عند توفّر صفة الدائن والمدين في شخص واحد»؛ فإن هذه الترتيب الشرعي المثار لم يلعب أي دور في القصة. ولسبب: فهذا المقطع أضافه بلزاك فقط إلى **الملهاة الإنسانية**، دون شك لزخرفة نصّه.

وعلى مثال «المفروشات» المستخدمة لتأثيث وكالة كلاباروون، فإن هذه الإضافة التقنية توحي مع ذلك باتجاه آخر لاكتشاف أصل هذه القصة المستندة أساساً إلى ذكريات محام. وقد أنشئت كما رأينا في صبيحة يوم ٤ كانون الثاني ١٨٤٤، والواقع أن بلزاك في عشية ذلك اليوم كما تنبئنا رسالته المؤرخة في ٢ كانون ثاني إلى المحامي بيكار، كان على موعد للاجتماع بمحاميين: غاڤو مستشاره منذ العام ١٨٤٠، وبيكار خليفة غاڤو. وكان على الرجال الثلاثة أن يبحثوا في قضايا لوكن وداڤيد، وهي قضايا مشوّشة إلى حدّ يجمع فيه بلزاك تماماً صفتي الدائن (لدافيد)

(١) عمل بلزاك وهو في السابعة عشر من العمر كاتباً لدى المحامي غيونه مرڤيل بدءاً من تشرين ثاني ١٨١٦ وحتى آذار ١٨١٨ في ذات الوقت الذي تسجّل فيه لدراسة الحقوق.

(٢) ڤيدوك (فرانسوا) «١٧٧٥ -١٨٥٧» مغامر فرنسي. محكوم بالأشغال الشاقة أعفي عنه وعمل رئيساً للأمن العام، وبعد انتهاء خدمته الوظيفية رئيساً لمكتب تحقيقات خاصة. ترك «مذكرات» شيّقة.

والمدين (للوكن[1]). ومن المغري أن نتصوّر، خلال تلك الأمسية المحامين المحرّضين من قبل بلزاك، وعلى طريقة ديروش، يستحضران ذكرياتهما، ويرويان طرائف حقيقية أو مختلفة عن مهنتهما، ومن بينهاما حفظه بلزاك وغدا في اليوم التالي **مكر دائن** التي طعّمها فيما بعد باستعراض تقني يعود إلى ذكرى ذلك الاجتماع. إن فائدة الفرضية ليست في الكشف عن أصل مغامرة صغير هي أشبه بحكاية تروى في سمر أثناء التحلية منها بقصة حقيقية، وإنما في رؤية مدى فعالية مَلَكة التصوُّر لدى بلزاك ومهارتها في حالة بعض المؤلّفات الصغرى، إذ أن فكاهة تنتج عن دعابة محامين لايمكن أن تقدم جميع أسس القصة.

علاوة عن اقتباس محتمل من ڤيدوك، فإن بلزاك أغنى قصته. بشخصيات مختلفة، وخاصة شخصية سريزه الرئيسة المكيّفة جيّداً مع القصّة، لكنها مكيّفة أيضاً انطلاقاً من حقيقة؛ فصورة سريزه الموضوعة في الكادر الضيّق لرجل الأعمال لم تثر أبداً الفضول؛ ومع ذلك فإنها طرحت فكرة تشابه على قدر كاف من الوضوح مع رجل يعرفه بلزاك جيّداً، وهوڤيكتور بوهن. تمثل حياة ڤيكتور بوهن (١٨٠٤ -١٨٥٦) معظم المظاهر المتراكمة في سيرة حياة سريزه التي يقصّها مدعوو ملاغا. وأولاً صحافة معارضة اليسار في عهد الملكية الثانية؛ فهذه «الصحافة الطريفة والكلبية» في خدمة ليبرالية «تحتقرها في صميمها»[2] قد سبّبت لبوهن، لأنه ظهّر بتوقيعه مسؤولية مقالات مقذعة في الفيغارو، ملاحقات ضارية، وستة أشهر سجن[3]، وصيتاً في الجرأة وشهرة بثمن زهيد، ومن ثمّ المزيد من المهارة في فعالية أمّنت له ثروة قدّر لها أن تبيد على مثال ثروة سريزه، وذلك في ذات الوقت، نحو نهاية عهد الملكية الثانية؛ والعهدة إليه بمنصب محافظ من قبل غيزو[4]، كمنصب سريزة أيضاً، هذا الرجل الذي أفلس غداة ثورة تموز: كذلك وجب على بوهن أن

---

(١) مراسلات بلزاك -الجزء الرابع ص٦٦٠ والملف A٢٥٥ من مكتبة لوفنجول.

(٢) رموزا: مذكرات حياتي (نشرها وعلّق عليها ش. بوتا): رموزا، «شارل» (١٧٩٧ -١٨٧٥) نائب ليبرالي (١٨٣٠ -١٨٤٧) ووزير خارجية (١٨٧١.

(٣) الوثائق الوطنية. الملف ٩٤٠٠.

(٤) غيزو، «فرنسوا» (١٧٨٧ -١٨٧٤) رجل دولة فرنسي، رئيس الحكومة «١٨٤٧ -١٨٤٨»

twitter @baghdad_library

يترك المحافظة قبل الثلاثة أشهر التي منحها بلزاك لسريزة، «وذلك بسبب العديد من الكمبيالات التي لم توفَ» وفقا لشهادة مريمه[1]، ولأنه أتى معه بثلاث نساء مستهترات، أشاع أنهن امرأته وأختها وأخته[2]، ولنشر أيضاً إلى قلة الأمانة التي أظهرها وخاصة بترويجه أسهماً مزيّفة للفيغارو أرقامها ذات اللون الأزرق والوردي خالية من أيّة قيمة وفقاً لما أعلنه لاتوش في تلك الصحيفة[3]. وكذلك مقطع «الموالاة في السرّ»[4]، لخدمات حكومة تموز، بعد تسليم، قدّر ثمنه ماليا[5] موفد تلك الشرطة، التي يبدو على الأقل في الصيغة الأولى للقصة، أن لسريزه نفسه اتصالات معها. والاتّجار المشبوه الذي توسّع به دون انقطاع، وقاده إلى بعض إفلاسات احتيالية، وخاصة في العام ١٨٣٩، بحيث اضطر أن يهرب ويقضي بعض الوقت في لندن، بعد عدد من المشاركات السيّئة الحظّ، كتلك التي أجراها سريزه (على سبيل المثال مع دلوا ولكو «لاستثمار مؤلّفات بلزاك» في تشرين ثاني ١٨٣٦)؛ والإدارات المبهمة والمحكوم عليها بإخفاقات متواصلة، وخاصة في مشاريع تعود إلى المسرح الذي يعرف كواليسه وممثلاته الثانويات كسريزه؛ ثم أفكار شركات التوصية من جميع الأنواع، كتلك التي تصوّرها في العام ١٨٣٣، ليحقّق فكرة بلزاك في شركة نشر ذي سعر رخيص بنظام اشتراكات؛ وابتكارات من جميع الأصناف، سبّب أحدها إزعاجاً كبيراً لجيراردن وفق ماتشير له تهكمات رسالة إلى بلزاك في آذار ١٨٣٤ حول «فكرة قاعات المطالعة باشتراك فرنك واحد في الشهر، يدّعي السادة بوهن وشركاه أنّهم مبتكروها»؛ مما أعطى فكرة قاعة مطالعة الآنسة شوكاردل؛ انهيارات ذات تكرار؛ تأنّق رائد حانات وكواليس[6].

---

(١) مريمه (١٨٠٣ - ١٨٧٠) كاتب فرنسي. والمرجع هنا مراسلاته العامة - الجزء الأول ص٩١

(٢) ل. ج. اريغون: سنوات بلزاك الرومنسية

(٣) ف. سيغو: الفيغارو الأولى

(٤) كما ورد في سياق القصة: «رجل أعمال» عند ذكر الصحيفة التي عمل بها سريزه.

(٥) ف. سيغو: هـ. لاتوش ص: ٤٩٤.

(٦) غابوريو: الفيغارو القديمة فصل «الفيغارو وفيكتور بوهن.

أخيراً أصاب فقد الاعتبار بشكل عام بوهن كما سريزه، وقد سألت زولما كارو بلزاك في رسالة بتاريخ ١١ تشرين الثاني ١٨٣٣ : «هل تعلم أي سمعة لهذا الشخص؟ هل فكّرت بتعمّق في مشروع مشاركتكم، وهل تعرف ما مصير توقيع منضمّ إلى توقيعه؟ كانت زولما تعيش آنذاك في آنغولم، فهي مطّلعة بصورة خاصة على مجريات الأمور؛ لأن المحافظة الجميلة التي مرّ بها بوهن مروراً عابراً ومشيناً هي بالضبط محافظة آنغولم. آنغولم التي وصل إليها سريزه في أول ظهور له في رواية **أوهام ضائعة** . . . وقد أعطى متأخراً جواباً على تساؤل زولما، لكن بلزاك كان قد أعطى جواباً أولا قبل ذلك بسنوات، وفي المؤلَّف نفسه الذي أهداه لصديقته المتبصّرة، و **هو بيت نوسنجن**؛ وذلك في شخصية كوتور، شريك كلابارون الأول، المحافظ العابر والإتجاري المستتر. وإذا كان كوتور عديم الجدوى لسريزه في **الملهاة الإنسانية** فذلك لأنهما من أرومة واحدة؛ فبُوهْن الاتجاري الحقيقي يقدِّم من النسيج ما يكفي لإكساء «رجلي أعمال» روائيين. وهو يمثّل على نحو واف هذا النوع من طفيلي الصحافة السياسية، وبنيات الصناعة والتجارة الدنيا، والحسم والشركة الوصائية، التي ولّدت الدوّامات السياسية والشروط الموبوءة لاقتصاد في ملء النمو، قائم على ندرة السيولة المالية والاعتمادات.

إثبات آخر مفيد في معرض هذه «المُلحَة» يخصّ رؤية بلزاك الإجمالية، البيّنة عن بُعد لأعماله وتوسّعاتها المتداخلة. فمدرسة تسكّع ٤ كانون ثاني ١٨٤٤ لاتشير فقط إلى هروب من تحرير **الفنان الكبير**، وإنّما إلى بداية توقّف لعدة أسابيع عن هذا التحرير.

والواقع أن هذا التوقّف تناول نحو عشرة فصول، قبل أن يتصدّى في هذه القصة إلى مشاركة سريزه وكلابارون: **فمكر دائن** تبرهن أن بلزاك توقع منذ لحظة تحريرها، أي قبل عدة أسابيع مقدّماً هذه الشراكة الطارئة وما ستولّده من نتائج على حبكة قصة **البورجوازيين الصغار**.

يعيب السيد باردش على هذه القصة أنّها رُبطَت بطريقة «متكلّفة تقريباً» و«كيفية» **بالملهاة الانسانية** فيقول: «لا يخفى على أحد أن المغامرة يمكن أن تحصل

twitter @baghdad_library

مع أي شخص سيّء المعاملة في السداد، ومع معتمدي أي وكالة أعمال، كما يمكن أن يقصّها أي راوي آخر». بالعودة إلى البناء الروائي يلاحظ أن وقائع تحرير **البورجوازيين الصغار ومكر دائن** تناقض هذا الحكم. كما أنه يبدوَ أقل ثباتاً فيما يتعلّق بالشخصيات. فالمزاج الذي سبق تحديده وفق الطبائع يعطي عمقاً لكل شخصية وماضي هذه الشخصيات يخلع سمة على كل تلميح؛ ومن المهم أن يكون المدين السيّء المعاملة هو مكسيم دي تراي، وأن يكون معتمدا التحصيل سريزه وكلابرون؛ والقاص هو المحامي ديروش. كما أن من المهم أن يكون أحد المستمعين على مائدة العشاء هو بيكسيو: إذ أنه الوحيد الذي يمكن أن يتذوق طعم الفكاهة المتعلقة بالشريك الثاني لكلابارون بعد أن سبق له تذوّق تلك العائدة للشريك الأوّل خلال عشاء آخر يعرفه القراء في قصة **بيت نوسنجن**.

عدا عن ذلك فهذه الشخصيات العائدة للظهور تتيح متابعة التطور الحاصل لدى بلزاك وخاصة في الأزمة التي يمرّ بها في العام ١٨٤٤. وقد كان الموضوع في **بيت نوسنجن** التي كتبت في العام ١٨٣٧ يتعلّق برجال أعمال، إنّما بمضاربات ذات مدى واسع؛ وبيكسيو المدعو لحفلتي العشاء يساعد على رؤية بلزاك يهدف في العام ١٨٤٤ إلى مدى أضيق ولا يعطي إلا الزهيد من المال؛ وليس ديروش ومكسيم دي تراي أقل إيحاءً؛ فمكسيم متعوّد قديم على أدوار المراوغة في الدين، ومنذ العام ١٨٣٥ حمّله بلزاك أبوّة مهارات مدين رويت في قصة **غوبسك**، وكان دي تراي آنذاك عشيق أناستازي دي روستو؛ ووجد آنذاك محام يروي أعماله الدنيئة، إنّما كانت هذه الدناءات ذات براعة عالية، وكان المحامي ذا مرتبة رفيعة وهو درڤيل.

في قصة **رجل أعمال** ليس المحامي إلا ديروش، وهو نموذج مصغّر لمحام لايعرف من مهنته إلا المخادعة. أما مكسيم دي تراي فهو ليس إلا عشيق شوكاردل المقبلة أنطونيا، وهو لايقوّض ضاحية سان جرمن: شخص مستضعف، قليل القدر، يتعرّض للخداع من أجل فتاة جميلة مستهترة، وقاعة مطالعة في شارع كوكنار. ومكسيم دي تراي وديروش يمكنهما وحدهما أن يكشفا لنا عما أصاب بلزاك من إعياء تجّهم رؤيته أيضاً، وأوهامه الضائعة عن العالم والناس.

٣-غوديسار الشهير

دراسة طبائع

مشاهد من حياة المقاطعات

العنوان الأصلي:

BALZAC
LA COMÉDIE HUMAINE

L'ILLUSTRE GAUDISSART

ETUDES DE MŒURS
SCÈNES DE LA VIE DE PROVINCE

twitter @baghdad_library

غوديسار الشهير

الإهداء:

إلى السيدة الدوقة دي كاستري[1]

أليست شخصية الوكيل التجاري الجوّاب، غير المعروفة في العصر القديم، أحد أكثر الوجوه التي خلفتها طبائع العصر الحالي[2] إثارة للفضول؟ أليس مقدّراً له، في ترتيب ما للأمور، أن يَسِمَ الانتقال الكبير الذي يربط زمن الاستثمارات المادية بزمن الاستثمارات الفكرية؟، وفقاً لما يراه الملاحظون.

إن عصرنا يصل بين مملكة القوة المنعزلة، الغزيرة بالمبتكرات الطريفة؛ ومملكة القوة المنتظمة، إنّما الممهّدة؛ تسوّي بين المنتجات وتطرحها بكميات كبيرة، مستجيبة لفكرة موحّدة، هي آخر تعبير للمجتمعات. فبعد عربدات الفكر المعمّم، وبعد الجهود الأخيرة للحضارات التي تجمع كنوز الأرض في نقطة، ألا تأتي دياجير البربرية دائماً؟ أليس الوكيل التجاري الجوّاب بالنسبة للأفكار، كما العربات بالنسبة

(١) سجّل بلزاك هذا الإهداء ليوضع في مقدمة هذه القصة في طبعة «فورن» أي في العام ١٨٤٣، وكان على علاقة طيبة مع السيّدة دي كاستري (التي غدت دوقة في ١٩ كانون الثاني ١٨٤٢ بعد موت والد زوجها)، ولكننا لاندرك سبب إهدائها هذه القصة بالذات. من المؤكّد أن «غوديسار الشهير كتبت في فترة كان الروائي فيها يحاول إغواء السيّدة دي كاستري، لكنه في تشرين ثاني ١٨٣٣ لم يكن على علاقة طيّبة معها. عدا عن أنه ذهب إلى سويسرة لملاقاة السيدة هانسكا التي غدت عشيقته أثناء وجودهما في جنيف. ولعل الروائي في نسخته الخاصة التي أرّخ فيها الاهداء بتاريخ ١٨٣٢ أراد التعبير عن فترة غرامه بالدوقة.

(٢) يعتبر لويس ريبو أيضاً في «آخر الوكلاء التجاريين الجوّابين» العام ١٨٤٥. أن هذا الوكيل هو ابن ذلك العصر.

twitter @baghdad_library

للأشياء والناس؟ فهو ينقلها، ويحرّكها، ويصادم بعضها ببعض الآخر. وهو يأخذ في المركز المضيء شحنته من الاشعاعات وينثرها عبر الجماهير الغافلة.

هذا اللهوب[1] البشري عالِم جاهل، مخادع مخدوع، كاهن شكّاك أفصح ما يكون عندما يتكلم عن أسراره ومبادئ لاهوته. وجه يثير الفضول! فهذا الرجل رأى الكثير، وعرف الكثير، وخَبِرَ الحياة، وهو المشبَع من عيوب باريس، يمكنه أن يتصنّع طيبة أهل المقاطعات. أليس هو الحلقة التي تربط القرية بالعاصمة، بالرغم من أنّه في الأساس ليس باريسياً، ولا ريفياً؟ لأنه جوّاب، فهو لايتطلّع إلى شيء في العمق، لا الرجال، ولا الأماكن، يتعرّف على الأسماء، والأشياء، ويقدّر المساحات، وله مقياسه الخاص الذي يكيل به كل شيء على قدره. أخيراً فإنّ نظره ينزلق على الأشياء ولا يخترقها يهتم بكل شيء ولا يهمّه شيء. ساخر وقوّال يحب جميع الأحزاب ظاهرياً، وهو في دخيلة نفسه وطني[2] عامّة. إيمائي ممتاز يعرف بالتناوب كيف يبدي ابتسامة المودّة والإنشراح والمجاملة، وكيف يتخلّى عنها ليعود إلى طبيعته الحقيقية، الحالة العادية التي يستريح فيها، وهو حريص على أن يكون ملاحظاً دقيقاً، لالتزامه بواجب مهنته. أليس مضطراً لسبر دخائل الناس بنظرة واحدة، وتخمين التصرفات، والطبائع، والملاءة خاصة، ودون انقطاع؛ وأن يُقدِّر بشكل فوري حظوظ النجاح كي لايضيع وقته؟ وهكذا فعادة التقرير بسرعة في كل أمر جعلت منه بشكل رئيس رجلاً حصيفاً[3]: فهو يحسم، ويتحدّث كأحد أسياد المسارح في باريس عن ممثليهم، وعن ممثلي المقاطعات. وهو يعرف الأماكن الجيّدة

---

(١) اللهوب PYROPHORE: هو الجسم الذي يلتهب تلقائياً لأقلّ صدمة أو لملامسة الهواء.

(٢) كانت كلمة «وطني حوالي العام ١٨٣٠ توقظ مفاهيم سياسية، وتوحي بقناعات ليبرالية، وفي نصّ لويس ريبو المذكور في الملاحظة السابقة تأكيد على أن الوكيل التجاري الجوّاب هورجل يساري، وكما ورد على لسان أحد شخصياته: «إن الوكيل التجاري الجوّاب هوالذي صنع ثورة تموز وطرد فرع آل بوربون البكر من الأراضي الفرنسية [. . .]. كم من أغنية لبرانجه نشرتهاحتى في أصغر المزارع البعيدة، وكم من صور لمانويل، ولافاييت، والجنرال فوا وزّعت على طريقي»

(٣) صوّر مونتسكيو في «الرسائل الفارسية» العزوم الذي يحسم كل شيء واعتبره نموذج الانسان المدني وثقة غوديسار هنا تعبير عن الأزمنة الجديدة.

والأماكن السيّئة في فرنسة كمن خبَرَها ورآها، وهو يُحلّق بك عند الحاجة في أجواء الفضيلة أو الرذيلة حسب الحاجة وبذات الثقة. ألايمكنه، وقد وُهب بيان صنبور ماء حار يمكن ضبطه وفق الحاجة، أن يتوقف مثله، أو أن يتدفّق بدون خطأ بسيل من مجموع عباراته المنمّقة التي تحدث في نفس سامعة تأثير دوش معنوي منشّط؟ راوية، بَطِر مرح، يدخن ويشرب، وله وسائل زينته، ويعرف كيف يلفت الأنظار إليه، يمرُّ في القرى كوجيه محترم، ما من شيء يضايقه، يُبدي كلّ مظاهر الثراء أمام خادمات البيوت البورجوازية، الحذرات من اللصوص، بحيث يبعث في نفوسهن كلّ الطمأنينة عندما يطرق الأبواب. وحيويته، أتكون هي الأدنى بين مزايا هذه الآلة البشرية؟ لا الحدأة في انقضاضها على فريستها، ولا الوعل المبتكر لدورات جديدة، ليمر في غفلة من الكلاب وليضلّل الصيادين؛ ولا الكلاب تشتمُّ إثر الطريدة؛ يمكن أن تقارن بسرعة طيرانه عندما يقتفي طلبية، أو بمهارته في عرقلة منافسه ليتقدّم عليه، أو بفنه في الحسِّ والتحري والكشف عن تصريف لبضائعه. كم يلزم لمثل هذا الرجل من مزايا عالية! هل تجدون كثيراً في بلد ما من أمثال هؤلاء الدبلوماسيين من عامة الناس، هؤلاء المفاوضين بعمق في موضوع أقمشة خام، أو حلي، أو أجواخ، أو خمور، وهم غالباً أمهر من السفراء، المتقيدين بالشكليات في معظمهم؟ ما من إنسان في فرنسة يشكُّ بالقدرة الفائقة للجوّابين المنبسطة باستمرار، هؤلاء المجابهين بعناد للرفض، الذين يمثّلون حتى آخر قرية عبقرية الحضارة والابتكارات الباريسية المتصارعة مع الحسّ الفطري أو الجهل أو الرتابة في المقاطعات. كيف تنسى هنا هذه المناورات البارعة التي تستثير ذكاء البشر، وتقنع بالكلمة الجماهير الأكثر تمرّداً، وهي أشبه في طرائقها بهؤلاء الصقّالين الجلودين الذين يصقل مبردهم الرخام البورفيري الأشدُّ قسوة! . أتريدون معرفة قدرة اللغة والضغط الكبير الذي تمارسه العبارة على الدراهم الأكثر عصيانا، تلك العائدة إلى الملاك القابع في كوخه الريفي؟ استمعوا إلى خطاب كبار أرباب الصناعة الباريسية؛ الذي تروح وتجيء وتتحرك وتعمل لمصلحته هذه المكابس الذكية في الماكنة البخارية المسماة المضاربة.

twitter @baghdad_library

قال لأحد علماءالاقتصاد مُديرٌ إحدى أشهر شركات التأمين ضد الحريق وهو يشغل في الوقت نفسه أمين الصندوق والسكرتير العام فيها: «سيدي، إنّ لنا سنوياً أقساط تأمين في المقاطعات خمسمئة ألف فرنك، لايردنا منها تلقائياً أكثر من خمسين ألف فرنك. أما الأربعمئة وخمسون ألف فرنك الباقية فتستجرّ نتيجة إلحاح مندوبينا الذين يذهبون إلى المؤمنين المتأخرين «يزعجونهم» إلى أن يوقعوا مجدداً على وثائق عقودهم بعد إثارة ذعرهم بقصص الحرائق المرعبة، الخ. . وهكذا فالفصاحة والثرثرة تتدخّل من أجل تسعة أعشار أساليب استثمارنا ووسائلها.

«أليس الإغواء في أن تتكلم، وتدفع الناس إلى الإصغاء إليك؟ إن أمّة لها مجلسان، وامرأةً تعير أذنيها، كلتيهما ضائعتان بالتساوي. وحواء والحيّة تشكّلان الأسطورة الخالدة لحدث يومي بدأ معهما ولن ينتهي، على الأرجح، إلا مع نهاية العالم.

«بعد محادثة ساعتين، فإن الرجل يكون طوع أمرك» هذا رأي محام مرخّص اعتزل العمل. هل تأمّلت يوماً وكيلاً تجارياً جواباً؟ هل نظرت ملياً إلى وجهه؟ لاتنس معطفه الزيتوني، ولاسترته، ولا الياقة الجلدية، ولا الغليون، ولا القميص من الكاليكوت ذي الخطوط الزرقاء. في هذا الوجه الذي يقاوم النسيان بطرافته، كم من طبائع متنوعة ستكتشف؟ انظر! أي بطل، وأي حلبة، وأي أسلحة: هو، العالم ولسانه. بحار عنيد، يقلع مجهّزاً ببعض عبارات ليذهب لاصطياد خمسمئة أو ستمئة ألف فرنك في بحار متجمدة، في بلاد الإيروكوا[1]، أو في فرنسة! أليس الأمر هو استخلاص الذهب المخبوء في صناديق المقاطعات، واستجراره منها دون ألم!، وبعمليات ذهنيّة خالصة؛ وبالشبكة والأجهزة الأكثر نعومة. هلاّ فكّرت الآن دون ارتعاش بطوفان العبارات التي ستبدأ شلالاتها بالتدفق مع مطلع النهار في فرنسة؟ عرفت الجنس[2] وإليك النموذج الممثّل له:

---

(١) الإيروكوا: جماعة من الهنود الحمر استقروا جنوب شرق بحيرتي إريه واونتاريو وشكلوا اتحاداً دفع الفرنسيين نحو الجنوب.

(٢) يستخدم بلزاك مفردات تصنيف العلوم الطبيعية التي يعود إليها بجلاء في مقدمة «الملهاة الإنسانية»

يوجد في باريس وكيل تجاري جوّاب لايُضاهى؛ هوالمثال الفريد لنوعه، رجل يمتلك إلى أعلى درجة جميع الشروط اللازمة لطبيعة نجاحاته. في كلامه يصادف في آن واحد الدبق والزاج[1]: الدبق لضبط ضحيته وأسرها وجعلها ملتصقة، وزيت الزاج لإذابة الحصيّات الأكثر قسوة. ميدان اختصاصه ترويج بيع القبعات؛ لكن موهبته وفنه في جذب الأشخاص جعلاه يكتسب شهرة تجارية كبيرة، حتى أن تجار «مواد الزينة الباريسية» يتودّدون جميعهم إليه في سعي لتكليفه بالترويج لأصنافهم. وهكذا فعندما يعود من غزواته الظافرة، ويقيم لفترة من الزمن في باريس، فإنه يقضي أوقاته باستمرار بين المآدب والحفلات؛ والوكلاء في المقاطعات يدلّلونه؛ والبيوت التجارية الكبرى في باريس تتودّد إليه، يُرحَّب به، ويُحتفل على شرفه، ويُغذّى في كل مكان؛ حتى غدت وجبة غداء أو عشاء يقوم بها منفرداً مصدر متعة وسرور له؛ فهو يمارس حياة حاكم سيّد، أو ما هو، أفضل حياة صحفي. أليس هو المسلسل الحي في التجارة الباريسية؟

كان اسمه غوديسّار، وشهرته، وتأثيره، وما يلقاه من مديح وثناء، منحته لقب «الشهير». وسواء دخل هذا الشاب إلى متجر أو نُزُل، إلى صالون أو عربة، إلى سقيفة أو مصرف؛ يقول كل من يراه: «آه هوّذا غوديسار الشهير». ما من اسم يمثل هذا التناسق مع الشكل والتصرّفات والسحنة والصوت واللهجة لأيّ رجل. الكلّ يبسم للوكيل التجاري الجوّاب وهو يبسم للكلّ. فهو من أنصار المعالجة المثلية: «وداوها بالتي كانت هي الداء». توافقت توريات الجناس، والقهقهة، وسحنة الراهب الفرنسيسكاني، والمظهر الرابلي[2]، والثوب والجسم والروح والوجه لتكسب شخصيته بكاملها دعابة متميّزة يصحّ وصفها بالغوديسيرية. وهو

---

(١) الزاج VITRIOL: هو كبريتات المعادن. وزيت الزاج هو حمض الكبريت الكثيف الحارق والقادر على حلّ كثير من الأجسام.

(٢) الرابلي: نسبة إلى رابله RABELAIS الأديب الفرنسي الساخر (١٤٩٤ -١٥٥٣).

twitter @baghdad_library

مستقيم في عمله، طيّب في تصرّفه، ممازح في حديثه؛ تتعرف فيه على الرجل المحبّب للعوبات، يتسلّق بأناقة حافة العربة لأخذ بيد سيّدة تجد صعوبة في النزول منها، يمازح الحوذي عندما يلمح منديل عنقه وهو مقبل ويبيعه قبعة، ويبسم للخادمة ويحيط خصرها بذراعه أو بعواطفه. يقلّد على المائدة فقفقة زجاجة الخمر الفوّار وهو ينقر بإصبعه على خدّ ينفخه كجلدة مشدودة، يجعل كأس البيرة يرغي ويزبد وهو يطلق صفيراً من بين شفتيه ينقر بالسكين نقرات قويّة على كؤوس الشمبانية دون أن تنكسر، ويطلب من الآخرين أن «يفعلوا مثل فعلته» يسخر من المسافرين الخجولين ويناقض الأشخاص المثقفين ويسود على المائدة مستأثراً بأفضل القطع إنّما يمكنه، وهو الرجل القوي، أن يتخلّى في الوقت المناسب عن جميع دعاباته، في لحظة يأخذ فيها وضع المفكّر بعمق وهو يرمي بعقب سيكاره، قائلا وهو ينظر إلى المدينة: «سأذهب لأرى ما يُبطن هؤلاء القوم!».

ويغدو غوديسار عند ذاك الأكثر براعة ومهارة بين السفراء، فهو يعرف كيف يدخل كإداري إلى ديوان مدير المنطقة، وكرأسمالي إلى مكتب صاحب مصرف، وكرجل دين متعصب للعرش أمام ملكي، وكبورجوازي بين البورجوازيين؛ أخيراً هو في كل مكان ما يجب أن يكونه، تاركا شخصية غوديسار على الباب، ومستعيداً لها عند خروجه.

بقي غوديسار الشهير حتى العام ١٨٣٠ أمينا لأدوات الزينة الباريسية. وسمحت له مختلف أقسام هذه التجارة، بتوجهه إلى القسم الأعظم من النزوات البشرية، أن يلاحظ خبايا القلوب؛ وأرشدته إلى أسرار بلاغته الجذّابة، وإلى طريقة حلّ عُقَد الأكياس الأشدّ ربطاً، وإيقاظ نزَعات النساء، والأزواج، والأولاد، والخادمات، والتعهّد باشباعها. ما من أحد يعرف أفضل منه فنّ اجتذاب التّجار بإغراءات صفقة، ثم الانسحاب في اللحظة التي تصل بها رغبتهم لإتمامها إلى القمّة. وهو يبدي كل عرفان الجميل لتجارة القبعات، قائلاً

إنه بدراسة شكل الرأس الخارجي أدرك كلّ ما يدور في داخله، وقد اعتاد أن يُغطي رؤوس الأشخاص، ويرتمي عليها، الخ. . . ففكاهاته عن القبعات لاتنتهي. غير أنه بعد آب وتشرين أوّل ١٨٣٠ ترك تجارة القبعات وأدوات الزينة الباريسية، وتخلّى عن مهمات تجارة الأشياء الميكانيكية والمنظورة، لينطلق إلى الآفاق الأكثر سمواً من المضاربة[١] الباريسية، وهجر، كما قال، المادة إلى الفكر، والمنتجات المصنّعة إلى تحضيرات للذكاء أكثر صفاءً بما لايقاس. وهذا ما يقتضي تفسيراً.

ولّد انقلاب ١٨٣٠، كما يعرف الجميع، كثيراً من الأفكار العتيقة؛ جرّب بعض مهرة المضاربين إحياءها. ومنذ ١٨٣٠، بصورة خاصة، غدت الأفكار ذات قيمة؛ وكما قال أحد الكتّاب الفكهين إلى حدٍّ لم ينشر[٢] فيه شيئاً: قد يأتي يوم -بعد أن غدا التلويح بالأفكار أكثر من التلويح بالمناديل- نرى فيه بورصة للآراء. لكن منذ الآن نرى الأفكار، جيّدة كانت أو سيّئة، تُشعَر، وتُجنَى، وتستورد، وتحمل، وتباع، وتتحقّق، وتُغِلُّ. وإن لم توجد أفكار للبيع، يجرّب المضارب أن يهيِّء كلمات لصالحها، ويعطيها قوام الفكرة ويعيش من كلماته كعيشة الطير على حبّات الدّخن. لاتبتسموا ساخرين إن ذكرنا أن الكلمة تعادل فكرة في بلاد تُغري فيها إتيكيت الحقيبة أكثر من محتواها. ألم نر المكتبة تستغل كلمة «المثير» عندما أسقط الأدب كلمة

---

(١) منذ آب ١٨٣٠ حيّا دوبين DUPIN البكر ملكية لويس فيليب والفرع الأورليانى من آل بوربون «كأحسن الجمهوريات» لكن مساهمة الشباب وأهل الفكر أُنكِرَت سريعاً كما يقول ز. ماركاس. وفي تشرين أول ١٨٣٠ بدأ القمع، وأخذت الاتّجاريّة البورجوازية مداها. وكلمة «مضاربة» في النصّ تأخذ معنى مبهماً، فهي أقرب إلى تحوير الأفكار، ولكن بدلالة أقرب إلى السخرية، وذلك قبل أن ينطبق استخدامها على الفعاليات المالية حصراً وبمعنى يتضمن التحقير.

(٢) تكشف المخطوطة عن اسم هذا الكاتب الفكه وهو لِتور -مزراي. وفي ذات السنة وجه بلزاك إليه تحية تقدير، في «نظرية المسعى»، مبدياً الإعجاب بالحبور الاجتماعي الذي يبديه رفيقه المرح.

twitter @baghdad_library

«الخارق»[1]؟ وهكذا فإن مصلحة الضرائب خمّنت الضريبة الثقافية، وعرفت تماماً أن تقدّر حقل الإعلانات، وتسجّل النشرات، وتزن الفكر في شارع السلام، وقَصر الطابع؛ فبتحوّل الفكر ومنتجاته إلى استثمار، وجب عليه بالطبع أن يخضع إلى الطراز المستخدم في الاستثمارات المصنّعة، وهكذا غَدَت الأفكار المتصوّرة، بعد الشراب في مخّ بعض هؤلاء الباريسيين، البطّالين ظاهرياً، المصارعين في معارك أخلاقية، وهم يفرغون زجاجة أو يتناولون فخذ طائر تدرج؛ تسلم إلى وكلاء تجارة جوّابين، مكلفين بأن يعرضوا بمهارة في باريس والمقاطعات، في المدن وكلّ الأرجاء شحم الإعلانات والنشرات المشوّي، بحيث يؤخذ بواسطته في مصيدة المؤسسة، هذا الجرذ الريفي المسمى بابتذال تارة المشترك، وطوراً المساهم؛ حيناً العضو المراسل، وأحياناً أخرى المكتتب أو النصير، لكن في جميع الأحوال الأحمق.

---

(١) منذ الملكية الثانية، أبرز شارل نوديه «المثير» PITTORESQUE بنشره مع البارون تايلور وألفونس دي كايو: «رحلات مثيرة ورومنسية في فرنسة القديمة» لكن الرومنسية المتوقّدة في الثلاثينات ساهمت كثيراً في نشر الكلمة بميلها إلى الرواية التاريخية والقصيدة البرّاقة و«الموشّحات الغنائية» و«الشرقيّات»، و«اللون المحلّي» الملتصق بعمق في الدراما؛ وبصورة عامة بالمجلوب الغريب كما يشهد نجاح علاقات الرحلات المنشورة خاصة في «مجلة العالمين» -وأيضاً هذه العاطفة في «أخوّة الفنون» التي تقرّب بين الرسّامين والكتّاب منذ زمن الندوة الأدبية التي أسسها ڤيكتور هوغو، ولكن بشكل وثيق بعد ١٨٣٠ في «الندوة الصغرى» أو «ندوة فرنسة الفنيّة» (المغرمة أيضاً بالخارق) FANTASTIQUE. لكن الصحيح هو أن كلمة «مثير» ازدهرت في الصحف والدوريات في ١٨٣٣، وأنّ «المكتبة» استحوذت عليها: والنص المخطوط المعلّق عليه أعلاه يشير إلى أن بلزاك يفكر بمؤسسة «المجلة المثيرة» التي أطلقت في ذلك الوقت. أما تقهقر كلمة «خارق» بذات التاريخ، بعد أن عرفت قصص هوفمان قبل ذلك بأربع سنوات نجاحاً باهراً فمن الممكن الاستدلال عليه بوضوح. فمنذ ١٩ شباط ١٨٣٢ نشر مدوّن متكتّم بخصوص «القصص القائمة» في صحيفة «جورنال دي دبا». «لكثرة القصص الخارقة [...] تعب المؤلفون من إنشائها، وتعب الجمهور خاصة من قراءتها» وفي ١٨٣٣ صرح نوديه في مطلع قصة: «جان فرنسوا ذو الجوارب الزرقاء» (مضى زمن القصة الخارقة، ولا ضرر في ذلك). وفي ١٨٣٣ أيضاً تصادف في «فرنسة الفتية» لتيوفيل غوتية قصة ساخرة هي «اونيفريوس» تتحدث عن (تنكيدات خارقة لمعجب بهوفمان).

«إنني أحمق!» قال أكثر من مالك مسكين اجتذب باحتمال أن يكون مؤسّساً لشيء ما، ووجد نفسه في النهاية مبذّراً لألف أو ألف ومئتي فرنك.

وقال المضارب: «المشتركون أشخاص حمقى لايريدون أن يفهموا أن الإنطلاق في مملكة الفكر يتطلب مالاً يفوق نفقات رحلة في أوروبة. الخ...

يوجد إذاً صراع مستمر بين جمهور متأخر عن التسديد يرفض دفع المساهمات الباريسية، والمحصّلين الذين يعيشون من ريع تحصيلاتهم، فيلاحقون الجمهور بأفكار جديدة، ويحيطونه بالمؤسّسات، ويشوونه بالنشرات، ويسفّدونه بالتملّقات، وينتهون إلى التهامه في صلصة ما، يغوص بها وينتشي كخربشة رأس قلم رصاصي؛ فأي شيء، منذ العام ١٨٣٠، لم يبذل لينشط في فرنسة الحماس وكبرياء «الجماهير الذكية والتقدّمية[1]»! فالألقاب، والمداليات، ونوع من وسام جوقة الشرف ابتكر لمجمع المعذّبين، تتابعت سريعاً. أخيراً فإن جميع مصانع المنتجات الثقافية اكتشفت تابلاً، زنجبيلا خاصاً، هو مباهجها. من هنا الأقساط، ومن هنا الحصص المسبقة، ومن هنا هذه القرعة بين الأسماء الشهيرة تُسحَب دون علم الفنانين التعساء الذين يحملونها، وهكذا يجدون أنفسهم يشاركون بشكل فعّال في مؤسّسات يفوق عددها أيام السنة، لأن القانون لم يلحظ سرقة الأسماء. ومن هنا هذا الاختطاف للأفكار من المخّ الأبوي بمجرّد تفتّحها؛ يقوم به متعهدو الرأي العام، المماثلون لتجار الرقيق في آسية، يقتلعونها ويعرونها ويجرّونها أمام سلطانهم المخبول، شاهاباهامهم[2]، هذا الجمهور الرهيب، الذي إن لم يلهُ، يقطع رؤوسهم بقطع علَفتهم الذهبية.

---

(١) كليشة سان سيمونية، وكلمة تقدمي سادت منذ ذلك الحين، وفي العام ١٨٣٣ أضاف نوديه كعنوان ثان لقصتين من قصصه هما «هورلوبلو» و«لقياتان الطويل». قصصاً تقدميّة. وكان البطل يبحر على سفينة بخارية أطلق عليها اسم «التقدّمي».

(٢) شاهاباهام: هو اسم الباشا في مسرحية أوجين سكريب (١٧٩١ - ١٨٦١) التي تحمل عنوان «القرد والباشا» والصادرة العام ١٨٢٠.

twitter @baghdad_library

هذا الجنون في عصرنا أثّر إذاً على غوديسار الشهير، وذلك بأن سمعت إحدى شركات التأمين على الحياة ورؤوس الأموال الحديث عن فصاحته التي لاتقاوم، فاقترحت عليه عوائد كبيرة ارتضى بها. وبُحِثَت الصفقة واتفق عليها ووقّعت، ووُضع الوكيل الجوّاب للفطام لدى السكرتير العام للادارة الذي خلّص فكر غوديسار من أقمطته غوامض القضية، وعلّمه لهجة التخاطب الخاص بها. وفكّك له آليتها قطعة قطعة، وحلّل له الجمهور الخاص الذي سيتثمره، وحشاه بالعبارات، وغذّاه بالأجوبة التي يعدّها، وزوّده بالحجج الحاسمة. وخلاصة القول، شحذ حدّ اللسان الذي سيفعل في الحياة الفرنسية. والواقع أن هذا الطفل المدلّل استجاب بشكل رائع لما بذله السيد السكرتير العام من عناية به، ورؤساء فروع الضمان على الحياة، ورؤوس المال مجدّت بحرارة غوديسار الشهير، ومنحته كل التقدير، وسلّطت عليه الأضواء، وأشادت في الأوساط المصرفية والدبلوماسية الرفيعة بمواهب هذه النشرة الدعائية الحيّة، بحيث أن المدراء الماليين لصحيفتين شهيرتين في تلك الفترة؛ وهما «الكرة»، الناطقة باسم السان سيمونيين و«الحركة»، الصحيفة الجمهورية[1] اجتذبتا غوديسار الشهير إلى مكاتبهما، وعرضت عليه كل منهما عشرة فرنكات لقاء تأمين كل مشترك جديد لها، إن وصل عدد المشتركين بواسطته إلى الألف، وخمسة فرنكات إن لم يتعد هذا العدد الخمسمئة. ولما كان اختصاص «الصحيفة السياسيّة» لا يضرُّ باختصاص «التأمين على رؤوس المال»، فقد تمّ الاتفاق. غير أن غوديسار طالب بتعويض خمسمئة فرنك لقاء الثمانية أيام التي سيدرس فيها مذهب سان سيمون، متعلّلا بالجهود الكبيرة الضرورية للذاكرة

---

(١) الكرة LE GLOBE كانت صحيفة «العقديين DOCTRINAIRES» حتى ١٨٣٠ وانتقلت إلى السان -سيمونين وفي كانون ثاني ١٨٣١. والحركة LE MOUVEMENT التي أنشئت في ذات السنة. صرّحت عن نفسها بأنها «صحيفة سياسية للحاجات الجديدة» وكانت الناطقة شبه الرسمية باسم الملكيين الدستوريين في مركز اليسار إذ أن الجمهوريين في تلك الآونة لم يكونوا يعلنون عن أنفسهم. وقد بدأت ملكية تموز بتسليم السلطة لحزب «الحركة» ممثلاً بلافيت. وفي مقابل «الحركة» كانت «المقاومة» التي غدا أحد رؤسائها كازيمير بريه رئيساً لمجلس الوزراء في آذار ١٨٣١.

والذكاء لتمحيص هذا الصنف بعمق، وإمكان البرهنة على جودته بشكل ملائم «بحيث لانخدع أنفسنا». لكنه لم يطلب شيئاً من الجمهوريين. فهو أولاً يميل إلى المبادئ الجمهورية، فهي الوحيدة وفقاً للفلسفة الغوديسارية التي تستطيع توطيد عدالة معقولة. كما أن غوديسار تورّط سابقاً في مؤامرات «الكاربوناري» الفرنسيين؛ واعتقل ثم أخلي سبيله لنقص الأدلة. أخيراً فإنه جعل صرّافي الصحيفة يلاحظون بأنّه بدأ منذ شهر تموز ينّمي شاربيه، ولم يعد ينقصه إلا كاسكيت ومهمازان طويلان ليمثّل الجمهورية. وهكذا أخذ يتردّد منذ أسبوع كل صباح على مكاتب صحيفة «الكرة» ليدرس السان سيمونية، ويهرع في المساء إلى مكاتب التأمين ليتدرّب على خفايا اللغة المالية. وسمحت إمكاناته وذاكرته الرائعة في أن يبدأ جولة عمله في ١٥ نيسان[١]، وهو الموعد الذي يبدأ به عادة كل سنة حملته الأولى. وفي هذه السنة فإن بيتين من كبار البيوت التجارية ذعرا من تدنّي نشاط مشاريعهما، فأغريا، على ما يقال، غوديسار الطموح، وأقنعاه، بالترويج لبضائعهما، وأبدى ملك الوكلاء الجوّابين كل تسامح تجاه أصدقائه القدامى، ورضي باستمرار تمثيله لهما لقاء مكافأة ضخمة حددت له.

إن جميع الرجال الكبار الحقيقيين يحبون أن يستبد بهم كائن ضعيف، وغوديسار كان من هؤلاء، والكائن المستبد به بائعة أزهار جميلة اسمها جيني صحبها إلى مسرح الجمناز[٢] قبل سفره حيث قضيا السهرة في مقصورة من مقاصير الدرجة الأولى.

قال لها وهما يستقلان العربة في الساعة الحادية عشرة والفتاة تختال بزينتها في طريق عودتهما: «اسمعي يا صغيرتي جيني، عند عودتي سأؤثث لك غرفتك بكلّ عناية.

---

(١) ١٥ نيسان ١٨٣١ دون شكّ وكانت «الكرة LE GLOBE» قد غدت سان سيمونية منذ ثلاثة أشهر ودخلت «الحركة» في المعارضة بعد استلام كازيمير بيرية رئاسة مجلس الوزراء.

(٢) يتلاءم اختيار هذا المسرح مع ذوق الوكيل التجاري الجوّاب وبائعة الأزهار إذ كانت تمثل فيه خاصة المسرحيات القصيرة الفكاهية «فودفيل».

twitter @baghdad_library

وهكذا لن تجد ماتيلد الطويلة التي تضجرك بمقارناتها، وبالحديث عن شالاتها الحقيقية المحمولة من الهند من قبل مراسلي السفارة الروسية؛ وعن فضياتها المذهبة، وأميرها الروسي الذي يبدو لي أنه هذّار مزهوّ بنفسه، أيّ شيء تقوله. سأخصّص لزينة غرفتك كل «الأولاد» الذين أنتجهم في المقاطعات.

هتفت بائعة الأزهار: هيه! كم هو لطيف منك هذا التصريح! كيف تحدثني أيّها الغول بهذا الهدوء عن أولاد ستنجبهم، أو تعتقد أنني أتحمل مثل هذا التصرف؟

- آه! كم أنت غبيّة يا عزيزتي جيني؟!... انها طريقة كلام في تجارتنا.

- إنّها جميلة تجارتكم هذه!.

- لكن اسمعي؛ إن بقيت تتحدثين، فستعتقدين أنّك على حقّ.

- أريد أن أكون دائماً على حقّ! ألست منزعجاً في هذه الساعة؟

- ألاتريدين إذاً أن أتمم كلامي؟ أخذت تحت رعايتي مجلة ستصدر للأولاد[1]، وفي اختصاصنا عندما يقوم وكيل بتأمين عشرة اشتراكات في مدينة لصحيفة الأولاد يقول «أنتجت عشرة أولاد» وذلك كقولي عندما أؤمن عشرة اشتراكات لصحيفة الحركة: «أنتجت عشر حركات»... هل فهمت الآن؟

- هذا أمرّ وأدهى! أنت تغامر في السياسة؟ وسأراك يوماً في سانت پلاجي[2] حيث يجب أن أهرع يومياً إلى هناك لتأمين حوائجك. آه! عندمانحب

(١) في الواقع صدرت مجلة للأولاد في آب ١٨٣٢ من قبل لوتور -مزراي، ووضعت هدفاً لها أن تصل إلى جّماهير الأطفال الواسعة، حتى إلى أبناء الفقراء محدّدة أسعاراً رمزيّة لهم. وكانت الفكرة جريئة وجديدة في ذلك العصر ونجحت نجاحاً كبيراً وكانت هذه المجلة شهرية وتصدر في الخامس والعشرين من كل شهر.

(٢) سانت بلاجي: سجن قديم في فرنسة، كان يقع في شارع بوي -دي لرميت في باريس، هدم في العام ١٨٩٥.

رجلاً، فإننا لانعرف مدى مانرتب على أنفسنا من أعباء. أقسم بشرفي أنّه يجب علينا تركّكم تتحملون مسؤوليات عملكم أيّها الرجال! هيّا، ستسافر غداً؛ ومن الحماقة أن نغرق في الأفكار السوداء وقفت العربة أمام منزل جميل بني حديثاً في شارع آرتوا، وصعد غوديسار وجيني إلى الطابق الرابع، حيث تقطن الآنسة جيني كوران التي تعتبر سراً متزوّجة بغوديسار؛ وهي شائعة لم ينفها الوكيل التجاري الجوّاب. وكانت جيني كوران، في ممارستها لاستبدادها تلزم غوديسار الشهير بالقيام بالعديد من الحاجيات، مهدّدة إياه بالتخلّي عنه سريعاً أن أخلّ بأيّ منها. وهكذا وجب على غوديسار أن يكتب إليها من كل مدينة يتوقّف فيها مقدّماً تقريراً عن جميع حركاته.

قالت وهي تلقي بشالها جانباً وتجلس قريباً من النار المتأججة: وكم «ولد» يلزمك لتأثيث غرفتي؟

- سيكون لدي خمسة فلوس عن كل اشتراك.

- جميل! وتزعم أنك بفلوسك الخمسة ستجعلني غنيّة! إلا إذا كنت كاليهودي التائه، وكانت جيوبك مخاطة جيّداً.

- ولكن يا جيني، سيكون لي «آلاف الأولاد» فكّري أن ليس للأولاد حتى الآن أيّة مجلة. والواقع إنني أحمق تماماً في محاولتي أن أشرح لك سياسة المشاريع؛ فإنّك لاتفهمين شيئاً في هذه الأمور.

- وبعد، مهلاً، مهلاً يا غوديسار. إن كنت تراني بمثل هذا الغباء، فلماذا تحبني؟

- لأنّك غبيّة... رائعة! اسمعي يا جيني. أترين، إن تعهدت اشتراكات صحيفتي «الكرة» و«الحركة» وشركات الضمان، وأدوات الزينة الباريسية، فإنني قادر على أن أحصل في كل جولة أقوم بها على مبلغ يتراوح بين عشرين وثلاثين

twitter @baghdad_library

ألف فرنك، بدلا من أن أقنع فقط بثمانية إلى عشرة آلاف فرنك سنوياً، وأنا أكدّ مدوّراً حدبتي مثل هذا المسكين مايو[1].

- أرحني يا غوديسار، وهات مباشرة وبسرعة كل ما عندك، دون أن تجرّني إليه جراً.

قال الوكيل الجواب وهو يتأمّل ظهر بائعة الأزهار الناعم: عندئذ، سأغدو مساهماً في الصحف، مثل فينو أحد أصدقائي، ابن أحد صانعي القبّعات، صاحب دخل ثلاثين ألف فرنك الآن سنوياً، والذي سيسمى قريباً عيناً من أعيان فرنسة! وعندما نفكّر أن بوبينو الصغير... آه! يا الهي، نسيت أن أذكر أن السيد بوبينو سمّي البارحة وزيراً للتجارة... لماذا لايكون لي طموحي؟ هيه! هيه! يمكنني جيّداً أن أمسك بناصية «الهذر» على منصّة وأغدو وزيراً، ورأساً من الرؤوس! هيا اسمعيني:

ووقف خطيباً خلف أريكة وهتف: أيّها السادة ليست الصحافة أداةً، ولاتجارة؛ وهي من وجهة النظر السياسية مؤسّسة. والحال إننا ملتزمون هنا بشدّة في أن نرى الأشياء سياسياً. إذاً... (وتوقف ليلتقط أنفاسه...)

إذاً، علينا أن نرى إن كانت ضارّة أو نافعة، تستحق التشجيع أو القمع، أن تكون مقيّدة أو حرّة: إنّها قضايا خطيرة! ولا أعتقد أنني أفرط في أوقات المجلس الثمينة دائماً بالتطرق إلى هذه المادة وبلفت أنظاركم إلى الشروط، فنحن نسير على حافة الهاوية. والقوانين، بالتأكيد، ليست ممحّصة كما يجب[2]...»

قال وهو ينظر إلى جيني: هيه؟ إن جميع الخطباء يسيرون بفرنسة على حافّة هوّة. إنّهم يصرّحون بذلك أو يتحدثون عن عربة الدولة، والعواصف والآفاق السياسية، ألست على علم بجميع الألوان؟ إنني حاذق في كل تجارة، هل تعلمين

(١) مايو MAYEUX ابتكار الرسّام الكاريكاتوري ترافييس، نموذج البورجوازي الحانق وهو كغوديسار محبّ للفكاهة، عدا عن إصابته بالحدبة.

(٢) هذا التقليد على نسق هنري مونيه (١٨٠٥ -١٨٧٧) الكاتب والكاريكاتوري الفرنسي ذي الصلة ببلزاك.

لماذا؟ لأنني ولدت مغلّفاً بمشيمتي، وقد حفظت أمي هذه المشيمة، وسأمنحك إياها، وسأغدو إذاً في السلطة عما قريب!

- أنت...

- لماذا لا أغدو البارون غوديسار، وأحد أعيان فرنسة[1]؟ ألم يُسمَ السيد بوبينو مرتين نائباً في الدائرة الرابعة، وهو يتعشى مع لويس فيليب! ويقال أن فينو سيغدو مستشار دولة! آه! لو أرسل سفيراً إلى لندن، فأنا من يقول إنني سأعجز الانكليز عن الكلام[2]؛ ما من أحد استطاع خداع غوديسار، غوديسار الشهير. نعم ما من أحد تغلّب عليّ، ولن يتغلب علي أحد، في أي مجال كان، سياسيا أو غير سياسي، هنا أو في أيّ مكان آخر. إنّما يجب أن أنصرف الآن إلى جَمع رؤوس الأموال، إلى أعمال «الكرة» و«الحركة» و«الأولاد» وأدوات الزينة الباريسية.

- سيقبض عليك مع صحفك، أتراهن أنك لن تصل إلى بواتيه إلاّ وسيُطَبق عليك؟

- لنراهن يا جميلتي.

- على شال!.

- هيا! إن خسرت الشال، سأعود إلى أدوات الزينة الباريسية وإلى بيع القبعات. لكن أن يغلب غوديسار، هذا لن يحدث أبداً، أبداً!».

وانتصب الجوّاب الشهير أمام جيني ونظر إليها باعتزاز، وهو يضع يده في جيب صداره؛ ورأسه شامخ في التفاتة نابوليونية.

قالت: «أوه! كم أنت طريف! ماذا أكلت هذا المساء؟»

---

(١) كان غوديسار يحلم، لكن انطلاقاً من واقع. فعضوية مجلس الأعيان غدت تمنح للبورجوازيين منذ سنوات مُلْك لويس فيليب الأولى، وبعد إلغاء وراثته في العام ١٨٣١.

(٢) يتشبّه غوديسار بالليبراليين الكارهين للانكليز.

twitter @baghdad_library

كان غوديسار رجلاً في الثامنة والثلاثين[1] من العمر، ذا قامة متوسطة، ضخماً وبديناً كرجل اعتاد التنقل دائماً في عربة، ذا وجه مستدير، كيقطينة ملوّنة، منتظمٍ يماثل هذه الوجوه الكلاسيكية التي تبنّاها النحّاتون في جميع البلدان من أجل تماثيل الخصب، والقانون، والقوة والتجارة، الخ. . . ؛ وكان كرشه البارز يأخذ شكل إجّاصة فوق ساقين قصيرتين، لكنه كان نشيطاً، سريع الحركة. وقد أسرع فاحتضن جيني وهي نصف عارية، وحملها إلى السرير قائلاً: «اصمتي أيتها المرأة الطليقة[2]. ألا تعلمين من هي المرأة الطليقة سترشدك مبادئ السان سيمونية، والتضاد، والفوريرية، والنقدية، والاستثمار المتحمس، وبعد إنّها. . . أخيراً، إنّها عشرة فرنكات عن كل اشتراك صحيفة، يا سيّدة غوديسار.

- أقسم بشرفي إنّك غدوت مجنوناً يا غوديسار.

قال وهو يطوّح بقبعته على ديوان بائعة الزهور: ازداد بك جنونا على الدوام»

في صباح اليوم التالي، وبعد تناول إفطار شهي مع جيني كوران، انطلق غوديسار على الحصان لزيارة مراكز نواحي المنطقة التي أوصته مختلف المؤسسات التي خصّص مواهبه لإنجاحها، بزيارتها. وبعد أن قضى خمسة وأربعين يوماً يتجول في المناطق الواقعة بين باريس وبلوا، وبعد إقامة أسبوعين في هذه المدينة الأخيرة يجري مراسلاته ويزور قرى المنطقة، وعشية سفره إلى تور كتب إلى الآنسة جيني كوران الرسالة التالية، التي ما من حكاية تماثلها في الدقة والروعة، عدا عما تعبّر عنه من شرعيّة الروابط الخاصة القائمة بين هذين الشخصين.

---

(١) أعطى بلزاك لغوديسار أولاً عمر الثالثة والثلاثين وهو ذات عمره في ذلك الوقت تقريباً (ولد بلزاك في ٢٠ أيار ١٧٩٩).

(٢) السخرية من لغة السان سيمونيين تدلّ بطرافة على الموقف المرح. وعبارة «اصمتي. . .» تشير إلى أن هناك احتجاجاً غير معبّر عنه من قبل بائعة الأزهار الجميلة، المعاملة بشيء من الفظاظة. هذا المشهد بدا بصورة خاصة مبتذلاً للسيدة الرقيقة زولما كارو التي صرحت بأنها صُدمت بقصة «**غوديسار الشهير**».

رسالة غوديسار إلى جيني كوران

عزيزتي جيني.

أعتقد أنك ستخسرين رهانك، فغوديسار على مثال نابوليون، له حظّه الطيب. ولن يعاني من واترلو، فقد نجحتُ في كل مكان ضمن الشروط المحدّدة. فالتأمين على رؤوس الأموال ناجح جداً. وقد أمنت ما بين باريس وبلوا على مايقارب من مليونين، ولكن ما أن أذهب بعيداً باتجاه وسط فرنسة، حتى تغدو الرؤوس أكثر عناداً وتغدو الملايين أكثرندرة. وأدوات الزينة الباريسية تتابع طريقها بنجاح، إنّها كالخاتم في الإصبع؛ ووفقاً لطريقتي السابقة فإنني أسيطر جيداً على هؤلاء السذّج أصحاب الحوانيت؛ وقد وزّعت في أورليان مئة واثنين وستين شالاً من كشمير ترِنْو[1]، وأقسم أنني لاأعرف ماذا سيفعلون بها، إلا إن كانوا سيضعونها على ظهور أغنامهم مجدّداً.

أما الصحف، يا للشيطان!، فهذا موضوع آخر. ليتبارك اسم الله! كم يحتاج هؤلاء الخواصّ إلى التلقين قبل أن يتمكنوا من الإنطلاق بنغم جديد! لم أستطع تأمين أكثر من اثنين وستين مشتركاً «للحركة»، وهذا على كل الطرقات التي سلكتها، وهي أقل بمئة من شالات ترِنْو الموزّعة في مدينةواحدة. ما من أحد يرغب بالاشتراك في صحيفة هؤلاء الجمهوريين المهرّجين: نتحدّث معهم، فيحادثوننا، ويقاسموننا الآراء وبضرورة زعزعة ما هو قائم. ولكن هل تعتقدين أن هذا الانسان يشترك بصحيفة؟ آه! نعم، هذا لايهمّك! ما أن يكون لدى أحدهم ثلاثة أقدام من الأرض يمكن أن يستنبت فيها دزينة ملفوف. أو شجراً يمكن أن يصنع من خشبه نكّاشة أسنان، حتى يتحدّث رجلُنا عن تثبيت الملكيات، والضرائب، والعائدات، والإصلاحات، والعديد من الحماقات. وأصرف وقتي إلى أن يجفّ حلقي في

---

(١) قام الصناعي ترنو (١٧٦٥ -١٨٣٣) بأقلمة ماعزِ التيبت في فرنسة، وتصنيع شالات من شعرها مماثلة لشالات كشمير المستوردة أو المقدّمة هدايا من قبل «الأمراء الروس» وهي بالطبع أقل كلفة وفي متناول أصحاب الدخل المحدود.

twitter @baghdad_library

دروس الوطنيّة، دون طائل؛ فصحيفة «الحركة» هشّة، وهذا ما كتبت عنه لهؤلاء السادة. وهذا ما يؤلمني، خشية على المبادئ التي أدين بها. أما «الكرة» فمصدر كرهها شيء آخر. فعندما نحدّث الناس عن المبادئ الجديدة التي نعتقد أنهم مهيّؤون للانخداع[1] بها، حتى يبدو لنا وكأننا نحدّثهم عن حرق بيوتهم. كم تفاصحت في القول: إن هذا هو المستقبل، والمصلحة طبعاً؛ والإستثمار الذي لايضيع فيه شيء، وأن مضت مدة طويلة على استثمار الانسان للإنسان، والنظر للمرأة كأمَةٍ؛ فيجب الوصول إلى نصرة الأفكار الكبيرة المقدّرة، والحصول على تنسيق أكثر عقلانية للوضع الاجتماعي. أخيراً كلّما يتردّد في عباراتي... آه! الواقع أنني عندما أتطرق إلى هذه المواضيع، فإن أبناء المقاطعات يغلقون خزائنهم، كأنني أريد أن أسلبهم شيئاً ما، ويطلبون مني الانصراف. هل هم أغبياء! «الكرة» غائرة. قلت لهم: «إنكم تستبقون الأمور كثيراً، تسيرون بسرعة إلى الأمام، هذا حسن، لكننا نريد النتائج؛ والمقاطعات تحبُّ النتائج». غير أنني لم أتمكن من تأمين أكثر من مئة اشتراك للكرة؛ ممّا يعتبر معجزة نسبة إلى تحجر أدمغة هؤلاء الريفيين؛ هذا بعد أن وعدتهم بكثير من الأشياء الجميلة، وأقسم بأنني لا أعلم كيف ستتمكن الكريّات، والكرويون، والمتكورون من تحقيقها. ولكن بما أنهم أنبؤوني بأنهم سينظّمون العالم بشكل أفضل بكثير، فأنا أتجاوزهم وأتنبأ بنسبة عشرة فرنكات لكل اشتراك. اعتقد مزارع أن الأمر يتعلق بالأراضي بسبب الاسم، لكنني أغرقته في صفحات «الكرة». ولاشكّ أنّه ابتلع الصنارة، فهو ذو جبهة محدّبة، وجميع أصحاب الجباه المحدّبة إيديولوجيون[2]. آه! اسألني عن صحيفة «الأطفال» أنتجت ألفي «طفل» بين باريس وبلوا. إنّها عملية صغيرة ناجحة! لا أحتاج فيها إلى كلام كثير. يكفي إظهار القسيمة الصغيرة للأم خفيةً عن الولد حتى يرغب هذا برؤيتها، وطبيعي أن أريه إياها، فيجذب ثوب أمّه إلى أن يحصل على صحيفته، مثلُه مثلُ أبيه. وثوب

---

(١) **المهيئون للإنخداع**: في قصة «الفتاة العانس» يرفض بوسكيه الانتماء إلى هؤلاء المهيئين عندما يرفض خدعة سوزان التي جرّبت أن توهمه بأنهاحامل منه.

(٢) يعبّر غوديسار عن اعتقاده بفراسة لافاتر التي تعتبر بعض الملامح معبرة عن الطبائع.

الأم بعشرين فرنكاً، وهي لاتريد أن يشقّه طفلها لقاء صحيفة باشتراك ستة فرنكات، ويتم الاشتراك بسرعة فهذا أوفر. إنّه لشيء رائع ينمُّ عن حاجة حقيقية، هي بين الصورة والحلوى الحاجتين الخالدتين للطفولة. إنّهم يقرؤون الآن، هؤلاء الأطفال المهووسون!

حدثت لي مشادّة هنا، على مائدة النزلاء، بخصوص الصحف وآرائي. كنت أتناول طعامي بهدوء إلى جانب سيّد يعتمر قبعة رمادية، وهو يقرأ صحيفة «المناقشات»[1] فقلت في نفسي: «يجب أن أجرب فصاحتي على المنبر. هوّذا رجل نصير للملكية، سأجرّب إفحامه. ففي هذا الإنتصار تأكيد وثيق على مواهبي الوزارية» وشرعت في المهمة مبتدئاً بتمجيد صحيفته. واستماله حديثي، ومن موضوع إلى آخر بدأت أسيطر على جاري مطلقاً عباراتي بمزيد من السرعة، ومحاكماتي بجميع النغمات، واستمع كل فرد لي، ورأيت رجلاً تبدو في ملامح شاربيه أيام فتنة تموز، وهو مستعد للإقتناع بصحيفة «الحركة» لكنني لا أعلم كيف أفلتت مني، بالمناسبة، كلمة مغفل، باه! هوذا صاحب القبعة الملكية، القبعة الرماديّة، وهي قبعة سيّئة بعد كل حساب، من صنع ليون بخيوط نصفها من الحرير والنصف الآخر من القطن يغتاظ ويتكدّر، أما أنا فقد استعدت برودة طبعي، كما تعرفين، وقلت له: «آه! يا سيدي، إنّك رجل غريب الأطوار، إن لم تكن مسروراً، فإنني تحت تصرفك، وقد قاتلت في تموز.

قال الرجل: بالرغم من أنني ربّ عائلة، فإنني مستعدٌّ لـ. . .

قاطعته سريعاً: أنت ربّ عائلة يا سيدي العزيز، وهل لك أولاد؟

- نعم يا سيدي.

---

(١) كتب بلزاك في رواية بيريت عن المحامي فينة: «كان يعتمر قبعة الليبراليين الرمادية» والتفصيل هنا ينطبق على غوديسار الشهير» عندما يذكر أن الصحيفة هي «الدستوريُّ» LE CONSTITUTIONNEL وليست المناقشات LES DÉBATS.

twitter @baghdad_library

- في عمر الحادية عشر؟

- تقريباً.

- حسن يا سيّدي، إن صحيفة الأولاد ستصدر قريباً: باشتراك ستة فرنكات في العام؛ وعدد واحد كل شهر، بعمودين، وهي منشأة من قبل مشاهير الأدباء، صحيفة استوفت جميع الشروط، ورق صقيل، صور من إعداد أحسن رساميا، لوحات حقيقية عن الهند بألوان لا تتحول». وأطلقت سهمي الأخير بالقول. هوذا أبٌ أُسقط في يده. وانتهت المشادة باشتراك في مجلة الأولاد.

قال هذا النطّاط الصغير دي لامار لهذا الأبله دي بولو[1] وهو يقص عليه الحادثة عند تناول القهوة: «ما من أحد غير غوديسار يمكنه أن يقوم بمثل هذه الأدوار» سأسافر غداً إلى آمبواز، حيث سأنهي عملي فيها خلال يومين، وأنا سأكتب إليك من تور، حيث سأحاول التنافس مع الشركات الأكثر تقلّباً بحيث لايُعرَف لها لون لا من ناحية الفهم ولا من ناحية المضاربة. لكن قسماً بذمة غوديسار سأفكر بهم، وسيكونون من المخدوعين! من المخدوعين!.

وداعاً يا صغيرتي، أحبيني دائماً، وكوني وفيّة لي. فحتى الوفاء هو من مزايا المرأة الطليقة. من يقبلك على العينين؟.

«فليكس المخلص لك إلى الأبد».

بعد خمس أيام كان غوديسار ينطلق ذات صباح من فندق «التدرُّج»[2] حيث نزل في تور ليذهب إلى فوڤري وهي منطقة غنية ومكتظة بالسكان بدا له أن بإمكانه

---

(١) في المخطوطة ورد اسم روكنار وهو يستدعي اسم الصحفي روكبلان رفيق بلزاك في حوالي العام ١٨٣٠ واسما لامار وبولو المضافان في الطبعة الأصلية وطبعة فورن يدفعان إلى التفكير بلامارتين وبولوز، لكننا لانتوقّع مثل هذا التلميح يصدر عن بلزاك تجاه لامارتين خاصة باستعمال كلمة «النطّاط» أو الحرقص PETIT CRIQUET وهو الحشرة القفّازة المشابهة للجراد بالنسبة للأول. كما أنه لم يكن في العام ١٨٤٣ على وفاق مع بولوز مدير مجلة العالمين بحيث لاتصدر عنه مثل هذه الممازحة.

(٢) لهذا الفندق وجود أدبي في نتاج بلزاك، إذ ذكره في رواية مطلع شبابه «**وان كلور**»

استغلال الرأي العام فيها. كان يمتطي جواده، ويجري على طول الهضبة، دون أن يفكر بعباراته كعدم تفكير ممثل بدور لعبه مئة مرّة. كان غوديسار منطلقاً، يتأمّل بإعجاب المناظر الطبيعية، ويسير بلامبالاة، دون أن يشكّ بأنّ براعته التجاريّة ستنتهي في وديان ڤوڤري البهيجة.

هنا يجب أن نتطرّق إلى بعض المعلومات المتعلقة بالرأي العام في تورين؛ هذا الرأي القصّاص، المكّار، الساخر، الهجّاء، حيث كل صفحة من أخباره موسومة بنتاج رابله، المعبّر بأمانة عن الروح التورينية، تلك الروح النبيهة، المهذّبة، كما يتوقّع في منطقة كانت مقراً لبلاط ملوك فرنسة مدة طويلة. هي روح نشطة، شاعريّة، محبة للفنون، مقبلة على الملذّات؛ لكن تحضيراتها الأولى تزول سريعاً. فرخاوة الهواء، واعتدال المناخ، وبعض تسهيلات الموارد، وسذاجة الطبائع تخنق سريعاً الشعور بالفنون، وتقبض القلب الأكثر انشراحاً، وتقرض الإرادة الأكثر صلابة. لكن بانتقال التوريني خارج منطقته يستعيد مزاياه وتزداد نمواً وتنتج أشياء كبيرة، كما ثبت البرهان على ذلك في مستويات الفعاليات المتعدّدة والمتنوعة: رابله[1] وسمبلانسي[2]، وبلانتي الطبّاع[3]، ودكارت[4]، وبوسيكو[5] نابوليون زمانه، وبينغرية الذي رسم نوافذ معظم الكاتدرائيات ثم ڤرڤيل وكوريه. وهكذا فالتوريني المتميّز خارج منطقته، يبقى فيها كالهندي القابع على حصيرة، والتركي المتربّع على ديوانه، يستخدم ذهنه في السخرية من جاره، والبحث عن المتعة لنفسه والوصول سعيداً إلى نهاية أيامه. وتورين هي الدير الحقيقي لتيليم الذي تباهى به

(١) رابله (١٤٩٤ -١٥٥٣) راهب وطبيب وأديب، ولد في شينون المعتبرة من المنطقة التورينية، اشتهر بأدبه الساخر، وكان بلزاك من كبار المعجبين به، وورد ذكره مرات عديدة في الملهاة الانسانية.

(٢) سمبلانسي (١٤٥٧ -١٥٢٧): مالي فرنسي ولد في تور، كان صرافاً لدى لويس الثاني عشر وفرانسوا الأول، اتهم بتبديد أموال الدولة وحوكم وشنق.

(٣) بلانتين: طبّاع فرنسي (١٥٢٠ -١٥٨٩) ولد في سان -افرتين قرب تور- طبع الكتاب المقدس.

(٤) دكارت: (١٥٩٦ -١٦٥٠): عالم وفيلسوف، ولد في لاهاي (تورين)، وقد سميت البلدة فيما بعد باسمه.

(٥) بوسيكو (١٣٦٦ -١٤٢١) قائد عسكري دافع عن القسطنطينية ضد الأتراك.

twitter @baghdad_library

رابله غارغانتوا، ويوجد فيها كما في نتاج الأديب متديّنات متسامحات، أما المآكل الشهية التي أشاد رابله بموائدها فلها المقام العالي، كما أن للتنبلة شهرتها وقد عبر عنها ببراعة بهذه الطّرفة الشعبية: «توريني، أترغب بتناول الحساء؟ -نعم. هات إذاً صحنك. -لم أعد جائعاً[1]». أهي غبطة الكروم، أم جمال المناظر الطبيعية الأكثر بهاء في فرنسة؛ أم وداعة البلاد التي لم يدخلها يوماً جيش غريب، هي سبب تراخي هذه الطبائع الناعمة السهلة؟ ما من جواب على هذه الأسئلة. اذهب إلى هذه المقاطعة الشبيهة بتركية في فرنسة، وستبقى كسولاً، بطّالاً، سعيداً؛ حتى وإن كنت طموحاً كنابوليون، أو شاعراً كبايرون، فإن قوة خارقة لاتقهر تضطرك إلى أن تحتفظ بأشعارك لنفسك، وتحوّل مشاريعك الطموح إلى أحلام.

كان على غوديسار الشهير أن يلتقي في فوڤري بأحد هؤلاء المزّاحين المحليين الذين لاتبدو سخرياتهم عدوانية إلا باتقان فنّها بالذات، وكان عليه أن يدخل معه في صراع عنيف فأهل تورين، عن خطأ أو صواب، يحبّون أن يرثوا من ذويهم، لذلك فإنهم ينظرون بصورة خاصة إلى مذهب سان سيمون بكراهية وازدراء[2] كما اشتهر في تورين أي بمقت وتعالٍ في الفكاهة جديرين بمنطقة الحكايات الطريفة، والمقالب الملعوبة على الجيران، بذهنيّة تسبق يوماً بعد يوم ما أطلق عليه اللورد بايرون اسم النفاق الانكليزي المحتشم.

بعد أن نزل غوديسار، لتعاسته، في فندق «الشمس الذهبيّة»، الذي يديره ميتوفله، القذّاف السابق في الحرس الامبراطوري الذي تزوج كرّامة غنية؛ وبعد أن عهد إليه بحصانه بشكل متباه ذهب لمقابلة داهية فوڤري، فكه الناحية، المزاح المحافظ على مكانه في بهجة تناسب دوره وطبيعته الأقرب إلى فيغارو[3] ريفي؛

---

(١) ما تزال هذه الطرفة سائدة حتى الآن في الفولكلور التوريني.

(٢) من أصداء الحملات العنيفة الموجّهة ضد السان سيمونية. وفي مواجهة هذه الهجمات يكتشف بلزاك في نفسه ميلاً قديماً للسان سيمونية.

(٣) هو الشخصية الشهيرة بالحيلة والمقالب الذكيّة في مسرحيات بومارشه: حلاق اشبيلية، وزواج فيغارو الخ...

الصباغ القديم والمالك الحالي لدخل سبعة إلى ثمانية آلاف فرنك سنوياً، ولبيت جميل قائم على التلة، وزوجة مليئة الجسم نضرة الشباب، وصحة مترعة عنفواناً. فهو منذ عشر سنوات، لا همّ له إلا العناية بحديقته، والاهتمام بزوجته، والإعداد لتزويج ابنته، وفي سهرته كل مساء يتعرّف على الإغتيابات المتعلقة بأحكامه، وعرقلة الانتخابات، والمنازعة مع كبار الملاّكين، والإعداد لحفلات عشاء شهيّة؛ والجري فوق التلّة الجبلية، والذهاب لرؤية ما يحدث في تور، وإغاظة الكاهن؛ وأخيراً انتظار بيع قطعة أرض متداخلة مع كرومه. باختصار هو يمارس الحياة التورينية، حياة المدينة الصغيرة في الريف. أضف إلى أنه الوجيه الأكبر شأناً بين البورجوازيين، زعيم تلك الفئة من صغار الملاكين الحاسدة، الغيور، المردّدة ضد الارستقراطية كلّ الاغتيابات، والناشرة عنها بغبطة كلّ النمائم. تحطُّ كل شيء إلى مستواها؛ وتعادي كل رفعة وتفوّق، بل وتزدريهما بهدوء الجهالة العجيب.

هذه الشخصية الصغيرة الكبيرة في الناحية يحمل اسم ڤرنيه، وكان على وشك الانتهاء من طعام إفطاره، عندما دخل غوديسار إلى القاعة التي تطلّ نوافذها على اللوار والشير، إحدى قاعات الطعام الأكثر بهجة في المنطقة.

قال الوكيل التجاري الجوّاب وهو يحني عموده الفقري بمزيد من الرشاقة والمرونة: «هل لي شرف التحدّث مع السيد ڤرنيه...

أجاب الصبّاغ الماكر مقاطعاً، وهو يلقي نظرة متفحصة على الرجل، عرف من خلالها بسرعة صنف محدثه: نعم ياسيدي.

تابع غوديسار: جئت يا سيدي استضيء بنبراسكم لتوجيهي في هذه المنطقة التي ذكر لي ميتوفله أنكم أصحاب النفوذ الأكبر فيها. إنني يا سيدي مرسل إلى المقاطعات من قبل مؤسّسة ذات أهمية كبيرة تتألف من مصرفيين يريدون...

قاطعه ڤرنية ضاحكا، وهو المعتاد على مقابلة الوكلاء الجوّابين والتعامل معهم: يريدون استغلالنا...

twitter @baghdad_library

رد غوديسار الشهير بتعال: بشكل ايجابي، ياسيدي، إذ يجب أن تعلم وأنت السريع الفطنة بتعذر الاستغلال إن لم تتوفر المصلحة المشتركة وتقاسم المنافع. أرجو إذاً ألا تخلط بيني وبين الوكلاء الجوّابين العاديين الذينَ يبنون نجاحهم على الحيلة والإلحاف أنا لست الآن وكيلاً جواباً، وقد كنته، ياسيدي، وأنا أعتز بنجاحي فيه. لكنني اليوم مكلّف بمهمة ذات شأن كبير، يجب على أصحاب العقول السامية أن تعتبرني من خلالها رجلاً يضحي من أجل تنوير بلاده؛ فأرجو أن تستمع لي يا سيدي وستجد أنك ستربح كثيراً خلال نصف ساعة من محادثة أتشرف بطلب موافقتك لي عليها. فأشهر مصرفيي باريس لم يشاركوا صورياً في هذا المشروع، كما في بعض هذه المضاربات المخجلة التي أسميها «مصائد فئران». كلا، كلا، ليس الأمر هكذا، وأنا لاأعمل في الدعاية لمثل هذه الخدع الفظّة. كلا، يا سيدي، فأحسن البيوتات المالية الباريسية داخلة في المشروع كمنتفعة وكفيلة. . . »

هنا أخذ غوديسار يبسط أشرط عباراته، والسيد ڤرنيه يتيح له الاستمرار بالاستماع إليه باهتمام ظاهر خدّاع، لكن عند سماع كلمة «كفيلة»؛ توقّف عن الاستماع إلى فصاحة الجوّاب التجاري، وفكّر أن يدبّر له مقلباً، ليخلّص من هذه الأنواع من الديدان الباريسية بلاداً وصفت بحق أنها بربرية من قبل المضاربين الذين لم يستطيعوا ابتزازها.

في أعلى واد جميل يسمى «الوادي المغناج» بسبب تعاريجه، والمنعطفات التي تصادف بعد كل خطوة، وتبدو أكثر جمالاً كلّما تمّ التقدم فيه سواء أثناء الصعود من المجرى الفَرِح أو الهبوط إليه؛ كان يقيم، في بيت صغير محاط بكرم من الدوالي، رجل شبه مجنون، اسمه مرغريتس، وهو من أصل إيطالي[1]، متزوج ولم يرزق أولاداً، لكن زوجته تعنى به بجرأة تستحق التقدير على وجه العموم. فالسيدة مرغريتس تتعرّض بالتأكيد. للمخاطر، قرب رجل من بعض مظاهر هوسه الرغبة في حمل سكينين عريضيتي النصل يهددها بهما أحياناً. ولكن

(١) يبدو مستغرباً وجود إيطالي في فوڤري، وقد يكون الأمر واقعياً خاصة وأن اسم مرغريتس اسماً متوسطياً مايزال سائداً.

من لايعرف التضحية الرائعة التي يكرّسها أبناء الأقاليم للأشخاص المرضى، ربّما بسبب العار الذي يلحق ببورجوازية، إن تخلّت عن ولدها أو زوجها وأوكلت أمره للرعاية العامة في المشفى؟ كذلك من يجهل نفور أبناء المقاطعات من دفع مبلغ مئة لويسية ذهبية أو ثلاثة آلاف فرنك لقاء الحجر على مجنون في شارنتون أو في أحد المصحات؟ وإن حدّث أحد السيّدة مرغريتس عن الأطباء دوبويسون، أو اسكيرول، أو بلانش[1] أو غيرهم؛ فإنّها تفضّل، ونقمة نبيلة تملكها، أن تحتفظ بثلاثة آلاف فرنكها وبرجلها المعتوه.

وتبدو النزوات غير المفهومة التي يدفع إليها جنون هذا الرجل مرتبطة بخاتمة هذه القصة، ومن الضروري الإشارة إلى أكثرها ظهوراً. فمرغريتس يخرج، ما أن تمطر بغزارة، ليتجوّل في كرومه وهو عاري الرأس. وفي المسكن يطلب دائماً الصحيفة؛ فتقدّم له زوجته أو خادمته صحيفة قديمة لإندر ولوار، ومنذ سبع سنوات لم يلاحظ أبداً أنه يطالع دائماً ذات العدد؛ ولو أن طبيباً راقب حالته للاحظ باهتمام العلاقة بين تجدّد طلب الصحيفة والتغيّرات الجويّة؛ فقد كان الشغل الشاغل لهذا المجنون يقوم على التحقّق من حالة الجو وتأثيرات ذلك على الكروم. وفي الأحوال العادية، عندما تستقبل زوجته بعض الزوّار، وهذا ما يحدث تقريباً كل مساء، إذ يأتي الجيران المشفقون على وضعها للقيام بلعبة بُوسطن[2] لديها، يبقى مرغريتس صامتاً، وهو جالس في إحدى الزوايا دون حركة، ولكن ما أن تدقّ ساعته المودعة في إحدى الخزائن الكبيرة المتطاولة معلنة العاشرة، حتى ينهض بالدقّة المكانيكية لهذه التماثيل المتحركة بفعل نابض في أُطُر الألعاب الألمانية،

---

(١) **دوبويسون**: طبيب مؤلف «المفصّل في العته أو الأمراض العقلية. ١٨١٦» و«بحث في الهوس»

اسكيرول: (١٧٧٢ - ١٨٤٠) طبيب رئيس في سالبتريير، ثم في شارنتون، مؤلف أطروحة بعنوان «أهواء بيّنة كأسباب، وأعراض الجنون العقلي ووسائل الوقاية منه (١٨٠٥)

اسيري بلانش (١٧٩٢ - ١٨٥٢) مؤسّس مصحّة في مونمارتر، حيث عولج الأديب والشاعر جيراردي نرڤال في العام ١٨٤١.

(٢) البوسطن: لعبةورق استمدت اسمها من حصار بوسطن أثناء حرب الاستقلال الامريكية. تتضمن حصاراً وفك حصار.

twitter @baghdad_library

ويتقدّم بهدوء من اللاعبين، ويلقي عليهم نظرة مماثلة تقريباً للنظرة الآلية المتبادلة بين اليونانيين والأتراك المعروضة صورهم على ناصية جادة التامبل في باريس[1]، ويقول لهم: «انصرفوا!» وفي بعض الأوقات يستعيد هذا الرّجل وعيه القديم، ويعطي عند ذاك لامرأته نصائح ممتازة حول بيع خموره. لكنه يغدو آنذاك مزعجاً للغاية، فهو يختلس من الخزائن الحلويات ويلتهمها خفية. وأحيانا عندما يأتي المترددون على المنزل يجيب على أسئلتهم بكل تهذيب ومجاملة، لكنه في الأغلب يردُّ بتشوّش غير مترابط أبداً وهكذا فعندما سألته إحدى السيّدات: «كيف تجد نفسك اليوم، يا سيّد مرغريتس؟» ردّ عليها بالقول: «لقدحلقت ذقني، فهل حلقت ذقنك؟...» وعندما سألته أخرى: «هل أنت أحسن اليوم؟» ردّ «أوروشليم! أوروشليم!» لكنه في أغلب الأحيان ينظر إلى ضيوفه نظرة بلهاء دون أن يتفوّه بكلمة؛ وتقول لهم زوجته عند ذاك: «إنّه اليوم لايسمع شيئاً». وخلال خمس سنوات، حدث في مرتين أو ثلاث مرّات، ودائماً عند الاعتدال الربيعي، أن تملّكه الغضب، وسحب سكينه وصرخ: «هذه البغي[2] تلحق بي العار». وعدا عن ذلك، فإنه يشرب ويأكل، ويتجوّل كرجل في تمام الصحة والعافية. وهكذا انتهى كل فرد إلى عدم إبداء أي انتباه أو احترام له، فكأنه في الوسط الذي وجد فيه قطعة أثاث كبيرة، ولكن مع الزمن انتهى أصحاب العقول الكبيرة إلى التعليق على حركاته الأكثر مخالفة للصواب، لكن واحدة من جميع أموره المستغربة لم يستطع أحد أن يجد لها تفسيراً؛ فهذا المجنون كان يريد دائماً أن يحتفظ بكيس من الطحين في المنزل وبرميلين من النبيذ من محصول كرمه دون أن يسمح بلمسها. ولكن ما أن يحل شهر حزيران حتى يطالب ببيع الكيس والبرميلين ويبدي بهذا الشأن كل ما

---

(١) كانت اليونان جزءاً من السلطنة العثمانية، وجرت بها ثورات عديدة لنيل الاستقلال أهمها ما تمّ في مطلع القرن التاسع عشر وساعدت بها فرنسة وانكلترة وروسية ففرضت معاهدة اندرونيوبل العام ١٨٢٩، وانتهت باعتراف السلطنة باستقلال اليونان في العام ١٨٣٢ لذلك كان من المألوف انتشار صور في جادّات باريس تمثّل معارك بين اليونان والأتراك.

(٢) GARCE كلمة مؤنثة تقابل الكلمة المذكرة GARS، فهي تعني إذا «صبيّة بالغة». وقد استعملها بلزاك بالمعنى الأخير في رواية «لويس لامبر» عندما وجّه لها المديح وفق حديث أهل ڤاندوم: «إنها صبيّة شهيرة» لكن الكلمة أخذت معنى تحقيرياً يعني «المستهترة» أو «البغي».

عرف عن المجانين من اهتمام والحاح، وقد اعتادت مرغريتس بشكل شبه دائم على أن تذكر له أنّها قامت بالبيع وبسعر باهظ مقدمة له النقود التي يخفيها دون أن تتوصل يوماً زوجته أو خادمته حتى بمراقبته إلى معرفة مخبئه.

عشية يوم وصول غوديسار إلى فوڤري لقيت السيّدة مرغريتس عناء كبيراً في خداع زوجها وكأن عقله قد عاد إليه.

قالت للسيدة ڤرنيه: «لا أعلم في الحقيقة كيف سيمرّ عليّ يوم غد. تصوّري أن مرغريتس أراد أن يرى برميليْ نبيذه، وقد أثار غيظي بإلحاحه طيلة النهار. ولحسن الحظ كان لدى جارنا بيير شامبلن برميلان لم يبعهما، وقام بناء على رجائي بدحرجتهما لي حتى قبوي، وما أن رآهما الرجل حتى أراد المتاجرة بهما بنفسه.

ذكرت السيدة فرنيه لزوجها الورطة التي تعانيها السيدة مرغريتس قبل وصول غوديسار، وعند كلام الوكيل الجوّاب عزم ڤرنيه أن يضعه وجهاً لوجه مع المجنون مرغريتس.

قال الصبّاغ القديم لغوديسار الشهير بعد أن أطلق هذا آخر رشّة من فصاحته: «لاأخفي عليك الصعوبات التي ستلاقيها مؤسّستك هنا، فمنطقتنا تتمسّك بشكل كبير بقديمها، منطقة لاتستهويها أيّة فكرة جديدة، فنحن نعيش كما يعيش آباؤنا، نتسلّى بتناول أربع وجبات في اليوم، ونهتم بالعناية بكرومنا، وحسن تعتيق خمورنا؛ وفي كل عملية تجارية نجرب بكل بساطة أن نبيع الأشياء بسعر أعلى من قيمتها، وسنبقى على هذا الوضع بحيث يشق على الشيطان وعلى الله إبعادنا عنه. لكن سأقدّم لك نصيحة طيبة، والنصيحة تعادل عيناً في اليد. لدينا في الناحية مصرفي قديم، لي بصورة خاصة أتمّ الثقة بمعارفه، فإن حصلت على موافقته، فلك موافقتي؛ وإذا كان في اقتراحاتك مزايا حقيقية، وإن اقتنعنا بها وفقاً لصوت السيد مرغريتس المؤيد لها والذي سيجرُّ بالطبع صوتي، فستجد في ڤوڤري عشرين بيتاً غنياً تنفتح أكياسها كلّها لتأخذ بلسمك الشافي».

عند سماع اسم المجنون، رفعت السيّدة ڤرنيه رأسها ونظرت إلى زوجها؛

twitter @baghdad_library

واستأنف هذا حديثه: «وعلى ما أعتقد، فإن زوجتي تزمع تماماً في هذا الوقت على القيام بزيارة مع إحدى جاراتنا للسيدة مرغريتس. فانتظر لحظة فهاتان السيّدتان ستقودانك إلى هناك. وتوجّه الصبّاغ القديم وهو يختلس النظر إلى زوجته قائلاً: «ستذهبين بصحبة السيدة فونتانيو.

ألا تعني إشارة السيّد فرنيه إلى المرأة الأكثر ثرثرة وفصاحة وهذراً ساخراً في المنطقة، أنه يريد من زوجته أن تأخذ معها شهوداً لملاحظة الواقعة التي ستتمُّ بين الوكيل التجاري الجوّاب والمجنون، ليُسلّي بها الناحية خلال شهر؟ ولعب السيد والسيّدة فرنيه دورهما بمزيد من الإتقان بحيث لم تداخل نفس غوديسار أيّة ريبة، ووقع كلياً في الفخّ، وقدّم بكلّ تظارف ذراعه للسيدة فرنيه، وظن أنه كسب خلال الطريق تأييد السيّدتين اللتين أثقل مسامعهما بملاحظات وتوريات لم تدركا منها شيئاً.

كان منزل المصرفي المزعوم يقع على حافة وادي كوكيت، وأطلق عليه اسم لافوي[1]؛ دون أن يبدو فيه شيء مميّز. ففي الطابق الأرضي صالة كبيرة ببطانة خشبية، على جانبيها غرفتا نوم صاحب الدار وزوجته. وقد استخدم الرواق المؤدّي للصالة كغرفة طعام لاتصاله بالمطبخ. وهذا الطابق الأرضي العاري من الأناقة الخارجية المميزة لأبسط بيوت تورين كان متوّجاً بسقائف يُصعَد اليها بسلّم بني خارج المنزل، يستند إلى جبهة الجملون ومغطّى بسقف مائل. وحديقة صغيرة ممتلئة بأزهار الأذريون، والسرنجة والبيلسان تفصل المنزل عن الكروم. وحول الفناء تقوم بعض أبنية ضرورية لاستثمار الكروم. كان مرغريتس في صالونه، يجلس على

(١) أشار السيد بيير جورج كاستكس إلى وجود ملكية تسمى «**لافوي**» مسجلة في السجلات العقارية لفوقري قريباً من وادي كوكيت، ويمكن الوصول إليها عن طريق كروا -ماريوت باتباع طريق ينحرف نحو الشرق وبمتابعة السير شمالاً، يمكن الوصول إلى «لاكايري» وهي ملكية قديمة للسيد دي ساڤاري الذي تزوّجت ابنته السيد جان دي مارغون واستقرت معه في ساشه. وقد سبق لبلزاك أن أقام في «لاكايري» خلال صيف ١٨٢٣، وسرّه أن يكتسب معلومات تتعلق بزراعة الكروم واستثمارها كما يستدل من بعض المعلومات المتنافرة في قصة «**غوديسار الشهير**» ورواية «**أوجيني غرانده**»

أريكة من مخمل أو ترخت الأصفر، ولم ينهض عند رؤيته السيّدتين وغوديسار، فقد كان يفكّر ببيع برميلي نبيذه. هو رجل معروق الجسم أصلع الرأس إلا من شعرات قلائل في نهاية قحفه المتطاول بشكل إجّاصة. عيناه غائرتان، يعلوهما حاجبان كثيفان أسودان ومقوّسان بشدّة. وأنفه أقنى كحدّ سكين، وعظما فكه بارزان، وخداه غائران وقسماته متطاولة بشكل عام، حتى ذقنه تبدو متطاولة ومسطّحة تساهم بإعطاء سمنته مظهراً غريباً، مظهر أستاذ بلاغة عجوز، أو لمّام خُرَق.

قالت السيّدة ڤرنيه: «سيد مرغريتس، هيّا تحرّك! هوذا سيّد أرسله إليك زوجي، ويجب الاستماع إليه بانتباه. اترك حسابات رياضياتك وتحدث معه.

عند سماع هذه الكلمات، نهض المجنون ونظر إلى غوديسار وأشار إليه بالجلوس قائلاً: «لنتحدث أيها السيّد».

ذهبت النسوة الثلاث إلى غرفة السيّدة مرغريتس، وتركن الباب مفتوحاً ليستمعن إلى ما يجري، وليتدخلن إن لزم الأمر. وما كدن يجلسن حتى وصل ڤرنيه بهدوء عن طريق الكروم، حيث دخل دون أدنى ضجة بعد أن فتحت له إحدى النوافذ.

قال غوديسار: «هل كان السيد يعمل في المشاريع...

أجاب مرغريتس مقاطعاً: المشاريع العامة، فقد أخمدت فتنة كالابريا أثناء ملكية مورا[1]»

(١) مورا: أحد مارشالات نابوليون، وزوج أخته كارولين، نُصِّب ملكا على نابولي في العام ١٨٠٨، بعد إخضاعها لفرنسة. لكن من الصعب إيجاد رابطة بين هذا التأكيد الفريد والأصول الإيطالية لمرغريتس. والواقع يبدأ هنا حوار طرشان نسقه بلزاك ببراعة بين الوكيل التجاري الجوّاب الراغب باكتساب زبون، ومجنون يتابع هَوَسه. ويقفز الحوار بين إجابة وأخرى في تتابع التباسات أو حديث متهافت، سبق تحليله بشكل متميّز من قبل الأنسة شوشانا فلمَن في بحث قدّم إلى ندوة ستندال -بلزاك المنعقدة في نانت (بين ٢٧ و٢٩ أيار ١٩٧١) بعنوان «الجنون والكلام عند بلزاك» ونشر في العام ١٩٧٢ في مجلة «الأدب».

twitter @baghdad_library

قال السيد فرنيه هامساً: «عجباً، سبق أن ذهب إلى كالابريا كما يذكر الآن!»

ردّ غوديسار: «أوه! إذاً بإمكاننا أن نتفاهم تماماً.

رد مرغريتس وهو يأخذ وضع رجلٍ يستعد رسّامٌ أن يقوم بإعداد صورةٍ له: إنني مصغ لك.

قال غوديسار وهو يدوّر باستمرار مفتاح ساعته بذهول حتى أنّه لم يتوقف عن إعطائها حركة دورية نظامية أشغلت المجنون ولعلها سبّبت هدوءه: سيدي لو لم تكن رجلاً عظيماً... (وهنا أحنى المجنون رأسه) لاكتفيت بذكر الأرقام المبيّنة مادياً لمزايا المشروع الذي تستحق مزاياه السيكولوجية، أن تعرض أمامكم. اصغ إلي! بين جميع الثروات الاجتماعية، أليس الزمن هو أثمنها؟ ألا يعني الإقتصاد فيه الغنى؟ والواقع هل من شيء يستهلك الزمن في الحياة إلاّ القلق على ما أسميه لقمة العيش؟ تعبير شائع لكنه يطرح بوضوح السؤال؛ فهل يوجد شيء يَقرُضُ الزمن أكثر من نقص الضمان المقدّم إلى أولئك الذين تطلب منهم المال عندما تكون محروماً منه موقتاً، ولكنك غني بالآمال؟.

قال مرغريتس: المال أساس. هذا مفهوم

- حسن يا سيدي، إنني موفد إلى المناطق من قبل شركة من المصرفيين والرأسماليين الذين لاحظوا الخسارة الهائلة التي يتعرّض لها هنا رجال المستقبل في الزمن وبالتالي في الذكاء والفعالية المنتجة. والحال، خطرت لنا فكرة تحويل هذا المستقبل بالذات لهؤلاء الرجال إلى رأس مال، بأن نؤمّلهم بمواهبهم، ونؤمّلهم بالزمن الذي سبق أن ذكرناه، ونضمن قيمته لوارثيهم. ولا يتعلّق الأمر هنا باقتصاد الزمن، وإنما باعطائه قيمة، وبتقديره رقماً، وبالتمثيل مالياً للمنتجات التي تتوقّعون الحصول عليها خلال هذا المدى الفكري بتمثُّل المزايا المعنوية التي وهبتموها، والتي هي، يا سيّدي، قوى حيّة؛ كأحد مساقط المياه، أو كآلة بخارية بقوة ثلاثة، أو عشرة، أو عشرين أو خمسين حصاناً آه! هذا تقدّم؛ هذه حركة نحو تنظيم أفضل للأمور، حركة ناتجة عن فعالية عصرنا التقدّمي بصورة رئيسة كما سأبرهن لك عندما نصل إلى أفكار تنسيق أكثر منطقية للفوائد الاجتماعية، وعندها سأعبر بأمثلة

محسوسة، وأترك المحاكمة التجريدية المطلقة، أو مانطلق عليه نحن اسم رياضيات الأفكار. وبدلا من أن تكون مالكاً حيّاً لمداخيلك، فأنت رسّام، أو موسيقى، أو ممثل، أو شاعر...

قال المجنون وكأنه يحدّد ما يُؤثِرُ أن يكون بين هذه الفنون: إنني رسّام.

- حسن، ليكن ذلك، مادمت قد فهمت جيّداً استعارتي، إنّك رسام، ولك مستقبل باهر، مستقبل واعد بالثراء، لكن سأذهب إلى أبعد من هذا...»

عند سماع هذه الكلمات، نظر المجنون إلى غوديسار بقلق ليرى إن كان يريد الخروج ولم يطمئن إلا بعد أن رآه مستمراً في جلسته وهو يتابع حديث.

استأنف غوديسار: أنت حتى لاشيء، ولكنك تحسّ بشيء في داخلك...

ردّ المجنون: أحسُّ.

وتابع غوديسار: تقول في نفسك: سأغدو وزيراً. وبعد، أنت أيّها الرسّام أو الفنّان، أو رجل الفكر والأدب؛ أنت يا وزير المستقبل، تقدّر آمالك، تثمّنها، تحدّد لها سعراً افترض أنّه مئة ألف إكو.

سأل المجنون: هل ستعطيني إذاً مئة ألف إكو؟

- نعم يا سيدي، سترى. إمّا أن يقبضها ورثتك حتماً عند وفاتك، لأن المؤسسة تتعهّد بدفعها لهم. أو أنك ستقبضها بأعمالك الفنيّة، وبمضارباتك المحظوظة وأنت على قيد الحياة، وإن كنت قد أخطأت فيمكنك أن تعيد حساباتك مجدّداً، ولكن ما أن تحدّد رقم رأسمالك المعنوي، كما تشرّفت بالتصريح لك بذلك، إذ أنّه رأسمال معنوي، احفظ جيّداً هذا، معنوي...

قال المجنون: فهمت.

- توقّع عقد تأمين مع الإدارة تعترف لك فيه بقيمة مئة ألف إكو، لك أنت الفنان...

قال المجنون: أنا فنان.

twitter @baghdad_library

تابع غوديسار : ليس بالضرورة، أنت الموسيقي، أو أنت الوزير، إنّها تتعهد بدفعها إلى عائلتك، إلى ورثتك، إن تقوّضت بموتك الآمال، ضمان العيش القائم على الرأسمال المعنوي الذي تمثّله. وهكذا فدفع التعويض يكفي لدعم . . .

قال المجنون مقاطعاً : لدعم صندوقك.

- بالطبع يا سيدي، ها أنا أرى أنك خبير بهذه القضايا.

قال المجنون : نعم، أسست المصرف الإقليمي في شارع فوشه -مونمارتر في باريس، العام ١٧٩٨.

وتابع غوديسار : ولتسديد رؤوس الأموال المعنويّة التي ينسبها كلّ إلى نفسه ويراها فيه، ألا يجب على عموم المؤمنين أن يدفعوا قسطاً ما، ثلاثة بالمائة، مبلغاً سنوياً هو ثلاثة بالمئة؟ وهكذا بدفع مثل هذا المبلغ الزهيد، تقي عائلتك من النتائج السيّئة التي تعقب موتك.

قال المجنون : ولكنني أحيا.

- آه! إن عشت طويلاً! هذا هو الإعتراض الذي نُقابَل به على العموم. إنّه اعتراض مُبتذَل، وأنت تدرك أننا لو لم نتوقعه، وندحضه، لما كنّا جديرين بالوجود . . . ماذا؟ ما نحن بعد كل حساب؟ حملة سجلات أكبر مكتب للأفكار؛ أنا لا أصرّح بهذا من أجلك، لكنني أصادف في كل مكان أشخاصاً يطمحون إلى تعلّم شيء جديد، يبدون محاكمة ما أمام أناس قضوا العمر في هذا المجال المختص! . . قسماً بشرفي، هذا يستحق الشفقة، ولكن العالم هكذا، وليس في نيتي أن أغيّره، لكن اعتراضك، يا سيدي لاأساس له.

قال مرغريتس : ولماذا؟

- إليك السبب. إن عشت ووصلت إلى الأهداف المقدّرة في وثيقة تأمينك على الحياة، وضد مفاجآت الموت؛ تابعني . . .

- انني متابعك.

-حسن إن نجحت في مشاريعك! ، فقد نجحت بالضبط بسبب وثيقة التأمين، لأنّك ضاعفت فرص نجاحك، بتخلّصك من جميع أصناف القلق، التي تنتابنا عندما نفكر بمصير امرأة وأطفال يمكن أن يودي بهم موتنا إلى شقاء مريع. إن كنت قد نجحت فقد استلمت رأس المال المعنوي. الذي يعتبر التأمين بالنسبة له تفاهة، تفاهة حقيقية خالصة.

- فكرة ممتازة.

تابع غوديسار: أليس كذلك يا سيدي؟، إنني أسمي صندوق الإنعام هذا التأمين المتبادل ضد البؤس! . . . أو إن أردت، الحسم على الموهبة، لأن الموهبة، ياسيدي، الموهبة كمبيالة تعطيها الطبيعة للرجل العبقري، لكنها غالباً ماتكون ذات أجل طويل[1]. هيه! هيه!

صرخ مرغريتس: أوه! يا للاستنزاف الفاضح».

فكر غوديسار في نفسه: «آه! يا للشيطان! إنّه ماكر هذا الرجل. يبدو أنني خدعت به، ويجب أن أسيطر عليه بالاعتبارات الأكثر شدة، سأجرب المقلب رقم واحد»

ثم هتف بصوت عال: «أبداً يا سيدي، ومن أجلك. . .

قاطعه مرغريتس بقوله: أتقبل بتناول كأس من خمر؟

أجاب غوديسار: بكل طيبة خاطر

نادى مرغريتس: يا زوجتي، أرسلي لنا زجاجة خمر، إذ مايزال لدينا برميلان ثم أشار الرجل إلى كرومه وقال لغوديسار: أنت هنا في قمة فوڤري[2]. في

(١) عبر ثرثرة الوكيل التجاري الجواب يجب ملاحظة حلم يقظة بلزاك المدرك لكونه «من رجال المستقبل» وهو يلوم زمنه الذي لم يمنح «رأسماله الفكري» ما تستحق «موهبته» أو «عبقريته» من اعتمادات كبيرة.

(٢) في رواية «أوجيني غراندة» تعتبر كروم الأب غراندة «قمة البلاد» كذلك فالسيد ساڤاري يمتلك في ڤوفري خمر قمّة، كرم الجبل الصغير. وتجدر الملاحظة أن رواية أوجيني غراندة وقصة غوديسار الشهير انشئتا في ١٨٣٣.

twitter @baghdad_library

كرم مرغريتس». حملت الخادمة كأسين وزجاجة خمر تعود للعام ١٨١٩[١]، وصب مرغريتس باعتزاز كأساً قدّمه بشكل احتفالي لغوديسار الذي شربه وهو يقول: «لكنك تخدعني يا سيدي، فهذا خمر مادیرا[٢]، إنّه فعلا خمر مادیرا.

رد المجنون: أؤمن بقولك. فعلّة خمر فوڤري، أيها السيد، هي عدم إمكان تقديمه كخمر عاديّة، أو كخمر مُحلّيات، فهو قويّ جداً، وهكذا فهو يباع في باريس باعتباره من خمور مادیراً بعد تلوينه بقليل من ماء الحياة[٣]، وخمرنا عذب المذاق حتى أن كثيراً من تجّار باريس عندما لايكون لمحصولنا أسواق مناسبة في هولندة وبلجيكة[٤] يشترونه ويمزجونه بخمور المناطق المجاورة لباريس، ويجعلونه مماثلاً لخمور بوردو. ولكن ما تشربه الآن، يا سيدي العزيز الفائق اللطف، هو خمر ملكي، خمر قمة فوفري. ولدي منه برميلان، برميلان فقط. والأشخاص الذين يحبون الخمور الجيّدة، الخمور الممتازة، ويريدون أن يقدّموا على موائدهم أصنافاً غير معروضة للتجارة، كبعض البيوت الباريسية العديدة التي تعتز بخمورها تلجأ مباشرة إلينا للتموّن، فهل تعرف بعض الأشخاص الذين . . .

قاطعه غوديسار قائلاً: لنعد إلى موضوعنا.

استأنف المجنون: لكننا فيه أيّها السيّد، فخمري تلهب الرأس سُكراً، فهي متوافقة في الاشتقاق اللغوي مع كلمة رأس مال التي تتحدّث عنها. . أليس كذلك؟ رأس هنا، ورأس هناك! وهذه رأس فوڤري؛ كلّ هذا متوافق. . .

---

(١) تعتبر هذه السنة ١٨١٩ في زمن بلزاك أفضل سني الخمور في فرنسة مع سنة ١٨١١ «سنة ظهور المذنب».

(٢) جزيرة برتغالية غرب مراكش اشتهرت بخمورها، ومن المعروف في تورين تشبيه خمر فوڤري المعتّقة بخمور مادِيرا.

(٣) **ماء الحياة**: ناتج تقطير عديد من الثمار المتخمرة، وأحيانا بعض الحبوب والدرنات بنسبة كحول عالية نحو ٤٥ درجة تصنع منه المشروبات القويّة: ارمنياك، وسكي، عَرَق. . . وقد يمزج مع الخمر لرفع درجته الكحولية

(٤) كان الأب غراندة يبيع خموره أيضاً للتجّار البلجيكيين والهولانديين.

قال غوديسار : هكذا إذاً، إمّا أن تحقّق رأسمالك المعنوي . . .

-إنّه متحقّق، أيّها السيد، هل تريد شراء برميلي خمري؟ سأرتب لك فيما بعد الاشتقاق .

أجاب غوديسار الشهير : إنني أتّحدث عن ضمان رأسمالك المعنوي وعمليات التأمين على الحياة سأعود إلى براهيني» .

هدأ المجنون، واتخذ وضعيته السابقة وهو يمعن النظر في غوديسار الذي استأنف :

«أقول، يا سيدي، إنّك إن مُتَّ فرأس المال سيدفع لعائلتك دون صعوبة

- دون صعوبة

- نعم، شريطة ألا يكون الموت انتحاراً . . .

- موضوع منازعة .

- كلا، يا سيدي، فكماتعرف، يسهل دائماً كشف حوادث الانتحار

- قال المجنون : في فرنسة، ولكن . . .

- رد غوديسار : ولكن في البلاد الأجنبية . حسن! يا سيدي، للانتهاء من هذه النقطة، أذكر لك أن الموت في الديار الأجنبية والموت في ميدان القتال هما خارج مضمون . . . صرخ مرغريتس : علامَ تؤمّنون إذاً؟ . . . على لاشيء! أما أنا فإن مصرفي الإقليمي يستند على . . .

صرخ غوديسار بدوره مقاطعاً المجنون : على لاشيء يا سيدي؟ تقول على لاشيء؟! . . . والمرض، والهموم، والبؤس، والأهواء؟ لكننا لانعرّض أنفسنا لحالات استثنائية .

قال المجنون : كلاّ، يجب ألا نتطرق إلى هذه الحالات .

هتف غوديسار : ماذا ينتج عن هذا المشروع؟ إليك أنت المصرفي، سأحدّد بالأرقام الناتج : يوجد رجل ذو مستقبل؛ في صحة جيّدة، يعيش من فنّه، وهو

twitter @baghdad_library

يحتاج إلى مال، يسعى إليه، فلا يجده. كل الحضارة ترفض مدّ هذا الرجل بالنقود، رغم أنه يسيطر بالفكر على الحضارة، ويجب أن يسيطر عليها يوماً بريشته، أو بإزميله، بالكلمة، أو بالفكرة، أو بالمنهج. يا للحضارة الشرسة! لاخبز لديها من أجل هؤلاء الرجل الكبار الذين يمدّونها بالترف، ولاتغذيهم إلا بالشتائم والسخريات. هذه العاهرة المذهّبة! . . . التعبير شديد، لكنني لا أعدلُ عنه فهي تستحقه. ويأتي إلينا هذا الرجل الكبير غير المقدّر. فنشهره كرجل كبير، ونحييه باحترام، ونستمع إليه. ويقول لنا: «أيّها السادة المؤمنون على رؤوس الأموال، إن حياتي رأس مال بقيمةكذا؛ وأنا أعطيكم من إنتاجي نسبة كذا بالمئة!» . . .

حَسنٌ! ماذا نفعل نحن؟ . . . بسرعة، وبدون أي غيرة نقبله إلى وليمة الحضارة الرائعة كمدعو معتبر . . .

قال المجنون: يلزمكم خمر إذاً . . .

- وكمدعوّ قادر، يوقّع وثيقة التأمين، ويأخذ قصاصاتنا الورقية، قصاصاتنا البائسة، وهي بالرغم من بخاستها تفوق في قوّتها عبقريته. والواقع إن كان بحاجة إلى المال، فجميع الناس عند رؤية وثيقته، يقرضونه، في البورصة، ولدى المصارف، في كل مكان، حتى لدى المرابين، يجد دراهمَ لأنه يقدّم ضمانات. وبعد يا سيدي، أليست هذه فجوة في النظام الاجتماعي نملؤها؟ لكن يا سيدي ليست هذه إلا إحدى العمليات التي تمارسها الشركة على الحياة. فنحن نؤمّن على المدينين وفق أسلوب آخر من الأقساط؛ ونقدّم عوائد لمدى الحياة وفق معدّل متدرّج مع العمر، ووفق سلّم أكثر ملائمة بكثير من التونتيّة[1] القائمة على معدلات وفيات خاطئة. وشركتنا متعاملة مع جماهير واسعة، بحيث لاتنتاب أصحاب الدخل

(١) التونتية: شركة تأمين تكافلي نسبة إلى منشئها الإيطالي تونتي في القرن السابع عشر، يتشارك بموجبها عدد من الأشخاص بحيث توزع حقوق أحدهم عند وفاته على سائر رفاقه حتى إذا توفوا جميعاً الا واحداً انتقلت جميع حقوقهم إليه وقد شارك والد بلزاك في تونتية «لافارج» وكان يؤمّل أن يكون الرابح الأخير، لكنه لم ينجح رغم بلوغه الثمانين.

العمري الأفكار التي تكدّر أيامهم الأخيرة المتكدّرة بطبيعتها، وهي أفكار ستخالجهم بالضرورة عندما يكون فرد معيّن قد أخذ أموالهم لقاء دخل عمري. وكما ترى يا سيدي فالحياة لدينا قد قيّمت في جميع الاتجاهات[1].

قال المجنون: أي أنها تمتصُّ من جميع الأطراف؛ لكن خذ كأس خمر فأنت تستحقها إنما يجب أن تبطّن جيّداً بالمخمل معدتك، إن أردت أن ترطب جيّداً حلقك. فخمر فوڤري، المعتق جيّداً، أيّها السيّد، مخمل حقيقي.

قال غوديسار وهو يفرغ كأسه: «ما رأيك بهذا؟

- شيء جميل جداً، وجديد جداً، ومفيد جداً؛ لكنني أفضل الحسومات على السندات والعقارات الإقليمية التي تتمّ في مصرفي في شارع فوسه -مونمارتر.

أجاب غوديسار: إنك على حق تماماً، يا سيدي، لكن هذا يؤخذ ويستعاد، ويعمل ويكرّر عمله. كما أن لدينا حاليا صندوق الرهنيات الذي يقرض على الملكيات ويقوم بإجراء بيع الوفاء[2] بشكل إجمالي. لكن أليست هذه أفكاراً صغيرة بالمقارنة مع تلك التي توطد فيها الآمال! وتوطيد الآمال يعني، بلغة الماليين، تخثير رغبات الثروة لدى كل شخص، وضمان تحقيقها له! وجب أن يتهيأ هذا في عصرنا، عصر الانتقال، الانتقال والنموّ في آن واحد!.

قال المجنون: نعم النمو، أنا أحبّ النمو، وخاصة نمو الكرمة في الوقت المناسب.. لم ينتبه غوديسار إلا لكلمة الوقت في عبارة مرغريتس فهتف: «الوقت، يا سيدي، إنّها صحيفة[3] سيئة. وأنا أرثي لك إن كنت تقرؤها.

---

(١) هنا يرتسم بشكل أكثر انصافاً نظام تأمين على الحياة يبدو أنه أفضل من التونتية بحيث أخذ يزدهر خلال أعوام (١٨٣٠ -١٨٣٣) (انظر سينس: أصول شركات الضمان -باريس ١٩٠٠)

(٢) اعادة شراء المرهون من قبل الراهن بعد انقضاء مدة الرهن لقاء تسديد القيمة الرئيسة وتعويض يتفق عليه كفائدة.

(٣) «الوقت» صحيفة ليبرالية إن لم تكن سان -سيمونية، وغوديسار ليبرالي، لكن بلزاك يوجه بالمناسبة طعنة لمديرها جاك كوست، الذي رفض في العام ١٨٣١ أن ينشر مقالاً لآميدي بيشو مقرّظاً لرواية «جلد الحبب»، والواقع أنه كوّن انطباعاً سيّئاً عن كوست منذ اللقاء الأول معه كماتشير رسالة منه إلى زولماكارو بتاريخ ١٥ تشرين أول ١٨٣٠.

twitter @baghdad_library

صرخ مرغريتس: الصحيفة، أنا من هواة قراءة الصحف» ثم التفت نحو باب الغرفة وهو ينادي: «زوجتي!، زوجتي! أين الصحيفة؟»

استأنف غوديسار: حسن يا سيّدي، إن كنت ممن يهتمون بالصحف، فقد وجدنا لنتفاهم.

- نعم؛ ولكن قبل التفاهم على الصحيفة. اعترف لي بأنك تجد هذه الخمر...

قاطع غوديسار: ممتازة.

قال المجنون وهو يصب لنفسه قليلا في كأسه ويملئ كأس غوديسار: هيا لنجهز على هذه الزجاجة، ومادمت قد وجدتها جيّدة فأرجو أن ترتب لي أمر مبيع هذين البرملين الموجودين لديّ.

رد غوديسار: تماماً، فآباء الإيمان السان سيموني طلبوا مني أن أرسل لهم مواداً غذائية... لكن لنتحدّث عن صحيفتهم الكبيرة الجميلة؟ أنت الذي تدرك جيّداً أمور رأس المال، ولن تضنّ علي بعونك لإنجاح هذه الصحيفة في هذه الناحية.

قال مرغريتس: بكل طيبة خاطر، إن...

- فهمت، إن أخذت خمرك، لكن خمرك جيّدة جداً يا سيدي، إنّها قاطعة

- صُنع منها شامبانية من قبل أحد الباريسيين، وقد أجرى ذلك في تور.

- إنني مقتنع بهذا، «فالكرة» التي سمعت عنها دون شكّ.

رد مرغريتس: أنا اجتازها[1] غالباً.

---

(١) بطريقة بارعة ومقنعة يذكر برنار غويون الرندة الشهيرة لمقطوعة الجوكوندة الموسيقية لنيكولو، ودندنة فوترن لها في رواية «الأب غوريو» وخاصة المقطع «اجتزت مدة طويلة العالم». وهناك مشاركة بالطبع بين «العالم» والكرة وقد ساعدت على التغذية المجدّدة للحديث المتهافت في هذا الحوار المتفكك عن قصد بين مجنون وجوّاب

قال غوديسار : أنا واثق من ذلك ، يا سيدي ، فلك رأس جبّار ، رأس ألمعي يسميه هؤلاء السادة الرأس الخيلي : ففي رأس كل من هؤلاء الرجال الكبار حصان جامح . ولكن يمكن أن تكون انساناً عبقرياً وتعيش مجهولاً . إنّها مهزلة قد تحدث غالباً مع أولئك الذي يبقوا مغمورين رغم ملكاتهم ، وكاد أن يكون هذا هو حال سان سيمون الكبير ، وحال السيد ڤيكو[1] الرجل القوي الذي بدأ يتحسّن وضعه . إنَّ ڤيكو في حالة جيّدة ، وأنا مسرور من أجله . فنحن ندخل هنا في نظرية الإنسانية وصيغتها الجديدة . فأرجو الانتباه ، يا سيدي . . .

ردّد المجنون : الانتباه .

– إن استثمار الإنسان من قبل الانسان يجب أن يتوقف ، يا سيدي ، منذ اليوم الذي جاء فيه المسيح ، أقول المسيح[2] ولا أقول يسوع المسيح ، جاء ينادي بالمساواة بين البشر أمام الله . لكن ألم تكن هذه المساواة حتى الآن الوهم الذي يرثى له؟ والواقع أن سان سيمون متمّم للمسيح . والمسيح أنهى مدته .

قال مرغريتس : إذاً فقد أفرج عنه؟

– أنهى مدته كما الليبرالية[3] ، والآن هناك شيء آخر أكثر قوّة أمامنا ، وهو

---

(١) ڤيكو : (١٦٦٨ – ١٧٤٤) مؤرخ وفيلسوف ايطالي له كتاب مبادئ فلسفة التاريخ (١٧٢٥) وقد ترجمه ميشله في العام ١٨٢٧ ، وكان أحد منائر الندوة الأدبية في رواية «أوهام ضائعة» لكن بالنسبة لغوديسار ذي الثقافة السطحية ، فليس ڤيكو إلا اسماً ، وهكذا تتمثل الملاحظة العامة التي سجلها بلزاك في بداية المخطوطة ثم شطبها (انه وكيل تجاري جوّاب ، لايعرف شيئاً بشكل عميق ، يعرف أسماء البشر والأماكن ، لكنه لايعرف البشر والأماكن» .

(٢) كليشه سان سيمونية ، وبصورة عامة ثوريّة ، تنحو لاظهار المسيح كبطل في الانسانية وليس كشخصية إلهية .

(٣) «أنهى مدته» تقال عن سجين أنهى المدة التي حكم عليه بها في الاعتقال ومن هنا سوء التفاهم . أما ما يتعلق بتقهقر الليبرالية بعد أن أفرغت من معناها عقب فشل ثورة تموز ، فقد أعلن عنه بلزاك على لسان شخصية من شخصيات إحدى مقالاته في «لامود» منذ ٢٢أيار ١٨٣٠ عندما قال : «تتحدثون عن الليبرالية ، لكن الليبرالية ماتت ، لقد أنهت مدتها» .

twitter @baghdad_library

الإيمان الجديد، إنّه الإنتاج الحرّ، الفردي؛ والتنسيق الاجتماعي الذي يعمل على أن يتلقى كل فرد بإنصاف أجرته الاجتماعية وفق إنتاجه. ولا يكون مستثمراً أبداً من قبل أفراد، يشغّلون الجميع لمصلحة شخص واحد. من هنا العقيدة...

سأل مرغريتس: وماذا تفعل بالخدم؟.

- سيبقون خدماً يا سيدي إذا لم تكن لديهم إلا القدرة على الخدمة.

- ايه! وبعد، ما فائدة العقيدة؟

- أوه! لتتمكن من المحاكمة، يا سيدي، يجب أن تضع نفسك في لحظة تأمُّل عالية جداً يمكنك فيها أن تحيط بوضوح بالمظهر العام للإنسانية، وهنا فنحن نلج عالم بالانش[1] الواسع! هل تعرف بالانش؟

رد المجنون الذي خيل إليه أنه يسأل عن الألواح الخشبية[2]: نحن لا نفعل إلا هذا!

تابع غوديسار: حسن، وبعد، إن كان مشهد تقمّص التحولات المتتابعة للكرة المُرَوحَنة(*) يؤثّر بك، وينقلك إلى آفاق بعيدة، ويثير أحاسيسك، فصحيفة «الكرة»، يا سيدي العزيز، هي الاسم الذي يعبّر بوضوح عن رسالته. «فالكرة» هي شيشرون الذي سيشرح لك، كل صباح، الشروط الجديدة التي ستتمُّ بها خلال وقت قريب التغيرات السياسية والأخلاقية في العالم.

هتف المجنون: عجباً، كيف هذا؟!.

---

(١) بالانش (١٧٧٦ -١٨٤٧) مفكّر فرنسي، في كتبه فلسفة للتاريخ موروثة عن ڤيكو مع صبغة عاطفية صوفية وقد اعتبر هنا كمؤلف «للتقمص الاجتماعي» وهو تفسير صوفي للمستقبل البشري.

(٢) خلط المجنون بين BALLANCHE وPLANCHE (لوح خشبي) لذلك أجاب بأنه لايفعل إلا تحضير الألواح الخشبية لصنع البراميل اللازمة لتعبئة الخمور.

(*) مَروحنة spiritualise: أعطيت معنى روحياً.

تابع غوديسار : سأفهمك الاستدلال بصورة . إن كانت خادماتنا قد ذهبن بنا خلال طفولتنا إلى مسرح الدمى المتحركة لسرافين[1]، ألا يلزمنا، ونحن شيوخ، أن تعرض علينا لوحات المستقبل؟ هؤلاء السادة . . .

- هل يشربون خمراً؟ .

- نعم، يا سيدي، وأستطيع القول أن منزلهم قائم على أساس ثابت، أساس نبوّي : صالات جميلة تضمّ جميع الأقطاب، وحفلات استقبال كبيرة .

قال المجنون : وبعد فإن العمال الذين يهدمون يحتاجون إلى الخمر كالعمال الذين يبنون . وبالأحرى عندما يتم الهدم بيد، والبناء باليد الأخرى، كما يفعل رسل «الكرة»[2] .

- وعندئذ يلزمهم خمر، خمر فوڤري، البرميلان الباقيان لديّ ثلاثمئة زجاجة بمئة فرنك، يا للثمن البخس!

قال غوديسار وهو يحسب : بكم يعود ثمن الزجاجة؟ لنر؟ هناك كلفة النقل، ورسم الدخول، ولن يتجاوز السعر سبعة دراهم للزجاجة . إنّها صفقة رابحة، فهم يدفعون سعراً أغلى لقاء كل أنواع الخمر الأخرى» .

فكّر غوديسار في نفسه (حسن، سأمسك برَجُلي، أنت تريد بيعي خمراً أحتاج إليها، وسأسيطر عليك) .

ثم تابع : «حسن يا سيدي، إن الرجال الذين يتجادلون هم دائماً أقرب إلى التفاهم . ولنتكلم بصراحة . إنّ لك تأثيراً كبيراً على هذه الناحية .

ردّ المجنون : على ما اعتقد، فنحن رأس فوڤري .

---

(١) سرافين : لاعب دمى متحركة، وظلال صينيّة أقام ألعابه في «باليه رويال» منذ العام ١٧٨٤، وقد عرفت لوحات مسرحه شهرة كبيرة في أيام بلزاك .

(٢) إعادة البناء أحد طموحات السان -سيمونية التي تعارض فيها مبدأ السلبية الرافض لكل حقيقة ومعتقد .

twitter @baghdad_library

- وبعد، فهمت تماماً مؤسّسة رؤوس المال المعنوية؟.

- تماماً.

- وأجريت قياس مدى «الكرة»؟.

- مرتين... بالقَدَم...

لم يسمع غوديسار الردّ لأنه كان غارقاً في أفكاره وهو يستمع إلى نفسه كرجل واثق من الانتصار.

- «والحال، ونظراً للوضع الذي أنت فيه، أُدرِكُ أن ليس لديك ما تؤمّن عليه وأنت في السنّ الذي وصلت إليه. ولكن يمكنك يا سيدي أن تحثّ على التأمين أشخاص الناحية ممن يريدون الاطمئنان على المستقبل لقدرهم الشخصي أو لوضع عائلاتهم العارض. إذاً فباشتراك سنوي في «الكرة» وبدعمي بمالك من نفوذ في الناحية من أجل وضع رؤوس أموال في دخل لمدى الحياة، لأن المقاطعات ترغب بهذا النوع من الضمان؛ يمكننا أن نتفق حول برميلي خمرك. هل ستأخذ «الكرة»

- سأذهب إلى الكرة.

- وهل ستدعمني لدى الأشخاص المتنفذين في الناحية؟

- سأدعم.

- وَ...

- وَ...

- وأنا... ولكن ستسجّل اشتراكاً في «الكرة».

قال المجنون: «الكرة» صحيفة جيّدة، صحيفة عمريّة.

- عمريّة، يا سيدي؟... إيه! نعم إنك على حق. إنّها عامرة بالحياة، والقوّة، والعلم، محشوّة علماً، مستوفاة لجميع الشروط، مطبوعة جيّداً، بلون جيّد، وزخرفة جيّدة. آه إنّها ليست بضاعة رديئة، ولا أشياء تافهة، ولا انبهار

خادع، ولا نسج عنكبوت يتمزّق عند النظر إليه؛ إنّها شيء عميق، واستدلالات يمكنك التأمّل فيها على هواك، وأنت تقضي الوقت باطمئنان وراحة في عمق الريف.

رد المجنون: هذا يناسبني.

- «الكرة» تكلّف مبلغاً زهيداً فاشتراكها السنوي ثمانون فرنكاً.

- هذا لايناسبني أبداً.

قال غوديسار: سيدي، لاشكّ أن لديك أحفاداً.

ردّ مرغريتس معتقداً أنه يسأله من مدى محبته للأطفال: كثيراً.

- حسن، إن اشتراك «مجلة الأطفال» سبعة فرنكات[٢] سنوياً.

- اشتر برميلي خمري، وأنا أشترك بمجلة الأطفال. هذا يناسبني، فكرة جميلة استثمار معنوي للطفل؟ . . . أليس هذا استغلالاً للانسان من قبل الانسان؟

قال غوديسار: هل تتابعني يا سيّدي.

- أتابعك.

- هل توافق على إرشادي في الناحية؟.

- في الناحية.

- هل أحصل على دعم منك؟

- ستحصل عليه.

- حسن يا سيدي سأشتري برميلي خمرك بمئة فرنك.

---

(١) كان هذا هو اشتراك الصحيفة اليومية ذات الأربع صفحات، قبل إطلاق صيغة الصحيفة الرخيصة الثمن التي تمّ نجاحها نهائياً في العام ١٨٣٦ من قبل «لا برس LA PRESSE» لجيراردن التي حدّدت الاشتراك السنوي بأربعين فرنكاً.

(٢) كان اشتراك مجلة الأطفال ستة فرنكات سنوياً يُضاف إليها فرنك ونصف لقاء الإرسال إلى الأقاليم.

twitter @baghdad_library

- كلا! ، كلا! مئة وعشرة.

- لتكن مئة وعشرة، إنّما مئة وعشرة في فاتورة أصحاب العقيدة. ولكن مئة بالنسبة لي، فقد توسّطت لك في عملية بيع وتترتّب لي عليك عمولة.

- اجعلها إذاً مئة وعشرين أو (دون عمولة)[1].

- جناسٌ جميل، ليس فقط قوياً جداً، بل ويسحرُ.

- كلا هو يُثمِل[2].

- أكثر فأكثر قوة كما لدى نيكوله[3].

رد المجنون: أنا هكذا، تعال لأريك كرمي.

قال غوديسار: بكل طيبة خاطر، فهذه الخمر تدوخ الرأس بشكل غريب».

وخرج غوديسار الشهير مع مرغريتس الذي قاده من دالية إلى أخرى، ومن رقيدة إلى رقيدة بين جفنات كرمه. والسيّدات الثلاث وثرنيه يضحكون على هواهم وهم يرون الوكيل التجاري الجوّاب والمجنون يتناقشان، ويومئان، ويتوقفان ثم يعودان إلى سيرهما وهما يتحدثان بحماس.

قال ثرنيه: إلى أين سيصل به رجلنا؟.

أخيراً عاد مرغريتس مع الوكيل التجاري الجوّاب وهما يسيران بخطوات متسارعة كشخصين مستعجلين لإنجاز أمر هام.

قال ثرنيه: لقد هزَم المجنون الوكيل البَاريسي.

---

(١) جناس بين «مئة وعشرين» CENT VING وSANS VIN دون خمر، ومن المعروف أن البخشيش أو العمولة يطلق عليها تعبير POT DE VIN.

(٢) جناس آخر بين SPIRITUEL ساحر أو طريف أو فكه وSPIRITUEUX مثمل أو مُسكر.

(٣) نيكوله، جان باتيست: «١٧١٠ -١٧٩٦» مؤسس مسرح غدا في العام ١٧٩٢ مسرح الغيته. وكان شعاره: «لننطلق دائماً أكثر فأكثر قوة» وقد ورد ذلك أيضاً في رواية «المتصيّدة»

والواقع أن غوديسار الشهير جلس إلى طرف طاولة لعب، وكتب أمام فرحة المجنون الكبرى طلب تسليم برميلي نبيذ. وبعد أن قرأ السيد مرغريتس تعهد الوكيل الجواب بتسديد الثمن، نقده سبعة فرنكات لقاء اشتراك في «مجلة الأطفال».

قال غوديسار الشهير وهو يدوّر مفتاح ساعته: «إلى الغد إذا يا سيدي، سيشرفني أن أمر لاصطحابك، يمكنك أن ترسل مباشرة برميلي الخمر إلى باريس على العنوان المشار إليه مع إشعار المطالبة بالدفع.

كان غوديسار نورماندياً، ولا يوجد لديه أيّ ارتباط دون أن يكون ثنائياً: وقد أراد تعهّداً من السيد مرغريتس، المسرور كمجنونٍ حقّق فكرة أثيرة لديه، فوقّع له هذا على إشعار تسليم برميلي نبيذ من كرم مرغريتس. وانطلق غوديسار الشهير وهو يقفز مرحاً ويدندن: «ملك البحار خذ قاربنا بتؤدة»[1].

وصل غوديسار إلى نُزُل الشمس المذهَّبة حيث راح يتحدّث بشكل طبيعي مع صاحبها بانتظار طعام العشاء. وكان ميتوفله جندياً سابقاً ماكراً بسذاجة كجميع الفلاحين، لكنه لايضحك أبداً من فكاهة، هو رجل اعتاد على سماع دوي المدافع وهو يسخر بين الأسلحة.

قال له غوديسار وهو يستند إلى كفاف الباب ويشعل سيكارة من غليون ميتوفله:

«إن لديكم أشخاصاً أقوياء جداً هنا.

سأله ميتوفله: كيف رأيتهم؟.

- إنّهم رجال مطّلعون كأنهم أمام مرآة على الأفكار السياسية والماليّة.

سأل الفندقي بسذاجة، وقد أطلق ببراعة من بين شفتيه رذاذاً يتجمع دورياً في حلق المدخنين: من أين أنت آت إذاً إن لم يكن في سؤالي فضول.

- زيارة رجل داهية اسمه مرغريتس».

---

(١) لازمة في أغنية بحارة بورتيسي في ايطالية.

twitter @baghdad_library

ألقى ميتوفله على زبونه نظرات ملأى بسخرية باردة وقال: «هذا صحيح فالرجل يعرف أشياء كثيرة! يعرف ما لا علم للآخرين به، مما يصعب على هؤلاء فهمه.

- أعتقد ذلك فهو يدرك بعمق القضايا الماليّة المعقّدة.

رد الفندقي: نعم، وبالنسبة لي فقد أسفت دائماً لجنونه.

- كيف، أهو مجنون؟

كرّر ميتوفله: مجنون، كسائر هؤلاء الذين يفقدون عقلهم، لكنه ليس خطيراً، وزوجته ترعاه وتراقبه». ثم استأنف بعد فترة توقف وبلهجة باردة خلت من كل إشفاق: «ولكن كيف تفاهمتما؟، هذا أمر غريب!

صاح غوديسار: غريب، غريب، إذاً فالسيد فرنيه قد سخر مني إذاً؟

سأل ميتوفله: أهو الذي أرسلك إليه؟.

- نعم.

هتف صاحب النزل مناديا زوجته: أسمعت؟، إن السيد فرنيه أرسل ضيفنا لزيارة السيد مرغريتس؟..

سألت المرأة: وبماذا استطعتما التحدث يا سيدي العزيز الوسيم، مادام مجنونا؟

- باعني برميلي خمر

- واشتريتهما

- نعم

- لكن هذا جنونه في بيع خمر لا يملك منه شيئاً.

قال الوكيل التجاري الجوّاب: حسن، يجب أن أذهب لشكر السيد فرنيه وانطلق غوديسار وهو يغلي غضباً إلى منزل الصبّاغ القديم، حيث وجده يقهقه ضاحكاً وهو يقصّ على جيرانه الحكاية.

قال أمير الجوّابين وهو يلقي على ڤرنيه نظرات ملتهبة: أيّها السيد، أنت شخص سمج، وقليل التهذيب، وتحت طائلة أن تكون آخر حرّاس الأشغال الشاقة الذين أعتبرهم أحطّ من المجرمين المحكومين[1]، يجب أن تتحمّل مسؤولية الإهانة التي وجهتها لي بجمعي مع رجل تعلم أنه مجنون. هل تفهمني أيها السيد الصبّاغ ڤرنيه.

كانت هذه هي الخطبة التي أعدها غوديسار كممثل يتهيأ للدخول إلى المسرح. ردّ ڤرنيه متحمساً لوجود جيرانه: كيف أتعتقد أن ليس من حقّنا أن نسخر من شخص يحلّ بأكاذيبه في ڤوڤري ليطلب أن نمنحه أموالنا بذريعة أننا رجال كبار، ورسّامون، وشويعرون، وبذلك فهو يشبّهنا بلا مبرّر بأشخاص مفلسين، متشرّدين، دون بيت أو مقرّ! ماذا فعلنا، نحن أرباب العائلات، لنستحق ذلك؟ شخص غريب جاء يقترح علينا اشتراكات في صحيفة «الكرة» التي تدعو للإيمان بأوّل وصيّة للربّ: «من فضلكم، لا ترثوا آباءكم وأمهاتكم. أقسم بشرفي أن أكبر المخابيل، بل أن الأب مرغريتس ينطق بأشياء أكثر رشداً. عدا عن ذلك، مِمَّ تشكو؟ لقد تفاهمتما جيّداً أنتما الاثنان. وهؤلاء السادة يمكنهم أن يشهدوا بأنك لو تحدّثت مع أبناء الناحية لما فهموك كفهم مرغريتس لك.

- قد يبدو لك جميلاً هذا القول. لكنني أصرُّ على أنّك وجّهت لي إهانة، وجب أن تعتذر عنها.

- وبعد أيّها السيد، اعتبر نفسك مهاناً إن كان هذا يسرُّك، ولن أعتذر أو أعلّل إذ ما من تعليل لكل هذا الموضوع لأبديه لك. هل هو تهريج إذاً»

عند هذه الكلمة انقضّ غوديسار على الصبّاغ ليوجّه إليه صفعة، لكن الموجودين من أهل فوڤري المتنبهين للنزاع الدائر حالوا بين الرجلين، ولم تصب يد غوديسار الشهير إلا شعر الصباغ المستعار الذي ارتمى على رأس الآنسة كلير ڤرنيه.

قال: إن لم يعجبك هذا أيّها السيّد، فأنا باق حتى صباح الغد في نزل

(١) يتباهى غوديسار بأنه «محب للانسانية» وأنه أقرب إلى المساجين منه إلى الشرطة حرّاسهم.

twitter @baghdad_library

«الشمس المذهّبة» وستجدني مستعداً لأشرح لك معنى غسل الإهانة! فقد قاتلت في تموز أيّها السيّد.

أجاب الصباغ: وستقاتل في فوڤري، وستبقى فيها مدة أطول مما تعتقد».

ذهب غوديسار وهو يفكّر بهذا الجواب الذي وجده مليئاً بالتشاؤم. ولأول مرة في حياته لم يتعش الوكيل الجوّاب بسرور، كما بدت ناحية فوڤري يغمرها الانفعال بمغامرة غوديسار وڤرنيه، إذ لم يسبق أن جرت أيّة مبارزة في هذه المنطقة المسالمة.

قال غوديسار لمضيفه: «سيّد ميتوفله، سأتبارز غداً مع السيد ڤرنيه، ولا أعرف أحداً هنا، هل تتكرّم بأن تكون شاهدي؟.

أجاب الفندقي: بكل طيبة خاطر.

ما كاد غوديسار ينهي عشاءه، حتى جاءت السيّدة فونتانيو ومساعد عمدة فوڤري إلى فندق الشمس المذهبة، وقابلا على انفراد السيد ميتوفله، وبيّنا له مدى الألم الذي سينتاب الناحية إن تمّت فيها حادثة قتل عنيفة، وصوّرا له الوضع المريع الذي تعانيه السيّدة ڤرنيه والتمسا منه أن يرتّب الأمر بطريقة ينقذ فيها كرامة المنطقة.

قال الفندقي الماكر: «سأتدبّر الأمر».

عند المساء صعد ميتوفله إلى غرفة الوكيل الجوّاب يحمل ورقاً وريشة وحبراً.

سأله غوديسار: ماذا تحمل لي؟

رد ميتوفله: لكنك ستتبارز يوم غد، وقد فكّرت أنّك ترغب بإجراء بعض ترتيبات صغيرة، مادام لديك الوقت للكتابة، إذ لاشك بوجود أشخاص عزيزين عليك. أوه! هذا لايعني أنك ستقتل. هل أنت خبير بالسلاح؟ أتريد تطرية يديك قليلاً؟ لدي سيفان.

- بكل طيبة خاطر.

عاد ميتوفله ومعه سيفان وقناعان وقال: هيا لنرَ.

تهيأ المضيف والوكيل التجاري واستطاع ميتوفله بصفته ناظر قذافين سابق أن

يحقق سبع أو ثمان هجمات ناجحة على غوديسار فيقلقله من مكانه ويدفعه إلى الحائط.

قال غوديسار لاهثاً: «يا للشيطان! أنت قوي جداً.

- إن السيّد فرنيه أكثر قوة مني.

- يا للشيطان! يا للشيطان! سأختار إذا المسدس.

- أنصحك بذلك، إذ باختياركما لمسدسات السرج الكبيرة وحشوها حتى فوهتها، لن تخشيا شيئاً، فالمسدسان ينحرفان[1]، وكل منكما يخرج سليماً محافظاً على كرامته. دعني أرتب هذا الأمر؟ إيه! من الحمق أن يتقاتل رجلان باسلان من أجل دعابة.

قال غوديسار: هل أنت واثق أن المسدّسين سينحرفان بشكل كاف؟ سأتكدّر جداً إن قتلت هذا الرجل.

- نم مطمئناً.

في صباح اليوم التالي، التقى الخصمان، وقد شحب لوناهما عند أسفل جسر لاسيز، وكاد فرنيه الشجاع أن يقتل بقرة ترعى على بعد نحو عشر خطوات منه عند حافة الطريق.

هتف غوديسار: «آه! لقد أطلقت رصاصتك في الهواء».

عند هذه الكلمات تعانق الخصمان.

قال الوكيل التجاري: «سيدي، كانت دعابتك ثقيلة نوعاً، لكنها فكهة. وأنا آسف لصفعة البارحة، فقد كنت خارجاً عن طوري، وإني أعتبرك رجلاً شريفاً.

ردّ الصباغ وما يزال الشحوب بادياً على وجهه: سيدي، سنؤمن لك عشرين اشتراكاً في مجلة الأطفال

---

(١) تنفجّر الطلقة في الهواء نتيجة ضغط البارود.

twitter @baghdad_library

قال غوديسار : بعد هذه النتيجة، لماذا لا نتناول الغداء معاً؟ فالرجال الذين يتقاتلون هم أقرب الناس إلى التفاهم.

قال غوديسار عند العودة إلى النزل: سيد ميتوفله، يجب أن يكون لديكم محضّر هنا. . .

- لماذا؟

- أريد أن أرسل أخطاراً إلى عزيزي السيد مرغريتس بوجوب إرسال برميلي نبيذ من كرمه.

قال ڤرنيه: ولكن ليس عنده هذان البرميلان.

- وبعد، يا سيدي، يمكن للقضية أن تسوّى بدفع تعويض عشرين فرنكا، إذ لا أريد أن يقال بأن ناحيتكم قد سخرت من غوديسار الشهير.

هرعت السيّدة مرغريتس، مرتاعة من قضية، المدّعي فيها على حق، وهي تحمل عشرين فرنكا للوكيل المتسامح؛ الذي جنّبَ التوغّل في أحد أجمل النواحي في فرنسة، إنّما أكثرها مناهضة للأفكار الجديدة.

عند عودته من المناطق الجنوبية، كان غوديسار الشهير يشغل المقعد الأوّل في عربة فافيت -غايار، وإلى جانبه شاب راح يتكرّم عليه منذ آنغولم بشرح أسرار الحياة، معتقداً دون شك بأنه ما يزال فتى غراً.

عند الوصول إلى فوفري، هتف الشاب: «هوّذا موقع جميل

قال غوديسار: نعم، أيّها السيّد، لكن البلاد غير محتملة، بسبب السكان، إذ يمكن أن تتعرّض لمبارزة كل يوم. فمنذ ثلاثة أشهر تبارزت بالمسدس مع صبّاغ لعين هنا في هذا المكان -وأشار إلى جسر لاسيز- لكنني . . . خدعته.

باريس، تشرين ثاني ١٨٣٢.

انتهت

دراسة حول المؤلّف والقصة

إعداد: بيير باربريس

لاحظ ستندال بعد ديدرو أن زمن الطبائع المجردة التي قام عليها الأدب الكلاسيكي (البخيل، والمقامر، والغافل) قد مضى ليحل محله زمن تصوير «الشروط» الاجتماعية للانسان»: التجديد العام في المجتمع، المكان الذي يتخذه العمل والمهن فيه، التمايز الاجتماعي المتزايد، ظهور نماذج جديدة من التجارب والوعي؛ كل شيء يَشرَحُ ويُلزِمُ بهذا التحوّل. وقصة **غوديسار الشهير**، بالتأكيد هي إحدى نجاحات الأدب الجديد في هذا المجال. ويقال اليوم غوديسار، وراستينياك كما يقال هارباغون، وطرطوف، وفيغارو. وفي الكون البورجوازي، فإنّ الوكيل التجاري الجوّاب، والذئب الشاب، يساهمان، بنسب مختلفة في التعبير عن حقيقة واحدة: فرنسة حديثة تُجرُّ في مغامرة خدّاعة. وضمن هذا المنظور، فإن الفولكلور ذاته يتخذ معنى جديداً؛ فالحادثة المزعجة التي يتعرّض لها الباريسي غوديسار في فوڤري تأخذ بعداً غير متوقّع. هذه هي المسألة في هذا العمل، فغوديسار هو أكثر من البوّاب بيبلت[1] أو المساعد فليك؛ والقصة التي يتمركز فيها، وهو أبعد من أن يملأها بمفرده هي أكثر من احدى هذه الصور التقليدية التي يرسمها هنري مونيه[2] والناشئة منه، والبرهان في المسلك الطويل الذي قاد إلى

---

(١) بيبلت: البواب في رواية «أسرار باريس» لأوجين سو.

(٢) هنري مونيه (١٧٩٩ -١٨٧٧): كاريكاتوري وممثل وكاتب: أوجد بالصورة والمسرحية نموذج البورجوازي الأحمق وأطلق عليه اسم جوزيف برودوم.

twitter @baghdad_library

النصّ الغريب في تشرين ثاني ١٨٣٣ ، والذي يبدو في ظاهره، هزلياً بشكل بسيط .

ذلك أن قصة غوديسار الشهير رغم إنشائها السريع «في ليلة واحدة» كماكتب بلزاك للسيدة هانسكا في أوّل كانون أوّل، لم تخرج جاهزة من رأس بلزاك المضطر إلى إنهاء جزء قصير جداً من مؤلف بسرعة . ويجب في الواقع الارتداد إلى أقدم من ذلك إن أردنا فهم ما حدث، وما أخذ قواماً . فهناك انطباعات، وأشياء مرئية، ومشاهد، وأفكار شاردة تقريباً، دون رابطة ظاهرة فيما بينها، تجمعت بحيوية لتصل إلى نصّ متماسك، نصّ صادم، ووجب فكرة كبيرة (السان سيمونية وارتكاسات هيمنتها) أن تمارس تأثيرها على معطيات جديدة، مولودة من تحوّلات كبيرة حصلت تحت الشمس : قوة الأفكار وتسويقها، نشوء الدعاية، تحديث فرنسة، تطوّر النقل العام، قيام أسواق جديدة مرتبطة بفتح الحدود الداخلية، مقاومات هذا التقدّم «الغريب»، إذ بدئ، بعد إعجاب كبير به، التساؤل عنه، ليس من أوساط اليمين فقط .

١- ١٨٢٠ -١٨٢١ : **ستيني** : مشروع روائي، بلَزاك يعود لرؤية مسقط رأسه منذ سنته الخامسة عشر وقد كتب :

هواء نقي، وسماء بزرقة سماء إيطالية، وإنعام عام من كل ما يعود إلى الطبيعة ذات الأيدي السخيّة في هذه البلاد، مما يجعل الإقامة عذبة . الكلام فيها رنان، وفي صفاء مماثل لصفاء السماء، ورغم هذه الأفضليات، نجد السكان بصورة عامة، كسالى، دون حيوية، ولعل هذا الطبع يعود إلى عذوبة المناخ إنه هدوء الهندي على ضفاف الهندوس ؛ حتى لسانهم خامل، فهم يشدون على نهايات الكلمات . ويبدو على الدوام أن الناس في مجملهم لاتجود مزاياهم إلا حيث تقسو الطبيعة . أما في المواطن السمحة، فإن البشر يستمتعون بنعمها وتستكين النفوس إلى الرفاهية . انّها قصة الأبناء المدللين . مع أن ديكارت ورابله وعبقريات أخرى ولدوا في هذه الوديان الخصبة : لكن ما من مَعلَمٍ يرشد الغريب إلى موطن

ديكارت، وهذا برهان آخر على اللامبالاة. رغم هذه العيوب، أحب وطني واللذات تغمرني.

٢-١٨٢٢- **العبد**: ميلودراما: في سيڤر، يتبجّح صاحب الحانة فليكوتل، وهو جندي قديم (يدفع إلى التفكير بصاحب المطعم فليكوتو) بالدالية والخمر بتعابير مثيرة للضحك، وهي مهجّنة بحركات لا إرادية وعبارات شعبية وعسكرية. ويكون مستغرقاً في موضوعه عندما يسأله سرڤال بخصوص باريسية غامضة: «هل ستأتي لوحدها؟ فيبدأ بالجواب «الدالية...» لكن شروده لا يصل، مع ذلك، إلى حَرف الحوار والاهتمام.

وفي **وان كلور**: بعد عدة أشهر، يُنقَل المشهد. ويلحق العاشق الذي يعتقد بأنه مخدوع عشيقته الخائنة حتى سيڤر، لكن الخمّار، وهو عسكري سابق دائماً، لا يتحدث بأسلوب مثير للضحك: وهو تساهل محتوم في رواية يفترض أنها عاطفية مؤثّرة. ونجد فيها مقاطعة تورين، وحافة اللوار، وتلال ڤوڤري، وكذلك ملاحظات جديدة حول غياب الفضول الثقافي لدى التورينيين ورخاوتهم، فهم في فرنسة أشبه برعاع نابولي لا يهتمون بكاتدرائية سان-غاتيان ولا «بحولياتنا».

٣٠- ١٨٢٣: **رسالة من لور**: من يايو تقصّ أخت بلزاك، بخصوص الصعوبات التي يصادفها الباريسيون في المقاطعات كيف أن أغلظ الفلاحين يخدع أذكى الباريسيين: مصدر محتمل لموضوع مرغريتس-غوديسار، وكذلك لموضوع فورشون-بلونده (في **الفلاحين**).

٤- ١٨٢٣: **الجنّية الأخيرة**: في هذه الرواية يعود إلى الظهور موضوع فرنسة المنعزلة، المتخلّفة، وعلاقاتها مع «الحضارة»

أولئك الذين سافروا قليلاً، يعرفون أن في فرنسة مناطق متخلّفة، قرى صغيرة منغرزة في الأراضي؛ بعيدة عن الطرقات، حيث يتم العيش في جهل عميق لأشياء هذا العالم، حيث لاتعرف تطوّرات العالم السياسي إلا بتغير الشعارات المنقوشة في رأس وصولات مكوس الجباة، أو على لافتات باعة البارود والتبغ

twitter @baghdad_library

بالمفرق، وهي لافتات تضمّ -بالمناسبة- تاريخ السنوات العشرين الماضية مكتوبة بست طبقات من الدهان المختلف باختلاف الألوان.

٥- حزيران ١٨٢٩ : **شرعة الأديب والصحفي من قبل مقاول أدبي** : المؤلّف غير مسمّى. لكن يحتمل أنه پول لاكروا، الذي نشر دراسات عديدة باسم مستعار هو هاوي الكتب جاكوب، ولا يستبعد أن يكون بلزاك قد تعاون معه في الشرعة أعلاه، ولكن من المؤكّد أنه كان يعرفه، فقد تناول مجدّداً بعض مواضيعه في **أوهام ضائعة**، وهي مواضيع كانت شائعة تقريباً في الصحف في أواخر عهد الملكية الثانية، لكنها مجمّعة هنا. لماذا «يُفصل بين عبادة الفنون وعبادة الثروات السيئة التوزيع[1]» كلّ شيء يباع : «الأدب التجاري» (وقد ورد التعبير في مقدمة قصة **وكيل الآردن الأسقفي** العام ١٨٢٢)؛ والقاعدة الجديدة لنول ربات الفنون. الفن، والأفكار بضائع. ويوجد هنا في آن واحد تقدّم وتحريف. التقدّم: الإنسان ذو الأفكار يعيش من أفكاره، وشبكات البيع الحديثة تسرّع تداول الأفكار وحركتها. التحريف: الوسيلة (التجارة، المال، التوزيع) تصبح غاية في ذاتها (الربح). المواضيع هنا مع «المقاولين» وهم ليسوا فقط روّاداً لكنهم أيضاً مستغلون: والنص يهدف إلى أبعد من التفرّدات الصغيرة للحياة الأدبية الباريسية. يبقى على الرواية أن تقدّم البرهان.

٦- ١٨٣٠ : **شرعة الوكيل التجاري الجوّاب** : والمؤلّف أيضاً غير مسمّى. ويحتمل أن يكون بلزاك قد شارك في اعدادها ومسلسلة الصحف السياسية وهو أحد مروجيها الرئيسين أشارت إليها في ١٢ أيار؛ والمقاربات تفرض نفسها؛ ونجد بصورة خاصة متعهداً في مكتبة يعرض على كاتب شاب مشروعاً يتعلّق بـ٣٣٠٠٠مشتر، وهو أكبر بكثير من المردود، وفي الفائدة، من المشاريع التي سبق

---

(١) رمز للثروات السيئة التوزيع وعبادتها بـCULTE DE PLUTUS: وبلوتوس مسرحية لارستوفات (٣٨٨ق.م) تقوم بنقد اجتماعي لهذه الثروات. أما عبادة الفنون فهي CULTE DES MUSES (المترجم)

أن قام بها حتى حينه. وقد اعتبر الكاتب الجوّاب كمبشّر بالحضارة، والتقدم، والانتصارات الجديدة. ووجهة النظر المسلّط عليها الضوء ليبرالية بيّنة؛ أو كما قيل آنذاك «تقدّمية». وفي آذار. وفي ذات **المسلسلة**. دافع بلزاك في مقال («الوضع الحالي للمكتبة»)، عن حق رجل الفكر في أن يستفيد شرعاً من أفكاره، وتصوّر منظمة تجارية جديدة تحمي المؤلّفين من طفيليي تجارة الكتب، السيئة التنظيم، ومن مبدّديها.

وفي ذات السنة، ومنذ شهر شباط، نشر بلزاك **نظرة على تورين**. (وهو نص أدرج في قصة **امرأة في الثلاثين**)، ولكن حول هذه الصفحة الشعرية فصّلت بالمقابل في الصحف وغيرها أدبيات كاملة حول تخلُّف حديقة فرنسة؛ وأشار الاقتصادي شارل دوبن في كتابه **قوى فرنسة المنتجة** (١٨٢٧) إلى أن إندر ولوار هي إحدى المقاطعات الأكثر تأخراً مما يؤكّد بدعم علم الإحصاء انطباعات **ستيني** أو **وان كلور**.

بعد ثورة تموز ١٨٣٠ وفي **رسالتين من رسائل ابن المقاطعات** (المنظورة غفلة من التوقيع في صحيفة **الوقت**) ثم في **رسائل عن باريس** (المكتوبة لصحيفة **السارق** لإميل دي جيراردن) يثير بلزاك من جديد موضوع هذه التورين، التي تعيش بعيدة عن كل شيء، وخاصة عن التاريخ المباشر. وهناك يُسخَر من التقدّم والثورات. ولكن ها إن شخصية نافذة تتدخّل، مراسل وهمي من شينون، كثير الشكوك حول «الانتقالات» الباريسية («مدير المنطقة الجديد، ومستخدمو الدولة الجُدُد يدعوننا لدفع الضرائب بذات النسبة السابقة) يشرح بأنّه منذ عشر سنوات كان مضطراً إلى شراء كل شيء من سوق المعرض، بينما «المضاربون» اليوم يعرضون ويسلّمون بضائعهم في المنزل، وبسعر أقل. هل لوحظ أو سُمِع هذا الشيء في تورين خلال الصيف؟ محتمل جداً. وعلى كلّ حال، يرتسم موضوع: المقاومة القرويّة للتقدّم الباريسي تأخذ قيمتها الناقدة في عمق التحليل القاسي «لانتقال» ١٨٣٠، الذي شكّلته **رسائل باريس**.

twitter @baghdad_library

٧- آذار ١٨٣١ : «وكيل تجاري جوّاب للحريّة» (وهو مقال غفل من التوقيع في **الكاريكاتور**)؛ وكيل تجاري جوّاب «ذو روح نبيلة، وعواطف كريمة، وكلّها أشياء لافائدة منها بتاتاً لتجارة الخمور أو الحرائر» يهتف: «لنهيّء المكان لحساب الحريّة!» ويذهب ليبيع صوراً للافاييت! وتوجد في مختلف مقالات تلك المرحلة انتقادات وسخريات ضد صحيفة «**الكرة**» والسان سيمونيين، الخ. . . مع بعض تحيات عابرة للمصلحين والكهنة الجددُ.

هكذا تتركّز بين مُدّة وأخرى، العناصر التي ستتبلور في قصة ١٨٣٣، بطريقة أقلّ توقّعاً مما تسمح بالاعتقاد بها قراءة أوليّة للنص الوارد في الملهاة الإنسانية، حيث كان كل شيء معلّقاً في السابق: نزاعات باريس والمقاطعات؛ «والتعقل» المحلّي، الذي يبدو تارة مقاومة حمقاء للتقدّم، وتارة أخرى مقاومة مركّزة ضد بِدَع المضاربة وتركيباتها؛ وتورين كمكان مفضّل لواقع المقاطعات؛ وانفتاح البلاد؛ والانعطاف الانتهازي بعد ١٨٣٠؛ وشخصيّة الوكيل التجاري الجوّاب. لكن عنصراً يبقى في الظاهر غريباً عن هذه الحزمة الموضوعية: العيّاش الجيد، الضحّاك المرح. وقد أوضح بلزاك هذه النقطة، دون شك: فأصدقاء فريق عمل جيراردن، وخاصة لوتور -مزراي غذّوا النصّ من مؤلّف «**المفصّل حول الحياة الأنيقة**» ومن الطبعة الأولى **من جلد الحَبَب** . لكن ج. ب. كلارك قدّم توضيحاً ذا أهميّة: يوجد بين عيّاشي نهاية عهد الملكية الثانية الذين كان يعاشرهم بلزاك، شخص باسم غوبيّار[1]، «غوبيّار الشهير» هو أساس «جميع الحكايات الفكهة، وجميع المقالب الفائتة الملعوبة في ذلك الزمن من قبل هؤلاء السادة الذين. . .» (من مقال غفل من التوقيع وموثّق، ظهر في العام ١٨٤٥، في **صحيفة المسارح** يحدّد بشكل قاطع النموذج المعتمد من بلزاك). وهكذا تقوم عبّارة هامة بين عالم أوّل راستينياك

(١) ر. ج. ب كلارك: «نموذج ممكن» «لغوديسار الشهير» في السنة البلزاكية ١٩٦٩. وستشاهد فرضية أخرى عن الأصل المحتمل لاسم غوديسار في مقدمة السيدة مينينجة في طبعتها لغوديسار الثاني.

متصوّر في العام ١٨٣٠ من أجل **جلد الحبب**، وعالم الوكيل التجاري الجوّاب؛ بين أوائل **مشاهد من الحياة الباريسية** (وهو عنوان حدّد فيما بعد) **ومشاهد من حياة المقاطعات** التي تحلّق عالياً.

في نَغَمتها، تسجّل قصّة **غوديسار الشهير**[١] جدّة مفاجئة في الإنتاج البلزاكي، على الأقل في الانتاج الرسمي ذي المكانة الأولى، وفي المكتبة. ففي العام ١٨٣٢ كان بلزاك شهيراً في رواياته حول الحياة الخاصة، وقصصه الفلسفية أو الخرافية، وكلها أعمال مؤثّرة ورصينة: وزولما كارو السيّدة الوفيّة التي أحبت كثيراً ماكتبه صديقها أونوره عن المرأة، صدمت بالمجون الظاهر في هذه القصة، فهل هي فعلاً نص -انزلاق؟

يلاحظ برنار غويون بحق أنها مرتبطة بإيحاءات القصص الماجنة التي كانت تشغل مكانا معتبراً في اهتمامات بلزاك. ولكن ألا يمكن العودة إلى ما قبل ذلك؟ كيف يمكن نسيان الأسلوب الفكه في **جان لويس**[٢] العام ١٨٢٢؟ أو التفكهات العديدة للمقالات التي ظهرت خلال ١٨٣٠ -١٨٣١ في **لامود، وسيلويت، والكاريكاتور**، وحتى تلك التي ترصّع جلد الحبب. وبلزاك يعرف تماماً كيف يزخرف نصاً فكهاً: وسيعطي براهين جديدة عن ذلك في أكثر من موضع من مؤلّفات الملهاة الانسانية: في **ربّة وحي المقاطعة، وأمير من بوهيمية، والممثلين الغافلين**.

لم تخلق المركزة التورينية أي مشكلة، فبلزاك يعرف جيّداً ڤوڤري، حيث يملك السيّد ساڤاري منبذاً رئيساً، وهو مضيف بلزاك منذ العام ١٨٢٣ لأكثر من مرة في منزله لاكايّري، المسمّى في النصّ. ونحن نعلم الآن أن سافاري هو النموذج الرئيس للأب غرانده، وأن بلزاك عندما روى هذه القصة الأولى عن كرّام، نقل رواية تورينية إلى آنجو. وموقع ڤوڤري الذي أشير إليه سابقاً في **وان كلور** وفي **ستيني**، موجود أيضاً في قصة **الصديقين** (١٨٣٠) كما أن ضفة اللوار،

---

(١) في غوديسار الشهير [. . .] طبعة برنار غويون -كلاسيكيات غارنية. ص: XX١

(٢) رواية نشرها بلزاك في العام ١٨٢٢ تحت اسم مستعار هو «اللورد رون Lord RHOONE»

twitter @baghdad_library

وجسر سيز، وموقع لاغرناديير كلّها مناظر طبيعية مألوفة؛ حتى أن النصّ يبدو وكأنه منشأ مباشرة بعد نزهة، ويتضوّع منه عطر ذكريات الطفولة، بقدر التعرّف على أماكن قضاء العطل والاستراحة. ومع ذلك ينقص **غوديسار الشهير**، القصة التورينية، دراسة القوى العميقة التي تضفي عادة على الإقليمية البلزاكية، تبريرها «الاجتماعي». فلا وجود هنا لهذه النزاعات العميقة، وهذه المآسي الخفية، فإنارة القصة، وبشاشتها يحولان دون ذلك. مرّة واحدة نحسّ أن بلزاك سيتحوّل إلى هذا الاتجاه، عندما يكشف في السيّد ڤرنيه عن «زعيم تلك الفئة من صغار الملاكين الحاسدة، الغيور، المردّدة ضد الارستقراطية كلّ الاغتيابات، والناشرة عنها بغبطة كل النمائم، تحطّ كلّ شيء إلى مستواها، وتعادي كل رفعة وتفوّق، بل وتزدريهما بهدوء الجهالة العجيب. لدينا هنا مقولة المديوقراطية(*)، وموضوع **الفلاحين** (المخطّط لها في البدء لتكون رواية تورينية). لكن المقولة والموضوع يجهضان ويتشعّبان، أو يوضعان في الاحتياط، كما سيحدث أكثر من مرة حتى العام ١٨٤٤. هذه التورين، وهي من بعض النواحي دون مشاكل، تبدو مع ذلك ذات مغزى في النطاق الذي صححت به الصورة والعرف الناقد اللذان عرضهما عنها بول لويس كوريه(١). هؤلاء التورينيون الذين يحبون أن يرثوا عن ذويهم، الذين يعملون بهدوء، والذين لايسعون، بسذاجة، إلا لبيع الأشياء بأكثر مما تستحق، ويتسلون بتناول أربع وجبات في اليوم، ويهتمون بالعناية بكرومهم، وحسن توضيب خمورهم؛ يُعرَف تقريباً من أين هم آتون، لكن الإشكال والصراع ليسا واحدين، فأعداء كرّامي بول لويس كوريه الرهيبون هم النبلاء الطفيليون، وحكومة البوربونيين. لكن النزاع من الآن فصاعداً قد انحرف، والمفردات غدت تجارية؛ والتعقّل القروي لم يعد يتصدّى لتعسّف النبلاء وتطفلهم، وإنما للقوى

(*) المديوقراطية: كلمة مركبة من Médio: ضعيف و Cratie: قوة أو سلطة وتعني: سلطة الضعفاء.

(١) بول لويس كوريه: (١٧٧٢ -١٨٢٥) من مواليد فيريتز في مقاطعة اندر ولوار، بورجوازي ملاك دخل الكلية العسكرية بناءً على رغبة والده، لكنه انصرف إلى المكتبات ودراسة الأدب الإغريقي -بدلا من ميادين القتال وفنون الحرب، تحدث عن منطقته وعن تورين خاصة في كتابه: إلى أرواح خورنية فيريتز (١٨٢١) (ملاحظة من المترجم).

الجديدة المتولّدة عن النمو الرأسمالي، والأسياد الجدد، الذين يهددون أو يمكرون، هم أسياد المصرف والمضاربة. وها نحن مقادون مباشرة إلى المعنى الاجتماعي السياسي للنصّ. والواقع أن هذا المعنى قد تحضّر اعتباراً من معطيات وذكريات واقعيّة.

فيما يتعلّق بالمضاربة، وبيع الأفكار، والتأمينات، والمشروعات الأخرى، فإن «المنابع» معروفة جيّداً. ومن المعروف أن برنار فرنسوا بلزاك -والد أونوره- سجل على تونتينة وجب أن تصب على رأسه، في عمر معيّن، رؤوس الأموال المتراكمة عقب وفاة المسجّلين الآخرين المتوقّعة. والواقع أن الابن وجّه الموضوع نحو التأمين الواجب للعبقرية والموهبة: وهي مناسبة لينقد بشكل قاس مجتمعاً لايؤمّن شيئاً لمفكريه، ويعرّضهم إلى «الأدب التجاري». وبلزاك يعرف جيّداً الموضوع، وهو الذي أراد أن يؤسس بعد ذلك بسبع سنوات شركة رجال الأدب. وغوديسار في نقاشه مع مرغريتس يلجأ عند هذه النقطة إلى حجج يدهش نطقها من فم مزّاح مستخفّ، ولها بالطبع قيمة الاعترافات. غير أن ديناميكيته، وفصاحته، وحماسته، تتغذّى من منبع آخر دقيق، مشروع شركة اشتراكات عامة معدّة من قبل بلزاك في نهاية العام ١٨٣٠، وكانت غالباً موضوعاً لمراسلات مع زولماكارو حتى نهاية العام ١٨٣٣، وقد درست من قبل السيد رولان شوله[1]. وكما في العملية المخطّط لها في العام ١٨٣٠ في **مسلسلة الصحف السياسية** يتعلّق الأمر بتبسيط دارات التوزيع، والبيع بسعر أرخص للقرّاء، وعائدات أكبر للمؤلّفين. وأفضل من ذلك: يتعلّق الأمر «بالعمل على تصفية المعارف التاريخية للجماهير». وبالتوازي مع أوّل مشروعات لصحافة أرخص ثمناً لجيراردن (صحيفة **السارق**، في ١٨٢٩، و**متحف العائلات** في ١٨٣٣)، يتّضح جو مضاربة جامحة، تختلط فيها الرغبة بربح المال مع الرغبة في نشر الأفكار، والتثقيف والتعبير. ومن جهته فإن لوتور -مزراي أطلق في العام ١٨٣٢ **صحيفة الأطفال** التي نوت أن تستثمر شريحة عريضة من الزبائن لم تستكشف حتى ذلك التاريخ. أخيراً فبلزاك يعرف منذ تاريخ

(١) واقعة مجهولة في تاريخ المكتبة: شركة الاشتراكات العامة. مجلة العلوم الانسانية ١٩٧١.

twitter @baghdad_library

طويل موارد الدعاية عندما وجب أن يكتب رواية **سيزار بيروتو**؛ وهكذا يتسلّط الضوء على معطيات النزاع: فعاليات «مضاربيّة» (بمعنيي التعبير) تتجابه مع عادات إقليمية جامدة.

وغوديسار الشهير، بالرغم من أنها «مشهد من حياة المقاطعات» لاتستمد في الواقع قيمتها إلا بالتعارض مع الحياة الباريسية، حياة المشاريع والأفكار، والأفكار الأكثر تحرّراً والأساليب الأكثر تفنناً مع كل التفرّدات الممكنة. وقد قرن النصّ في العام ١٨٤٣ مع **ربّة وحي المقاطعة** في مجموعة فرعية باسم الباريسيين في المقاطعات.

ونحن نعلم أن بلزاك، منذ العام ١٨٤٠، قد خطّط لكتابة **رجل كبير من باريس في المقاطعات** ويوجد هنا قَلب في الحركة الرئيسة **للملهاة الانسانية** التي تحمل نحو العاصمة أصحاب الطموح، وغير الراضين، وطاقات الحياة الإقليمية (روبمبره، فيكتورنيان دسغرينيون، أو سافينيان دي بورتونديير، وكذلك سيزار بيروتو، ومارتن فالكس، وراستينياك وآخرين غيرهم).

هذه الحركة الأخيرة تنزح قوى، وجدت أحياناً مشوّشة أو متقوّضة، وهي لاتأتي لتقوية ظاهرة تراكم طاقة حديثة متركّزة في خدمة وجود أكثر تفتحاً. بل بالعكس، ففي **غوديسار الشهير**، وفي **ربّة وحي المقاطعة** المقرونتين عن قصد، فإنّ الباريسيين لاينطلقون إلى المقاطعات إلا بنية العودة إلى باريس، وخاصة بقصد الخداع أو الاستغلال، أو التسلية، أو لتحريك الواقع بوقاحة (وهذا هو وضع **نائب آرسي** الذي ينتمي إلى ذات الدورة الايديولوجية). وباريس المتسلّطة لاتتصوّر المقاطعات إلا مجال نشاط لمشاريعها، وشيئاً يمكنها التصرّف فيه، وهي وحدها الموضوع والمفكرة. وحده الدكتور بناسيس، الذي يتميّز بأخلاق أخرى، وله نظرة أخرى، أرسل من قبل بلزاك إلى المقاطعات (أو على الأصح إلى الريف) لتنظيم الحياة، أو لإطلاقها إلى أبعد من الايديولوجية الليبرالية، نحو إمكانات جديدة. وبصورة عامة، فإن الباريسي في المقاطعات ذو عاطفة، تتعلّق بحقيقة موضوعية،

هي أن يمثّل حالة أسمى من الوعي أو الحضارة، تجاه بشرية متخلفة أو مشوّشة. الباريسي في المقاطعات لا يحب المقاطعات إنما يستخدمها، ففيه شحنة فائضة من القدرات والطاقات، من وجهة نظره، وهو يسعى لاستخدامها على حساب أبناء البلاد الأصليين، متخذاً ذريعة المصالح المحلية، أو جوارب الصوف، أوالنساء المتوحّدات، أو القوى السياسية. وبلزاك يقدّم هكذا تجربة عكسية مضادة للمركزية: فإن وجد نزح واقتلاع في اتجاه، فلا يوجد في الاتجاه المقابل صدمة لعودة إيجابية إلى الحضارة، ولا إرادة أو استعداد منّظمان.

لكن هذا هو أكثر من فولكلور، فالوضع العقلي لغوديسار، مثله كوضع لوستو قائد المرتزقة أو مكسيم دي تراي المعتمد الانتخابي، لا يصوّر فقط أعراضاً أو انحرافات سيكولوجية، إنّما وبصورة خاصة علاقات قوى محدّدة. فالحركة التي تُثورٌ فرنسة التقليدية تتم في اتجاه واحد؛ والقوى والطاقات الكامنة، انسانية الاحتياط، التي ما زالت «غير باريسية» لم تندمج أو ترقّع، إنّما استخدمت فقط. وإثبات رئيس: الانفصام الحقيقي وراء التعارض بين الباريسيين وأبناء المقاطعات هو بين مُستغلّين ومُستَغَلين. وبلزاك يرشدنا إلى تصوّر هذه الحقيقة. فالناس متباعدون بانشقاقات زائفة؛ وعلى الأدب المقروء بشكل صحيح أن يكشف الشرَك.

هذه المقولة الإجتماعية التاريخية، هذا المحتوى الاجتماعي للنصّ، يبدوان موضّحين، على مستوى الطبع بوسائل سيكوفيزيولوجية، بترميز يأخذ هنا معنى قوياً جداً: هو الترميز الشهواني -الجنسي. فالباريسي في المقاطعات، القوي جداً في المجون، الفحل، يحيط خادمات النُزُل بالخصر أو بالعواطف، غاوٍ ماهر يغتصب المقاطعات، كما يمارس الحب مع عارضات الأزياء أو بائعات الزهور الباريسيات. وغوديسار، كما يقول هنري برنستين[1]، «مغازل» بورجوازي بالنتيجة، حالم في أن يضع بين أثاثه سيّدة أفكاره التي تتصرف معه بالطريقة الأكثر

(١) هنري برنستين: (١٨٧٦ -١٩٥٣): مؤلف مسرحي فرنسي شهير.

twitter @baghdad_library

بورجوازية في المعاشرة. والمشاهد الخفيفة، والمراوغات العديدة في النصّ تهدف إلى شيء آخر غير المرح الجسور البسيط، والتأثيرات الممتعة. فالعبث مع بائعة الأزهار الجميلة، والدالاّت المفرطة مع خادمات النُزُل، والذعابات حول «الأطفال» الذين سيصنعهم في المقاطعات، ثم حول الذين صنعهم؛ والثبات في الموقف، والمظهر الرشيق العصبي، والثقة بالنفس: لاتترك مجالاً للشكّ؛ فعنفوان غوديسار، وأسلوبه الجريء، ونجاحاته؛ كل شيء يعبرّ هنا عن نموذج من العلاقات قائم على إرادة قوّة مرحة (تعتبر إرادة الأب بوڤاري، رغما من أسلوب الوكيل التجاري الجواب، كئيبة تجاهها، وغزواته فجوراً بالنسبة لها). وكما يذهب بلونده ليضاجع السيّدة دي مونكورنه التي تعاني من الملل في قصرها (في رواية **الفلاحين**) وكما يدعك لوستو في العربة ثوب السيّدة لابودري الأورغاندي ليعرضها للشبهات، ويجبرها على الاستسلام، لأن المظاهر الفيزيولوجية قانون عالم قائم على الامتلاك وقهر الآخر فقط؛ ومن هنا معنى المقذوفة المضادة للسان -سيمونية: «اصمتي، أيتها المرأة الطليقة». لكن يوجد هامش بين مرح غوديسار الآسر، وشهوانيته الواضحة، وحبّ بلونده البورجوازي أو أنانية لوستو البسيطة: فغوديسار مايزال في انطلاقة جذلة، ومعه عالم مايزال بريئاً أو على الأقلّ يعتقد أنه كذلك؛ وهو تحت مظاهر من الفساد البورجوازي يمكن الاستدلال عليها، ينطلق في فورة من صبوة الشباب.

كان برنار غويون على حقّ في أن يسمع من خلال قصة **غوديسار الشهير** نشيداً للرأسمالية الوليدة بدأت بعزفه ثورة تموز ١٨٣٠. والواقع هناك فرق بين الفرحة القصيرة نسبياً التي عبرّ عنها الأب غيّوم عندما رأى الإكوات تتدحرج في التجارة التقليدية (قصة **مجد وشقاء**) وبين هذا الحماس للمشاريع الكبرى، وهذه المضاربات المطلقة العنان على المستقبل. وصحيح أيضاً أن قصة الخداع هذه تبتدئ كما قصة **بداية في الحياة** التي تلتها فيما بعد (حيث الباريسيون المخادعون لايحملون أيّة رسالة) في لوحة واسعة للحضارة الحديثة تقابل العالم السابق، والوكيل التجاري الجوّاب فيها إحدى القطع المعبرّة عن التحوّل الكبير وكما هو الأمر دائماً فإن بلزاك ينطلق من الأعلى، من وصف «التركيبات» و«التنسيقات»

الجديدة: فلسفة للتاريخ توجّه الحكاية وتسلط عليها النور الحقيقي المناسب لها وبرنار غويون كان على حق أيضاً عندما أشار إلى أن في قصة **غوديسار**، يُدخَل الوكيل التجاري الجوّاب، الموصوف بتسطح في **شرعة ١٨٣٠**، «في استهلال بمثل أبهة **مقالة حول التاريخ العام**[١]» مع أن الأمر هنا لايتعلق بموقف جاد، ولا بطموحات علمية ذات قيمة ساخرة. ورأى بلزاك أن الشخصية، بأفكارها، وهذرها، ليست تافهة ولا سطحية، لكنها تحمل بعمق معنى، وتجسّد كلّ ديناميكية وكلّ نموّ مجتمع محرّر. وبهذا المعنى فغوديسار «هو مبشر» الرأسمالية الوليدة»[٢].

لكن يوجد أيضاً القيمة المعطاة لمقاومة ڤوڤري، ولإخفاق غوديسار الذي ينجو منه بحيلة، لكن رائحة فشل كريه بدأت تفوح منه. وفي العربة التي أعادته إلى باريس، يهتف الشاب الجالس إلى جانبه بسذاجة لمرأى ڤوڤري: «هوّذا موقع جميل» وغوديسار، وقد بدأ من آنغولم يوجّهه، يردّه إلى الصواب سارداً له على طريقته حكايته في هذه الأمكنة المحمودة. وقد كتب برنار غويون: «شاب في مقتبل العمر، وإلى جانبه رجل ناضج يشرح له أسرار الحياة، من آنغولم وفي الطريق إلى باريس.. أي طعنة في القلب! فجأة يسقط قناع غوديسار الفَرِح ليبدو وجه الرجل الجهنمي، الذي سيكشف على ذات الطريق لشاب آخر أسرار الحياة: كارلوس هريرا المعروف بڤوترن»[٣].

هذه المقاربة ليست متكلّفة، فالأسلوب وحده في **غوديسار** يحجب مرارة الكلام والتناقض موجود من قبل. والمجتمع المتحرّر راح يتجهّم، وراحت الابتسامات تغيب. وبهذا المعنى يمكن أن نكتشف في هذه القصة كما كتب جاك سِباشِر، «التباس بلزاك العميق، الموسوس؛ تفتنه الرأسمالية في ازدهار نموّها الممثل

---

(١) طبعة برنار غويون لمؤلف بلزاك **غوديسار الشهير وربّة وحي المقاطعة** -كلاسيكيات غارنية ١٩٧٠ الصفحة XLII. أمّا كتاب «**مقالة حول التاريخ العام**» فهو من تأليف بوسويه وقد أعد لتدريس ولي العهد ابن لويس الرابع عشر.

(٢) عنوان مقال لبرنار غويون نشر في مجلة أوروبة -عدد كانون الثاني -شباط ١٩٦٥- في ندوة عن بلزاك.

(٣) من مقدمة طبعة برنار غويون: «غوديسار...» في كلاسيكيات غارنيه ١٩٧٠، ص: XLII.

twitter @baghdad_library

بغوديسار، ويحول بينه، وبين الانتساب إلى هذه الرأسمالية، تعلّق كبير ببعض أشكال التقاليد الفلاّحية، والحرفيّة، والفنيّة، والوطانية، التي يتم تبلورها، أكثر من أيّ مكان آخر، في هذه المنطقة التي هي بالذات حَصْرٌ ثقافي مستمر لذكريات القرن السادس عشر، وخيبات أمل الامبراطورية»[1].

لكن يجب التدقيق، فالأمر لايتعلّق فقط ببلزاك -الانسان، وإنّما أيضاً بما يتجلّى في النصّ. ومع ذلك فبلزاك -الإنسان ليس وطانياً توّاقاً للنظام القديم للأشياء. والصفحات القاسية في رواية **حجرة العاديات القديمة** عن آلنسون، عدا عن غيرها، تثبت ذلك. فهذا المُغرَم بالجنة التورينية ليس ماضوياً؛ وضد تلفيقات الحداثة الرأسمالية، التي لم تصل بعد إلى حدّ الحماقة، فإن معنى نقده لايتجلّى إلا عبر حركة القوى المتناقضة حيثما تتدخّل. وإقليميته تأتي بالتأكيد من مصدر عميق. مجابهة جنون العاصمة بحكمة القرى، هذا هو الموضوع المركزي في قصة **الجنية الأخيرة** وقرية آبل هي واحدة من هذه «اليوطوبيّات» التي ماتزال في مستهلّها، وماتزال بعيدة عن يوطوبيات **طبيب الريف**، **وكاهن القرية**، حيث الحكماء، والأخلاقيون، والفلاسفة قد بيّنوا باستمرار عَبَث الحضارات القائمة. فأي أهمية لبايرون، أو لغاز الهيدروجين، أو لزيت المُكسَّر[2] ولجميع هذه المباهج الحضارية لأناس لا يعرفون من حكومتهم إلا وجه جُباتها؟ والجنّية تشرح في آبل كيف ولماذا يجري الجدل في باريس على الأزرق، والأبيض والأحمر، وكيف أن العباقرة البيض يرون كل شيء ورديّاً، والعباقرة الزرق يرون الأشياء سوداء، أما العباقرة الحمر فلايرون شيئاً على الاطلاق؛ فهناك بابل الواسعة المسلّمة للنزعات، ولعمليات المجتمع التجاري، وكل شيء فيها يسير إلى الأسوأ بسبب عدم استعمال لغة واحدة. لاشكّ في هذا... ولكن من جهة أخرى، من المعروف جيّداً **أن ستيني**، **والغائرين الملكيين**، **ورسائل عن باريس** تدين بحزم مقاومات تقدّم الأنوار،

(١) مما ورد في المقال المذكور في الملاحظة رقم(١) أعلاه، الصفحة ١٤٤.

(٢) مَكَسَّر: مرفأ في اندونيسية على خليج المكَسَّر بين بورينو وسِلِب اشتهر بصيد الأسماك وتصدير المواد الغذائية.

وتنشر الأفكار التنظيمية والمُركّزة. وبعد؟ هل هناك تناقض بين بلزاكين، أحدهما مركزي والآخر إقليمي؛ بين مدح ونقد السان-سيمونية وكلاهما متضمن في قصة **غوديسار الشهير**؟ هل يوجد عجز في فكر يسعى إلى وحدته؟ إن الحلّ هو في النص، حيث يبدو، ويتسجّل ويتهيأ للقراءة تجاوز للتناقض. «فالحضارة» ليست جنّة عَدَن، وليست التقدُّم. فهي تحطّ من مقام جنّة عدن، وتكذّب التقدّم؛ وتشهد ضدها الجنّة، كما يتحدّث ضدها نجاح في خدمة المصلحة، نجاح زائف. والخزي الأخير لغوديسار وتراجعه المخجل وعدوله عن الانتقام تقود إلى السخرية من الأفكار المتلقاة. وهكذا يُبحَث عبثا عن الترابط الإيديولوجي في مواقف متخذة بيّنة ومؤيّدة، وهي متناقضة بالضرورة كما الواقع الذي تجابهه أو تحاول التعبير عنه: فلا وجود لموقف ديناميكي وصريح إلا في النتاج الأدبي. وقصة غوديسار يجب ألا تُقرأ كبيان عام وإنما كنصٍّ.

عندئذ سينظر إلى سخرية العنوان، كالسخرية التي ستبدو بعد ذلك في **بهاء وتعاسة الغانيات** بجدٍّ، وتكشف تماماً عن فعاليتها. فغوديسار شهير، وأُشهِرَ في مواضع من الحياة الاجتماعية يتجاهلها عن تصميم الأدب الرسمي والنبيل. فأين يوجد نظير الوكيل التجاري الجوّاب، في تأثيره، وفي أسطورته، في العام ١٨٣٣، هل يوجد لدى لامارتين، أو هوغو، أو ميشله؟ كما أن فلوبير فيما بعد سيزدري بدوره هذا النوع من الشخصيات. والحال يوجد في غوديسار المغامر والمتبجّح المقترنان طبيعياً في بطولة ما مضى: هذا، ما يجب رؤيته وقوله. لكن مكان الشجاعة، والمغامرة، والمآثر، والتباهي قد انحرف: ففرنسة، من الآن فصاعداً، هي فرنسة التبادلات والدارات التجارية، فرنسة البضائع والأفكار. والمبارزة، في نهاية القصة، ليست إلا وسيلة لربط الاتجاهين القديم والحديث، في ذات الوقت الذي تؤكّد فيه على الماضي السياسي والجريء للبطل الذي قاتل في تموز، وبلزاك يحطّ هكذا من قدر الأبطال التقليديين، ويمجّد البطل الحالي، لكن هذا الحالي يأخذ بعداً جديداً.

twitter @baghdad_library

أما الخاتمة التي أضيفت على التجارب الطباعية فتعطي فجأة قواماً، وربّما مهمة جديدة للوكيل التجاري الجوّاب. وقد تفسّر أن بلزاك تمكّن من أن يعطي دوراً في **الملهاة الإنسانية** لشخص لا يظهر على ما يبدو في الرواية قدر ظهوره في شكل تخطيطي أو رسم كاريكاتوري.

وسيبدو للمرة الأولى مجدّداً في رواية **سيزار بيروتو**، العام ١٨٣٧، ويُردُّ إلى عدة سنوات قبل حادثته المزعجة في فوڤري، وهو يقوم بمساعدة صديقه آندوش فينو في الترويج الدعائي لقضية بوپينو. وفي العام ١٨٤٧، في **النسيب پونس**، سنجده، بحماية بوبينو الذي غدا وزيراً، «نابوليون مسارح الجادات». وفي ذات السنة يخطط بلزاك لإظهاره في **المرأة المؤلّفة** كمدير فائق الغنى لأحد المصارف التجارية. وفي نهاية سيرته، في **بهاء وتعاسة الغانيات**، سيقصُّ كيف قبض على وكيل تجاري جوّاب شاب في العام ١٨١٦ اسمه غوديسار وهو متهم بالمشاركة في مؤامرة من قبل تنظيم الفحّامين وذلك في المقهى الذي يؤمّه مفوّض الشرطة لابيراد المتنكر بشخصية الأب كانكويل. وهكذا منذ العام ١٨٣٣ تبدو الشخصية الجذّابة، على مرّ السنوات، مزوّدة بماض وبمستقبل، ويبدو الحادث العارض في فوفري نقطة من قَدَره سُلّط عليها الضوء بصورة خاصة. إذ أن غوديسار، بالنسبة لمؤلّفه، أكثر تعبئة بالمعاني، على الأرجح، مما يشير به «ارتعاش عباراته»: فغوديسار استطاع أن يغدو بدلالة النص الذي صنعه أبعد من الطُرَف و«النماذج»

ومع ذلك، وبالإجمال، ما قيمة هذه الشخصية التي غدت مثالاً، ومعلماً. يمكن أن ننظر إليها على مستويين. نراها أداة التحوّل الموضوعي في لحظة محدّدة من الوعي الحديث؛ وكذلك أيضاً وجهاً إيديولوجياً يمتد معناه حتى الوقت الحاضر.

بما أنه، كما هو واضح، ذو ماض «يساري»، وذو ذكريات عن المقاومة، ومتحدث بليغ، ومتعدّد الاختصاصات في فرعه، وقد تعرض لدَعكات في بعض المناسبات، لكنه استطاع أن يتجاوزها كلُّها، وهو تواق إلى البورجوازية، ومفعم بالازدراء للقرويين الأفظاظ، وبازدراء أكبر للفلاحين؛ مغوي فتيات، لكنه يحلُم

بجناح في الضواحي، متشكّك في السياسة، مع أنّه متسيّس كبير، انتهى إلى الأعمال التجارية الكبرى بعد أن عمل في الصناعة المسرحية، علماني وصائب الرأي. فغوديسار يمثّل بشكل جيّد تقريباً فكرة ما أو بالأحرى، ممارسة ما، ليس لكل فرنسة وإنّما لبعضٍ من فرنسة. هذا الرجل النظامي الدقيق يطفح بمقاومة الأعراف المسكّنة، ولو أنّه في أزمنة أخرى لكان سريالياً في شبابه. وفي غوديسار يمكن لبورجوازية صغيرة كاملة وللبورجوازية الفرنسية كلها أن تتأمل فيه حتى الآن صورتها الذاتية، دون أن تحسّ في حلقها بهذا الغثيان الذي سيتولّد من صور فلوبير. فغوديسار ليس جوزيف برودوم[1]، ولا هومي[2]، لكنه يذكّر بهما إلى حدّ ما؛ ويمكن تخمين أي معنى يمكن أن يأخذ بالنسبة لأجيال المستقبل «السيّد أنا الذي يكلّمكم»... ويجب إعادة قراءة هذا الدرس المعطى للشاب في العربة في خاتمة القصة: فكل بشاشة الشخصية ومرحها تخفي وتقول في آن واحد ارتيابية وتشاؤماً عميقين، فغوديسار هو آنفا من سلالة بونشارديه أو سان أنطونيو، الواعين جزئياً لتورّطهم في حالة من أزمة، يتحركون للخلاص منها بالمغالاة في الكلام: هذا بالتأكيد أحد معاني الشخصية، وربّما كان الأكثر فاعلية منها ولكن بشاشته، وحيويته، وإحساسه بالواقع (وهي موجّهة جيّداً في النصّ ضد المتخلّفين أصحاب الجوارب الصوفية كتوجّهها ضد تجار الشركات الجديدة) عملت على عدم استطاعتنا تجنب الرؤية فيه خاصةً أوليّة ممتازة مهدورة. فغوديسار يظهر وكأنّه مُحتكر كلّياً بالنظام الليبرالي والفردي. وقد خلقت مهنته فيه طبيعة ثانية، فهو لايستطيع أبداً الكلام أو التفكير خارج النظام، وهو يبدو وكأنّه الحَكَم بينما هو لا يتعدّى كونه القرينة.

بيير باربريس.

---

(١) جوزيف برودوم: رمز البورجوازي الأحمق في كاريكاتور هنري مونيه.

(٢) هومي: أحد شخصيات رواية «السيدة بوفاري» لفلوبير وهو يمثل الحمق البورجوازي (ملاحظة المترجم)

twitter @baghdad_library

٤- غوديسار الثاني

دراسة طبائع

مشاهد من الحياة الباريسية

العنوان الأصلي:

BALZAC
LA COMÉDIE HUMAINE

GAUDISSART II

ETUDES DE MŒURS
SCÈNES DE LA VIE PARISIENNE

twitter @baghdad_library

غوديسار الثاني

الإهداء:

إلى الأميرة دي يلجيو جوزو ابنة ترِيْفُولس[1]

معرفة البيع؛ والقدرة على البيع؛ والبيع! إن الجمهور لايشكُّ أبداً بالسمو الذي تدين به باريس لهذه الوجوه الثلاثة لمسألة واحدة: فألَقَ المخازن بمثل غنى

(١) الأميرة كريستينا (١٨٠٨ -١٨٧٢) ابنة جيرولامو تريفيلزيو؛ ولدت في ميلانو، تزوّجت باكراً، وانفصلت باكراً، من الأمير المتقلّب إميليو باربيانو دي يلجيوجوزو دسْت. وهي تعدُّ من شخصيات المجتمع، والأدب، والسياسة في عصرها. نُفيت لعلاقتها بجمعية الفحّامين السريّة، وحجزت أملاكها من قبل النمسة في العام ١٨٣٠، فاستقرّت في باريس حيث غدا صالونها من أشهر الصالونات بضيوفه المشاهير وغراميات صاحبته الشهيرة. وفي العام ١٨٣٣ التقى بلزاك لأول مرّة بتلك التي سماها بعد ذلك الأميرة الجميلة المرحة P.BELLE JOYEUSE ولا تمكن الرسائل الموجهة إلى السيّدة هانسكا من معرفة مدى العلاقة بين بلزاك والأميرة. إذ أن هذه الرسائل لاتتعدّى الهذر حول لقاءاته تجنباً لإثارة غيرةالغريبة -رغم تعدّد هذه اللقاءات، وهكذا فهو يكتب في ١٦ أيار ١٨٤٣: بأنها انتزعت ليْست من داغو، كما انتزعت لورد نورمانبي من زوجته، ومينيه من السيّدة اوبرنون، ومُورِ من جورج صاند، الخ . . .» وهكذا يكتب في ٧آب ١٨٤٤: «إنّها رغم علاقتها بليست ومينيه، تمارس جميع نزوات قرن لويس الخامس عشر، وهي أخيراً امبراطورة دون أي اهتمام بالماضي [. . .] إنها عاهرة، امبريا الجميلة، متحذلقة أدب بشكل رهيب. فما قبل البارحة تركت مكتبها لتستقبلني، وجاءت وبقع من الحبر على مبذلها. وهي مدّعية تكثر من أحكامها وتستقبل عدداً من صغار النقّاد العاجزين عن كتابة أي شيء. وهي تستقبل كثيراً من أنصار مذهب فوريه، وخاصة شناڤار: ويمكن أن نتساءل عن رأيها في صورة دو برديو.

twitter @baghdad_library

صالونات النبلاء قبل العام ١٧٨٩ ، وبهاء المقاهي يمسح غالباً وبسهولة بريق فرساي الجديدة[١] وعرض البضائع الذي يشبه القصيدة يُنقَض كلّ مساء ، ويعاد تنظيمه كل صباح ؛ وأناقة الشباب وعذوبتهم في اتصالاتهم مع البائعات ، وهيئات الشابات ، الفائقة الجمال وزيناتهن من أجل اجتذاب المشترين ، وأخيراً ، ما تمّ حديثاً ، من تخصيص الأماكن الفسيحة والمدى البعيد للأروقة[٢] التي تجلّى بها الترف البابلي حيث التجّار يحتكرون السلع الخاصة بتجميعها . كل هذا لاشيء! . . . فالأمر ما يزال مقتصرا على إرضاء العضو الأكثر تعطشاً ، والأكثر سأماً ، الذي ازدادت قوته لدى الانسان منذ المجتمع الروماني ، وغدت متطلباته دون حدود بفضل جهود الحضارة الأكثر رهافة . هذا العضو هو **عين الباريسيين**! . . . وهذه العين تستهلك أسهماً نارية بمئة ألف فرنك ، وقصوراً بكيلو مترين طولاً ، وستين قدماً ارتفاعاً من زجاج متعدّد الألوان ، ومسرحيات خارقة في أربعة عشر مسرحاً كل مساء ، وبانورامات متجددة[٣] ، وعوالم من الآلام ، وأكوانا من الفرح في نزهة عبر

---

(١) هجاء ثلاثي ساخر يهدف في آن واحد بخل لويس فيليب ، وقلة ذوقه ، والأعمال التي نفّذها لتحويل فرساي إلى متحف ، وإذا كانت قرساي لويس فيليب تستحق النقد ، فعلى الأقل يمكن الاعتراف له بأنه أنفق ٢٤مليون فرنك لإنقاذ قصر لويس الرابع عشر القديم .

(٢) إلى جانب الممرات والمعابر العديدة المغطاة المنتشرة في باريس ، وبعضها قديم جداً ومعظمها ألغي بعد ذلك . فإن الأروقة التجارية «ذات الترف البابلي» حديثة تقريباً ، وقد كانت منشأة عند كتابة بلزاك لقصته هذه وهكذا فإنّ

رواق ڤيڤيان افتتح في العام ١٨٢٣

ممر شوازُل في العام ١٨٢٥

رواق ڤيرو -دورا في العام ١٨٢٥ وكذلك رواق كولبر

ممر برادي في العام ١٨٢٨

رواق القاريته وكذلك رواق البورصة ، وفيدو ، وسان مارك

أما ممّرات جُوفروا وڤردو فلم تكن قد أحدثت ، وبدأت الأعمال فيها في العامين ١٨٤٥ -١٨٤٦ وكان أقدم رواق هو ممر البانوراما ، وقد افتتح في العام ١٨٠٠ ، حيث تمّت به في العام ١٨١٧ إحدى أولى تجارب الإضاءة بالغاز ، وسنرى هذا الطراز من الإضاءة ، الذي ورد ذكره غالباً في نص **غوديسار الثاني** .

(٣) في كانون الثاني ١٧٩٩ أدخل المهندس الأمريكي روبر فولتون إلى فرنسة براءة اختراع «البانوراما» من ابتكار الرسّام الانكليزي جوزيف باركر في العام ١٧٨٧ فاشتراها جَمْس تاير واشترك مع الرسّام ←

الجادات، أو في تسكع في الشوارع، وموسوعات من الخرق والأسمال في كرنفال، وعشرين مؤلَّفاً مصوّراً في السنة، وألف كاريكاتور، وعشرة آلاف نقش، وطباعة حجرية، وصورة. هذه العين تستهلك ما قيمته خمسة عشر ألف فرنك من الغاز كل مساء؛ أخيرا، من أجل ارضائها، فإن مدينة باريس تنفق سنوياً عدة ملايين على المناظر وعلى الأغراس. وهذا لايعدُّ شيئاً!... فهو الناحية الماديّة من المسألة. نعم؛ إنّه بالنسبة لنا شيء قليل مقارنةً بجهود الذكاء، والخداع، الجديرة بموليير، التي يبذلها ستون ألف مستخدم، وأربعون ألف آنسة وهم يتهافتون على أكياس المشترين كآلاف الأسماك التي تلاحق فتات الخبز الطافي على مياه السين. وغوديسار المكان معادل على الأقل في قدراته، ونباهته، ومزاحه، وفلسفته للوكيل التجاري الجوّاب الذي غدا النموذج الممثّل لهذه العشيرة[1]. فإن خرج من مخزنه، أو عن اختصاصه، يغدو كمنطاد أفرغ من غازه، فهو مدين بقدراته إلى أوساط بضائعه، كالممثل الذي لايبرع إلا على خشبة مسرحه. وبالرغم من أن المستخدم التجاري الفرنسي، مقارنة مع مستخدمي اوروبة الآخرين، هو أكثر ثقافة منهم، ويمكنه عند الحاجة أن يتحدّث عن الإسفلت، ومرقص مابيل[2]، والبولكا، والأدب، والكتب المصوّرة[3]، وسكك الحديد، والسياسة، والمجالس النيابية،

بيير برفوست لاستثمارها وحقق هذا الأخير ثماني عشرة بانوراما، مثّلت الاوليّتان منها باريس في منظر من أعلى التويلري، وجلاء الانكليز عن طولون العام ١٧٩٣. وبني جناحان دائريّان مقبّبان على جانبي جادة مونمارتر خصيصاً لعرض هذه البانورامات، وأطلق على الممر الفاصل بينهما ممر البانورامات.

(١) جاء في مقدمة لماكس بول فوشه عن أعمال بلزاك المنشورة في العام ١٩٥١ في «نادي الكتاب الفرنسي -الجزء العاشر: «إن غوديسار في نتاج بلزاك شخصية قديمة، تحول تدريجياً إلى بائع جوال بعده صار اسم جنس للبائع البارع في مهنته.

(٢) على أرض في شارع مونتيني أسس معلم رقص اسمه مابيل في العام ١٨١٣ حانة ريفية غدت صالة رقص صغيرة للمستخدمين والفتيات الماجنات حتى العام ١٨٤٢ حيث وسّعها أبناؤها وأقاموا في الموقع «مرقص مابيل»

(٣) يهزأ بلزاك ويهجو في رسالة بعث بها إلى السيدة هانسكا في ٢٢كانون الثاني ١٨٤٣ هذه الكتب الحمقاء مثل «حياة الحيوانات الخاصة» الكتاب المصور الذي بيع منه ٢٥ألف نسخة بسبب توزيع القسائم المنقوشة. بالرغم من أن كتاب «الشيطان في باريس» المشترك به كان كتاباً مصوّراً.

twitter @baghdad_library

والثورة. ولكنه في منتهى الحمق عندما يتخلّى عن مطول بضائعه، وذراع قياسه، وظرفه عند تلقي الطلبات. أما على مبسَط العرض في وضعه المتحفز والكلمات على شفتيه، وعينه على الزبائن، والشال الصوفي في يده، فهو يبزّ تاليران الكبير[1]؛ وهو أسرع بديهة من دزوجيه[2]، وأكثر رقّة من كليوباترة، ويعادل مونروز[3] مقترنا مع موليير، في بيته تاليران يتلاعب بغوديسار، لكنه في مخزنه، غوديسار المتفوّق على تاليران.

فلنشرح هذا التناقض بواقعة:

كانت دوقتان جميلتان تثرثران إلى جانب هذا الأمير الشهير وهما تنتظران أسورةَ سيرسلها أحد أشهر صائغي باريس لتنتقيا واحداً منها، وحضر صانع الصائغ ومعه ثلاثة أسورة، ثلاث روائع، احتارت الدوقتان في أيّها الأفضل. الاختيار! إنّه بارقة ذكاء. أتتردد؟... لامجال ستخطئ. فليس للذوق إيحاءان. أخيراً وبعد عشر دقائق، استُشيرَ الأمير؛ ورأى الدوقتين ينتابهما ألف وجه من التردّد بين الأكثر تميّزاً من سوارين، إذ أنهما من الوهلة الأولى استبعدتا الثالث. ولم يترك الأمير قراءته، ولم ينظر إلى السوارين، بل تأمّل الصانع وسأله: «أيّهما تختار لحبيبتك؟». وأشار الشاب إلى أحد السوارين. فقال أمهر الدبلوماسيين الحديثين: «في هذه الحال خذ الآخر لك، أسعد حبيبتك باسمي مقابل نصيحتك الطيبة التي

---

(١) تاليران (١٧٥٤ -١٨٣٨) السياسي الفرنسي الكبير، كان مطراناً على أوتون في ١٧٨٨، ونائباً في المجلس التأسيسي، أيّد الدستور فنقم عليه البابا، فترك الكهنوت. غدا وزير خارجية نابوليون من ١٧٩٧ -١٨٠٧، انقلب عليه، وشكل الحكومة الموقتة في العام ١٨١٤، وغدا مجدداً وزيراً للخارجية في عهد الملكية الثانية، أيام لويس الثامن عشر، وأخيراً سفيراً لفرنسة في لندن.

(٢) دزوجيه (انطوان) (١٧٧٢ -١٨٢٧) ممثّل هزلي وزجّال، لُقّب بأناكريون الفرنسي كان أحد مفاخر جمعية الزجالين «الكافو».

(٣) مونروز: لويس باريزن الملقب بمونروز (١٨١١ -١٨٨٣) عمل منذ العام ١٨٤١ في الاوديون كممثل ومدير فرقة. لعب دور كينولا في المسرحية، «موارد كينولا» وهي من اعداده. اعتبر مع تالما والآنسة مارس وفردريك لميتر من أشهر ممثلي ذلك العصر.

أمنت للدوقتين أجمل الحليتين» وابتسمت السيدتان وهما واثقتان بأنهما حصلتا على أفضل الأسورة.

تنزل امرأة من عربتها الفخمة، بعد توقفها في شارع ڤيفيين، أمام أحد هذه المخازن الفخمة التي تبيع الشالات، ترافقها سيدة أخرى، فالنسوة يفضلن دائماً أن يكنّ اثنتين في مثل هذه الأنواع من عمليات الشراء. وجميعهن في هذه الحالة يتجولّن في عشرة مخازن قبل أن يقررن، وبين كل مخزن وآخر يسخرن من التمثيلية الصغيرة[1] التي يقوم بها مستخدمو المتجر. فلنتناول أيّهما أكثر تعبيراً عن شخصيته، المشترية أو البائع؟ وأيّهما يتفوق على الآخر في هذه المسرحية الهزلية الصغيرة.

عندما نريد تصوير أكبر عملية في التجارة الباريسية وهي عملية البيع يجب عرض نموذج وتلخيص الموضوع، والحال، هنا، فإن الشال أو الوشاح بقيمة ثلاثة آلاف فرنك سيسبّبان انفعالاً أكبر من قطعة قماش باتيستا أو ثوباً بثلاثمئة فرنك. ولكن يا غرباء العالمين! هذا إن قرأتم هذه الفيزيولوجية عن كشف الحساب، فتأكدوا أن هذا المشهد يحدث أيضاً في مخزن أقمشة باريج بسعر المتر فرنكين أو أقمشة موسلين بسعر أربعة فرنكات للمتر الواحد[2].

كيف يمكنكن أيتها الأميرات أو البورجوازيات أن تحترسن من هذا الشاب الجميل، ذي الوجنتين المخمليتين الملوّنتين كدرّاقة، والعينين البريئتين. المكتسي بأناقة كأحسن أنسبائكن... وصاحب الصوت العذب كهفهفة القماش الذي يلامس أيديكن؟ يوجد هنا ثلاثة أو أربعة: أحدهم ذو عينين سوداوين، وهيئة حازمة، يقول لكلّ منكن «اليك» بلهجة متعالية. والآخر بعينين زرقاوين،

---

(١) لاشكّ أن المرأتين من البورجوازيات البسيطات. فالسيّدة المميّزة تتعامل مع المخازن المشهورة ويذكر أن مثل هذه السخريات في قصة «مرقص سو» كلّفت الآنسة إميلي دي فونتين سعادتها.

(٢) قماش باريج: قماش صوفي خفيف ينسب إلى قرية باريج في البيرنية حيث يحاك. الموسلين: قماش ورد في البدء إلى أوروبة من الموصل العراقية فنسب إليها: الموصلي أو الموسلين.

twitter @baghdad_library

وحركات خجول، وعبارات طيّعة هادئة، يدفعكن للقول: «يا للفتى المسكين، إنّه لم يخلق للتجارة! . . ». هذا بلون أصحر، وعين عسلية ساخرة، وعبارة مستحبّة، وقد وُهب نشاطاً ومرحاً جنوبيين وذاك أشقر محمرّ، ذو لحية كمروحة، متصلّب كشيوعي[1]، قاس، وقور، برباط عنق قاتم، وكلمات مختصرة.

هذه الأنواع المختلفة من المستخدمين، تتجاوب مع الطباع الرئيسة للنساء؛ وهي الأذرع التي تساعد سيّدها، الرجلَ الضخم ذا الوجه الطلق، والجبين العالي نصف الأصلع، وصاحب الكرش كنائب مستوزر، والمنعم عليه أحياناً بوسام جوقة الشرف، لأنه يحافظ على تفوّق المهنة الفرنسية، ويقدّم خطوطاً باستدارة مُرْضية، وهو ربّ عائلة له زوجة وأطفال، ومنزل في الريف، وحساب في البنك. وهذا الشخص ينزل إلى الحلبة كإله يهبط بماكنة عندما تصل الصفقة إلى درجة من التعقيد تتطلب حلاً سريعاً. وهكذا تحاط النسوة بجوّ من الطيبة، والشباب، والملاطفات، والابتسامات، والفكاهات، وبكل ما تقدم الإنسانية المتحضّرة من أمور في منتهى البساطة والخداع. وكل شيء مرتّب بتفرّدات تلائم جميع الأذواق. فلنتعرَّض بكلمة موجزة إلى التأثيرات الطبيعية للبصريات والهندسة المعمارية، والزخرفة؛ كلمة قصيرة، جازمة، رهيبة؛ كلمة هي التاريخ في المكان. فالكتاب الذي تقرؤون فيه هذه الصفحة التثقيفية يباع في البناء رقم ٧٦ من شارع ريشليو، في متجر أنيق أبيض ومذهب، مكسوّ بمخمل أحمر، وفي هذا البناء غرفة فوق الدور الأرضي

---

(١) هو دون شك أحد أنصار مذهب كابت CABET (١٧٨٨ -١٨٥٦) الذي دعا إلى يوطوبيا شيوعية شرحها في كتابه رحلة إلى إيكارية (١٨٤٠). وقد كتب عنه هـ. كاستيل: «هو رجل شريف ومشايعوه أشخاص شرفاء، ذوو طبائع مسالمة ومعقولة، زُهّاد بطبيعتهم، أحاديو الزواج دون مثالية، يرضون بالقليل» (من كتاب الناس والطبائع في فرنسة في عهد ملكية تموز) وكانت الشيوعية موضوع فكاهة في العام ١٨٤٤. وشغلت اهتمام بلزاك بعد ذلك وفي **رسائل رئيسة لبوبليكولا** خطط لها بعد ثورة ١٨٤٨ تنبّأ في الفصل الأول بعنوان «الشيوعية»: «إن فرنسة التي سبق أن أجرت في العام ١٧٨٩، تجربة على حسابها الخاص لتهديم الإقطاع، ستجري دون شكّ وهي الأمينة لسخائها الأحمق تجربة ثانية حول التبعية التي يخلقها المال».

يأتيها النور بوفرة من شارع مينار، وهو يرد كما لدى أحد الرسّامين جلياً، نقياً، واضحاً، موزّعاً بالتساوي في أرجاء المكان. أي متنزّه لم ينظر بإعجاب إلى الفارسي، هذا الملك الأسيوي، المستقر بارتياح على زاوية شارعي البورصة وريشليو، كأنه يقول للمدينة والكون: «إنني أسودُ هنا براحة تفوق راحتي في لاهور». خلال خمسمئة عام يمكن لهذا التمثال المنحوت على زاوية الشارعين، دون هذا التحليل الخالد، أن يسترعي انتباه علماء الآثار، وأن نكتب عنه مؤلّفات بقطع الربع كتلك التي كتبها السيّد كاترمتر عن جوبيتر الأولمبي[1]، وحيث يمكن البرهان على أن نابوليون كان أقرب إلى سوفي[2] في بعض مقاطعات الشرق قبل أن يكون امبراطور الفرنسيين. وبعد فإنّ هذا المخزن الثري اتخذ مقراً له هذه الغرفة الصغيرة فوق الطابق الأرضي وبقدرة أوراق المصرف النقدية استطاع أن يحصل على كامل الشقة بين الطابقين واضطرّت **الملهاة الإنسانية**[3] أن تخلي المكان للملهاة الكشمير. فالفارسي ضحى ببعض ألماسات تاجه ليحصل على النور الضروري له[4]. وشعاع الشمس هذا زاد مبيعاته مئة بالمئة بتأثيره على حركة الألوان وإبراز كل إغراءات الشالات. إنّه شعاع لايقاوم، شعاع من ذهب، وعلى هذا النسق ألا

---

(١) كاترمتر دي كينسي (١٧٥٥ - ١٨٥٠): مؤلّف «جوبيتر الأولمبي أو فن النحت القديم من وجهة نظر جديدة» قال عنه لاروس إنه يمتلك معرفة واسعة لكنها غير متمثّلة جيّداً عدا عن إسهابه الطويل.

(٢) سوفي: لقب قديم لملوك فارس.

(٣) المقصود هنا مكتبة هتزل وهو الناشر الرئيس مع فُورن للملهاة الانسانية

(٤) الفارسي: PERSAN: مخزن كان يحمل هذا الاسم لصاحبه لافانشي وقد بيّنت ناشرة هذه القصة، وكاتبة المقدمة والدراسة آن ماري مينينجة في تحقيق دقيق استند إلى وثائق الدوائر العقارية، ودليل التجارة الباريسي أن هتزل استقر في هذا المكان في ١ تموز ١٨٤٣ لكنه سرعان ما أخلاه لمصلحة لافنشي صاحب متجر الشالات الفارسية المجاور له كما بينت وجود بعض الصور القديمة من وضع بست وليلوار وهوتلن ورينيه تمثل المكان في العام ١٨٤٨ وتبدو فيها لوحة تحمل اسم المتجر الفارسي كما يظهر فيها تمثال «ملك آسية» على زاوية شارع ريشليو وهو أشبه بجندي زواف (الجندي المراكشي الفرنسي). هذا التمثال الذي رفع بعد ذلك ومايزال محفوظاً في متحف كارنفاله.

twitter @baghdad_library

تحكمون على إخراج جميع المخازن الباريسية؟ لنعد إلى هؤلاء الشباب، وإلى هذا الرجل الأربعيني، حامل وسام جوقة الشرف، الذي يُدعى إلى مائدة ملك الفرنسيين[1]، وإلى هذا المستخدم ذي اللحية الحمراء والمظهر الاستبدادي! وهؤلاء الغوديسار المحنكين الذي يُمتحنون بألف نزوة كل أسبوع، لكنهم يعرفون ما تحدثه خَمَلات الكشمير من رعشة في قلوب النساء، فعندما تظهر على باب المتجر إحدى اللعوبات أو السيّدات الوقورات، أو دوقة، أو بورجوازية ثريّة، أوراقصة متهتكة، أو آنسة بريئة، أو أجنبيّة ساذجة، فإنها تفحص بعناية ما أن تضع يدها على قبضة باب المتجر من قبل هؤلاء المستخدمين السبعة أو الثمانية الموزّعين بين النوافذ، وصندوق المحاسبة، والباب، والزاوية، ووسط المخزن، وتبدو عليهم سحنة من ينتظر أفراح يوم أحد صاخب، مما يدفع من يتأملهم إلى التساؤل: «بماذا يمكن أن يفكروا؟» فمحفظة امرأة ورغباتها، ونواياها، ونزواتها، تفحص في لحظة بأدقّ من فحص رجال الجمارك لعربة مشبوهة على الحدود خلال ساعتين فهؤلاء الشجعان الأذكياء الرصينون كآباء نبلاء، لاحظوا كلّ شيء: تفاصيل هندامها، وطرف قبعة مدلّى أو شريط فيها بدا متسخاً أو لم يحسن اختياره، تفصيلة الثوب وطرازه، جدّة القفّازين، الأناقة التي تتجلّى فيها مقصّات ڤيكتورين الرابعة[2] الذكية، دمية الموضة. أخيراً كل ما يمكن أن يكشف في المرأة عن ميزتها، وثروتها، وطبعها. ارتعشن أيّتها السيّدات! فمجمّع الغوديسريين هذا الذي يرأسه صاحب المتجر لايخطئ. كما أن أفكار كلّ واحد تنتقل إلى الآخر بسرعة البرق بالنظرات، والحركات العصبية، والابتسامات، وحركات الشفتين، حتى ليمكنكنّ بملاحظتها

(١) هجاء وسخرية مما اعتادت صحف العصر الصغيرة أن توجهه للملك لويس فيليب حول بخله، وقلّة ذوقه، ومظلّته والواقع كما كتب هـ. كاستيل «أن النبلاء ابتعدوا عن بلاط الملك، ولم يجد حوله إلا بعض أصحاب المتاجر المغتنين، والفلاحين محدثي النعمة، وصغار الموظفين، والقضاة.

(٢) في العام ١٨٤٤ كانت الخيّاطة المفضّلة لدى بلزاك هي السيدة سوينار، وفي العام ١٨٤٦ استبدل بها السيدة ڤيكتورين الرابعة، والرقم يعود لعنوان الشركة المسجّل: فقد كان أولاً «فيكتورين بيرّار» ثم غدا «السيّدات فيكتورين بيرار» وبعدها «فيكتورين بيرار وراسكول» لينتهي أخيراً «فيكتورين راسكول».

القول بأنّ الإضاءة المفاجئة لجادة الشانزليزه الكبرى، عندما ينتقل الغاز من مصباح إلى آخر تشبه الفكرة التي تضيء الحَدَقات عند انتقالها بين مستخدم وآخر.

وعندما تكون الوافدة انكليزية يتقدّم غوديسار المكفهر، الغامض والحاسم كأحد شخصيات لورد بايرون الروائية، وإن كانت بورجوازية يُحوّل اليها الأكبر سناً من المستخدمين ليعرض لها خلال ربع ساعة مئة شال، ويدوّخها بالألوان والرسوم، ويبسط لها عدداً من الشالات بقدر الدورات التي تُجريها الحدّأة فوق أرنب، وخلال نصف ساعة تنذهل البورجوازية الفاضلة ولاتعرف ماذا تختار؛ وتفوض أمرها للمستخدم الذي يضعها في مأزق إغراء متعادل لشالين قائلاً: هذا مناسب جداً يا سيدتي فهو بلون أخضر تفاحي، وهو اللون الدارج حالياً، لكن الدُرجَة تتغيّر. بينما ذاك (الأسود أو الأبيض مما يرغب في بيعه سريعاً، فلن تري له نهاية عدا عن أنه يماشي جميع الثياب».

هذه هي ألف باء المهنة.

«لايمكننا تقدير مدى مايلزم من فصاحة في هذه المهنة الماكرة» قال أخيراً الغوديسار الأوّل في المؤسسة لصديقين له هما دورنُسره وبيكسيو اللذين حضرا لشراء شال معتمدين عليه في حسن الاختيار؛ وبما أنكما من الفنانين الرزينين فيمكن التحدّث معكما عن حِيَل معلمنا وهو، بالتأكيد، أدهى رجل رأيته، أنا لا أتحدث عنه كمصنّع، فالسيد فريتو هو الأقوى، لكن كبائع، ابتكر شال-سليم، وهو شال يتعذّر بيعه، لكننا نبيعه دائماً؛ ونحن نحتفظ به في علبة من خشب الأرز، بسيطة جداً لكنها مبطّنة بالأطلس، شالاً بقيمة خمسمئة إلى ستمئة فرنك، إنّه أحد الشالات المرسلة من السلطان سليم[1] إلى الامبراطور نابوليون. هذا الشال هو حارسنا الامبراطوري، نعرضه عندما نفقد الأمل في الصفقة: «فهو يباع لكنه لايموت»[2].

(١) السلطان سليم الثالث (١٧٦١ -١٨٠٨) أحد المؤيدين للعلاقات التقليدية الطيّبة بين السلطنة العُثمانية وفرنسة. لكنه اضطر لقطعها خلال غزو مصر، لكنه قام بذلك متأخّراً وبنتائج فاشلة أدت إلى إجباره بعقد صلح سريع في العام ١٨٠٢. ويعتقد أن هذا السلطان قد أهدى نابوليون -عندما كان قنصلا أولا -وليس امبراطوراً مجموعة من الشالات.

(٢) محاكاة ساخرة للعبارة: «الحرس يموت لكنه لايستسلم» المنسوبة خطأً لكامبرون.

twitter @baghdad_library

في هذه اللحظة تخرج انكليزية من عربة أجرة، وتظهر في مثال جميل عن هذا البرود الخاص بانكلترة، وبجميع منتجاتها المدّعى بحيويتها، فكأنها تمثال فارس يسير ببعض قفزات في بشاعة صنعت في لندن بعناية وطنية لجميع العائلات[1].

همس المستخدم في أذن بيكسيو: «الانكليزيات هن معركة واترلو بالنسبة لنا، هناك نسوة ينزلقن من أيدينا كالحنكليس فندركهن على السلّم؛ ولعوبات يمازحننا، فنضحك معهن، ونبيعهن تقسيطاً. وأجنبيات عويصات نحمل إلى منازلهن عدة شالات ونصل إلى تفاهم معهن بعد أن نمطرهن بالإطراءات. أما الانكليزية فإنّها بصمود برونز تمثال لويس الرابع عشر[2]... فهؤلاء النسوة يجدن متعة في المساومة، ويجعلنها شغلهن الشاغل، إنّهن يدفعننا إلى الاستسلام...

تقدّم المستخدم الروائي من السيدة الانكليزية وسألها: «أتريد سيّدتي شالاً من الهند أو من فرنسة، من ذات الأسعار العالية، أم[3]...

- سأرى.

- أي مبلغ تخصصه السيّدة لهذا الشال؟

- سأرى.

---

(١) تتضمّن الملهاة الإنسانية عدة «ملاطفات» من هذا النوع تجاه الانكليزيات، حتى أن بعضها غدت موضع المثل، وهكذا كتب بلزاك في العام ١٨٣٣ في «نظرية المسعى» يصف انكليزية (كانت تسير وهي تقفز حول نفقها، على نسق دجاجة قُصّ ريش جناحيها، ومازالت تحاول الطيران.

(٢) هو تمثال مجاور لمخزن الشالات إذ أنه منصوب في ساحة «فيكتوار» لكن صموده لايعود فقط لصلابة البرونز المشكّل له وإنّما أيضاً لقضبان من الحديد مخفية في ذنب الحصان وتثبت كامل التمثال في القاعدة التي نصب فوقها.

(٣) لعل المستخدم أراد أن يذكر: «أم من الصين»، ذات الصنف الرخيص.

وبالتفاتته لأخذ الشالات ليبسطها على حامل معطف، ألقى المستخدم نظرة معبّرة على زملائه، مرفقة بحركة كتفين غير ملحوظة تعني (أي إزعاج).

- «هوذا أجمل الأصناف التي لدينا الواردة من الهند بألوانها الحمراء، والصفراء البرتقالية، والزرقاء وجميعها بسعر عشرة آلاف فرنك... وهوّذا تلك بخمسة آلاف، وأولئك بثلاثة آلاف».

نظرت الانكليزية بلا مبالاة قاتمة حولها، قبل أن تنظر للمعروضات الثلاثة أمامها، دون أن تبدر منها اشارة موافقة أو عدم موافقة.

سألت: هل لديك غيرها؟.

- نعم، يا سيدتي، لكن ربما كانت السيدة لاتنوي شراء شال؟!

- أوه! إنني أنوي تماماً

وذهب المستخدم ليأتي بشالات ذات سعر أدنى؛ لكنه عرضها بمظهر احتفالي كأنها تُحَف، وكأنه يقول: يا لها من روائع!

قال: هذا أغلى بكثير، إذ أنها لم تطرح حتى الآن للبيع ولم يسبق لأحد ارتدائها، إذ أنّها وردتنا بالبريد مباشرة من قبل مصنّعيها في لاهور.

- أوه! أنا أدرك ذلك، وهي أكثر ملائمة لي.

- بقي المستخدم محافظاً على رزانته رغم الغيظ المتأجج في دخيلة نفسه، والمنتقل إلى دورنسره وبيكسيو؛ أما الانكليزية فبقيت باردة كنبتة قُرّة، وبدَت مسرورة ببرودها وقالت وهي تشير إلى شال أزرق سماوي توزعت عليه رسوم عصافير معششة في معابد بوذيّة: «ما ثمن هذا؟»

- سبعة آلاف فرنك».

تناولت الشال والتفت به، ونظرت إلى نفسها في المرآة، وقالت وهي تعيده: «كلا، لم أحبه».

twitter @baghdad_library

ومرّت ربع ساعة في تجارب غير مثمرة.

قال المستخدم وهو ينظر إلى معلمه: لم يعد لدينا شيء يا سيّدتي.

تقدّم صاحب المؤسّسة بهذه التظارفات المتجرية التي تمتزج فيها مزايا المتكلّف والذلِق بكل توافق وقال: «تبدو السيدة صعبة في اختيارها كجميع الأشخاص أصحاب الذوق الرفيع» تناولت الانكليزية منظارها ورمقت التاجر من رأسه إلى أخمص قدميه دون أن يبدو عليها الاهتمام بهذا الرجل المرشّح للنيابة، والمتردّد على قصر التويلري. وتابع صاحب المتجر: «لم يبق لديّ إلا شال واحد، لكنني لا أعرضه، فما من أحد يجده على ذوقه، فهو غريب جداً، وفي هذا الصباح رأيت أن أمنحه لزوجتي، فهو يعود للعام ١٨٠٥، وكان ملكا للامبراطورة جوزفين.

- أرني إياه، يا سيّد

قال المعلم لأحد المستخدمين: اذهب وأحضره من منزلي...

ردّت الإنكليزية: سأكون مسرورة جداً لرؤيته

كان هذا الجواب انتصاراً، إذ بدت هذه المرأة النَكِدة على أهبة الانصراف، وكانت تتظاهر بأنها لاترى إلا الشالات، بينما هي تنظر إلى المستخدمين والمشترين برياء، وقد أخفت حدقة عينها خلف إطار منظارها الصغير.

- «لقد كلف ستين ألف فرنك في تركية يا سيّدتي.

- أوه!

- إنّه أحد سبعة شالات أرسلها السلطان سليم، قبل نكبته، إلى الامبراطور نابوليون. وتخلت عنه الأمبراطورة جوزفين، وهي مولّدة مستعمرات نزوية جداً، كما تعلم الليدي؛ مقابل شال آخر مما أتى به السفير التركي واشتراه سلفي صاحب المحل سابقاً. لكنني لم أجد أبداً ما يشير إلى ثمنه؛ فسيداتنا في فرنسة لسن على قدر من الغنى كما سيّدات انكلترة.. هذا الشال يساوي سبعة آلاف فرنك وهي بالتأكيد تمثّل مع فوائدها المركبة أربعة عشر أو خمسة عشر ألفاً.

قدر من الغنى كما سيّدات انكلترة . . هذا الشال يساوي سبعة آلاف فرنك وهي بالتأكيد تمثّل مع فوائدها المركبة أربعة عشر أو خمسة عشر ألفاً .

قالت الانكليزية : مركّبة من ماذا؟

- ها هو يا سيّدتي» .

وبمثل الاحتياطات التي يتخذها عارضو متحف «غرينز جولب»[1] في درسدن، فتح المعلّم بمفتاح صغير علبة مربعة من خشب الأرز، كان لها بشكلها وبساطتها أثراً عميقاً على الانكليزية، ومن تلك العلبة المبطنة بأطلس أسود، أخرج شالاً لا تتجاوز قيمته ألف وخمسمئة فرنك، بلون أصفر ذهبي ورسوم سوداء، لايبزُّ ألَقَه إلا غرابة الابتكارات الهندية .

قالت الانكليزية وقد اختلطت عباراتها الفرنسية بصيحات اعجاب انكليزية : يا للروعة! كم هو جميل . هوذا الشال المثالي الذي أريده . إنّه حقاً مدهش . . . »

ضاعت بقية الكلام في وضع المادونا الذي اتخذته لتظهر عينيها اللتين تعتقد بجمالهما رغم ما فيهما من برود .

استأنف صاحب المتجر : «أحب نابوليون هذا الشال كثيراً، واستخدمه

ردّدت وراءه : كثيراً»

أخذت الشال والتفت به وتأمّلت نفسها وهي فيه . وتناوله المعلم ودعكه لها في النور، وحرّكه، وكال له مجدّداً المديح بطَرَب كأنه ليْست يعزف إحدى قطعه الموسيقية المفضلة على البيانو .

ردّت الانكليزية بهيئة ملؤها الثقة وبلغتها الأم : جميل جداً، رائع، جذّاب .

تبادل دورنسره وبيكسيو والمستخدمون بسرور نظرات تعني : «إن الشال قد بيع » .

سأل التاجر وهو يرى الانكليزية وقد غرقت في نوع من التفكير الطويل بدا

(١) غرينز جولب : «القبة الخضراء» متحف الفن الزخرفي الشهير في درسدن وقد زاره بلزاك في أيار ١٨٤٥ .

twitter @baghdad_library

صدرت عن مستخدمي المتجر الصامتين، المتنبهين انتفاضة هزّتهم جميعاً في وقت واحد، كأن تيّاراً كهربائيا مسَّهم في آن واحد.

أجاب المعلم بهدوء: «لدي واحدة هي الأجمل، وقد وردتني من أميرة روسية، الأميرة نارزيكوف، التي تركتها لي تسديداً لتوريدات بضائع؛ فإذا أرادت سيّدتي رؤيتها فستعجب بها كثيراً؛ إنّها جديدة، لم يمض عليها في الاستعمال عشرة أيام، وليس لها مثيل في باريس.

حبس المستخدمون دهشتهم بإعجابهم العميق.

ردت الانكليزية: «أتمنى ذلك.

قال التاجر: احتفظي يا سيدتي بالشال لتري تأثيره في العربة».

وذهب التاجر فتناول قفازيه وقبعته

قال المستخدم الأوّل وهو يرى الانكليزية تتأبط ذراع معلمه ويذهبان معاً في عربة الأجرة: «كيف سينتهي هذا الأمر؟...»

ظهر هذا بالنسبة لدورنسره وبيكسيو بسحر خاتمة رواية، إضافة إلى الاهتمام الخاص بجميع الصراعات حتى التافهة القائمة بين انكلترة وفرنسة.

بعد نحو عشرين دقيقة، عاد صاحب المتجر؛ وقال لأحد مستخدميه:

«اذهب إلى فندق لوسون [1]، وهوّذا البطاقة: «السيّدة نُوزول» احمل لها كشف الحساب الذي سأعطيه لك، واقبض ستة آلاف فرنك».

سأل دورنُسره وهو يحيي ملك الفواتير: «ولكن كيف فعلت؟

- إيه، أيّها السيّد، إنني أعرف هذه الطبيعة في المرأة الغريبة الأطوار، إنّها تحبّ أن تلفت الأنظار، وعندما رأت جميع الناس ينظرون إلى شالها قالت لي: احتفظ بالعربة يا سيدي، فسآخذ الشال قطعاً واستأنف مشيراً إلى مستخدمه الروائي:

(١) تفصيل حقيقي وصحيح فدليل تجارة ذلك العصر يشير إلى «لوسون؛ فندق مؤثّث، بدفورد، شارعا سان انوره ٣٢٣ وريفولي ٢٤.

«عندما لاحظت بيغورنو يبسط لها الشالات، نظرت إلى هذه المرأة، فرأيتها تتفحصكم لترى أي فكرة تأخذون عنها، وكانت مهتمة بكم أكثر من اهتمامها بالشالات. إن للانكليزيات قلة ذوق خاصة(إذ لايمكن أن نسمّي هذا ذوقاً) فهن لايعرفن ما يردن، تعزم على أن تأخذ الشيء الذي ساومت عليه بهزّة ظرف مفاجئ، لابتصميم إرادي. تعرّفت على إحدى هؤلاء السيّدات المتضجّرات من أزواجهن، وهن دائماً كالصفصاف الباكي . . .»

هوّذا ما قاله حرفياً صاحب المؤسّسة».

وهذا يبرهن على أن في تاجر أي بلد غير فرنسة لايوجد إلا التاجر، أمّا في فرنسة وخاصة في باريس، ففي كل تاجر رجل خريج الكليّة الملكيّة، مثقّف، هاو للفنون، أو الصيد، أو المسرح، أو تتملكه الرغبة في أن يخلف السيّد كُونن -غريدن[1]، أو أن يغدو عميداً في الحرس الوطني، أو عضواً في المجلس العام لمقاطعة السين، أو قاضياً في محكمة التجارة.

قالت زوجة صاحب المؤسّسة للمستخدم الصغير الأشقر: «سيّد أدولف، اذهب وأوص على علبة من خشب الأرز لدى النجّار.

وقال المستخدم وهو يودّع دورنسره وبيكسيو بعد أن اختار شالاً للسيّدة شونتز: سنختار من بين شالاتنا القديمة شالا يصلح ليلعب دور شال السلطان سليم.

باريس تشرين ثاني ١٨٤٤

انتهت

(١) أي أن يغدو وزيراً للتجارة ككونن -غريدن الذي تولّى هذا المنصب في وزارتي سولت: وزارة ١٢ أيار ١٨٣٩، ووزارة ٢٩ تشرين أوّل ١٨٤٠. وحتى ثورة ١٨٤٨. ولوران كونن الملقب كونن -غريدن (١٧٧٨ -١٨٥٩) يجسّد جيّداً النجاح في نظر التجّار. فقد كان صانعاً بسيطاً في معمل جوخ غريدن في سيدان، فغدا شريك معلمه، ثم صهره، ثمّ خليفته. وانتخب نائباً ليبرالياً في العام ١٨٢٧ وأحد النواب الـ٢٢١ في العام ١٨٣٠ وغدا أحد أركان عهد لويس فيليب وكان لوران كونن بسيرته وطبعه وحتى بوجهه المنشرح نموذج شخصية فيلياس بوفيزاج المعتبر أتيلا صناعة القبّعات في رواية بلزاك الأخيرة: «نائب آرسي»

twitter @baghdad_library

دراسة حول المؤلّف والقصة

إعداد: آن ماري مينينجه

أعدت قصة **غوديسار الثاني**، في الأساس، كمشهد مسرحي قصير «اسكتش» ليدرج في دليل **الشيطان في باريس**. ووجب أن تدرج في **ممثلين غافلين**(*)، وألحقت فعلاً في الطبعة الجديدة لهذا النصّ، الذي نشر بعد **الملهاة الإنسانية**، تحت عنوان **رجل من المقاطعات في باريس**. وهي من هذا المنطلق تعتبر تفاهة؛ لكن هذه التفاهة لها قيمة جزء من صورة قديمة جداً، وتزداد قيمتها أيضاً بإمعان التأمّل فيها. فدوميه[1] قد ترك من هذه الصور الخاطفة مايزيد، بتكبير الرئيس منها، حقائق عصره وضوحاً.

إنّها تجسيد لعصر رئيس وزراء شعاره «اسعوا إلى الغنى»، وملك يعتبر وفقاً لتعبير هـ. كاستي «العائلة بمثابة شركة ذات اسم: فلان وشركاه»[2]. هي قطعة من صورة، وهذه الصورة بشكلها الكامل لايمكن أن تمثّل أكثر من متجر واسع؛ حفَظت هذه القطعة بالضبط مظهر صاحب هذا المتجر، وهو تاجر شالات يسعى إلى الغنى عن طريق مخزن بعنوان **الفارسي**، ووسائله «معرفة البيع، والقدرة على البيع، والبيع!» و«هي الوجوه الثلاثة لمسألة» تمثّل مشترية انكليزية صعوباتها. وإذا كانت

(*) خشرت هذه الرواية سابقاً مع العديد من روايات بلزاك التي تنشرها وزارة الثقافة تباعاً

(١) دوميه (١٨٠٨ -١٨٧٩): رسّام، وطبّاع حجري، ونحّات. اشتهر بصور كاريكاتورية سياسية واجتماعية لعصره.

(٢) هيبوليت كاستي: (١٨٢٠ -١٨٨٦): صحفي وروائي فرنسي والعبارة مأخوذة من كتابه: «الناس والطبائع في ظل ملكية تموز -١٨٥٣. (ص٢٠٦).

twitter @baghdad_library

السيّدة نوزويل تظهر بالأحرى ككاريكاتور ذي بروز معبّر؛ فإن الباقي حقيقي بكل بساطة: التـرف الضـروري للتـجـارة في أربعـينيـات ذلك القـرن، والحيل التي تقتضيها؛ والمخزن «الفارسي» بذاته، وحتى لقب «غوديسار شارع ريشليو». غير أن هذه التفاصيل، وهذه الشالات، وهذا اللقب، لم تكن لتشكّل بكل احتمال موضوعاً في العام ١٨٤٤، لو لم يفتح هتزل، في حزيران ١٨٤٣، مكتبة لبيع بالمفرّق لدليل «**الشيطان في باريس**» ولمجموعة «**الملهاة الانسانية**». في البناء رقم ٧٦ في شارع ريشليو.

في هذا البناء رقم ٧٦ بالذات ازدهر متجر شالات منذ أن انتقلت ملكيته إلى أيدي تاجر جديد. وكان اسم هذا المتجر «**الفارسي**»، واسم المالك لافانشي. وهو يبرهن عن مواهب لا تقل عن مواهب التاجر في القصة. ففي العام ١٨٤٣، وصل إلى رتبة التاجر «العين»؛ وما كاد هتزل يستقر حتى وسع مخزن «الفارسي» بضم غرفة المكتبة بين الطابقين، حيث وجب غالباً قبل تحرير **غوديسار الثاني** أن تدوّن أصداء مآثر تاجر الشالات. ذلك هو الأصل الحقيقي للقصة.

أما العنوان فهو يذكّر، بالطبع، بشخصية بلزاكية شهيرة، شخصية الوكيل التجاري الجوّاب الذي لا متجر له. والواقع أن ظهور اسم غوديسار مجدّداً في العام ١٨٤٤ قد يتوضح بصدفة فريدة كشف لنا عنها السجّل العقاري ففي مواجهة البناء رقم ٧٦ من شارع ريشليو ومقابل المبنى رقم ١٠ من شارع مينار، حيث استقر هتزل، في ذات الوقت الذي افتتح فيه متجره يوجد البناء رقم ٩ في شارع مينار ومالكه الساكن فيه يسمى آندره -جرمن غوديسار، ثم ولده الكسندر غوديسار[١].

الواحد أو الآخر من هذين الغوديسارين، وهما الوحيدان في باريس اللذان يحملان هذا الاسم منذ ولادة غوديسار الشهير في العام ١٨٣٣، يمكن أن يكون قد اعتمد لتسميةٍ هذه الشخصية. وتطعيم صاحب متجر «الفارسي» بهذا الاسم، وقد اقترحته الصدفة بعد عشر سنوات، وأجري في لمحة عين من قبل هتزل، لم يتوطد

(١) سجلات باريس DQ 18.235

جيّداً، فقد بقي غوديسار للأجيال القادمة، وكيلا تجاريا جوّاباً، وبعد كل حساب، فإن مجد غوديسار الشهير كَسَف جدارة مبتكر شال -سليم.

غير أن هذا الابتكار يستند على قواعد صلبة.. ويخطّ ا. تكسيه، العام ١٨٥١، تاريخ الكشميرات والإقبال عليها؛ فيذكر في كتابه **لوحة باريس**: إنّها، مبدئياً، من نتائج غزوتنا لمصر، فقد أرسل بونابرت اثنين منها لزوجته[١]» وشال -سليم، مع تذكيره بانتصار بونابرت يهيء فرصة، بتوسّط جوزفين، ليمثّل استسلام انكليزية أمام تاجر، وكأنّه ثأر لموقعة واترلو. عدا عن ذلك، فإن السيّدة نوزويل تهيء لبلزاك فرصة تسلية -لايقاسمه إياها إلا قليل من القرّاء- بإحدى هذه التقليدات للكُنة مال إلى السخرية منها في أوقات كثيرة، وبدأها منذ العام ١٨٢١ برسالة إلى أخته لور يقصّ فيها عليها تصريح زوجة لامرتين الانكليزية للشاعر بحبها له قبل الزواج بتلك اللكنة: «أودّ كثيراً أن أتزوّجك لأنني أحببت بشغف قصيدة البحيرة[٢]» لكن بيع شال-سليم أتاح خاصة تمثيل مختلف نماذج البائعين، من «الشاب الوسيم ذي الخدّ المخملي» حتى المعلم بشخصه، «مع تظارفاته المتجريّة التي تمتزج فيها مزايا المتكلّف والذلِق بكل توافق؛ مروراً بالمستخدم ذي العينين السوداوين والهيئة الحازمة؛ والمستخدَم «ذي العينين العسليتين الساخرتين، والعبارة المستحبة، الذي وهب نشاطاً ومرحاً جنوبيين»؛ والمستخدم «الأشقر المحمّر ذي الكلمات المختصرة». والمستخدم الذي «يعرض مئة شال في ربع ساعة» للبورجوازية المحترمة التي تنتابها الحيرة ولاتعرف ماذا تختار. أكان هؤلاء المستخدمون متصوّرين ضمن الإطار الحقيقي «للفارسي»؟. وبالتالي فلا موضوع «فيزيولوجية البائع» هذه، ولا تحريكه يشكّلان ابتكاراً.

في مجمل نُشِر في العام ١٨٣٤ من قبل الكاتب المغمور أوغوست لوشه في **كتاب مئة وواحد**[٣] بعنوان **مخازن باريس**، يُصوّر على نحوٍ ملفت للنظر **غوديسار**

---

(١) ا. تكسيه: لوحة باريس. جزء أول. ص: ٣٢٢

(٢) مراسلات بلزاك الجزء الأول (١٠٢ -١٠٣).

(٣) كتاب «مئة وواحد. الجزء الخامس عشر (ص٢٣٧ -٢٦٨)

twitter @baghdad_library

الثاني بموضوعه، والمشهد المسرحي القصير الداعم له، هذا المشهد الممثّل لمراحل إخفاق متسكع دخل إلى مخزن سلع مستحدثة، وهو يقول في نفسه: «لأذهب لأرى، فأنا غير مضطر للشراء»؛ ويتصدى له مستخدم شاب «نحيل وشاحب» ثم ينتقل المتسكّع سَلَف السيدة نوزويل إلى يدي فتى طويل قوي البنية في العشرين من العمر ذي هوَس بمقتضيات العمل فيبسط أمامه «شلالات من القماش المطبَّع الهندي» ويعرض تسلسل تاريخ بعض الأقمشة الفارسية المماثل لتاريخ شال-سليم. فيقف البورجوازي أمام هذا المستخدم «حائراً، مذهولاً»، مسمّراً أمام هذا الجبل من الأقمشة، دون أن يختار شيئاً». وقد وجد كل ذلك مروّعاً. هذا التردّد الجدير بالانكليزية، وهذا النفور المماثل لعبارتها «لم أحبب هذا» يدفع إلى الحلبة «سيّداً ذا عارضين، ووشاح عنق أبيض، وقد زرّر سترته من الأعلى إلى الأسفل، ذا وجه بشوش وعين نافذة»، وقام بعمل مماثل لما قام به غوديسار الثاني، فقدّم القطعة النادرة، المحمولة من المستودع بناء على إيعاز ملفوظ «بصوت قوي وآمر» وهيّأ انتصار تاجر لوشه الانتصار «للحريري»، المستخدم «المتأنق، ذي سترة الحرير المقصب»، ثم انتصار «ذي الخيط الأبيض»، الرجل «ذي الكرش الكبير، والمتزين بالحليّ، الفلمندي الصافي السلالة، المتباطئ في كلماته»، ثم انتصار «الأبيض كالقطن، الشاب الناعم النضر، البيكاردي، صاحب البشرة المخملية». وأخيراً انتصار «الجوّاخ النورماندي القصير، والبدين، ذي الاكتاف العريضة» المتمركز في الدَّور فوق الأرضي «لينهي مهمة المضارب». وعدا «عن قطعة القماش الهندية ذات اللون الأكلف، ونقش عصفور الجنة»، انتهى استسلام المهزوم بشراء بطانة أطلس، ونسيج دُبلان، وبنطالين ومعطف.

في هذا التكليف المُلِّح، يتعلق الأمر إذاً «بجهود الذكاء»، التي سيصوّرها بلزاك بعد ذلك بعشر سنوات: «خِدعٌ جديرة بموليير، يستخدمها ستون ألف مستخدم، وأربعون ألف آنسة يتهافتون على محافظ المشترين». وحول التنافس

على جذب الزبائن قامت «مخازن بمثل ترف صالونات النبلاء قبل العام ١٧٨٩» وكان لوشه قد لاحظ سابقاً عدوى البرونز والمرايا و«الصراع الغريب في كل المدينة بين الواجهات، وتنظيمات عرض البضائع، واللافتات» عدا عن وسيلة أخرى ابتكرت، وفقاً لما ذكر، من قبل أحد تجار السلع المستحدثة: هي **النشرة الدعائية** وقد قال عنها:

«أتحدى أن يوجد في جميع الشعوذات المترفة ضمن المنشورات بفلسين، والصحف بأربعة فرنكات، والقصص عن فرنسة بالبرونز، واسطة أو وسيلة أو حيلة لم تتطرّق إليها النشرات الدعائية لمخازن السلع المستحدثة».

في نهاية سلسلة الشعوذة يوجد شال سليم، ويبدو من النظرة الأولى مزيفاً بشكل مضحك لكنه يسمح على الأقل بملاحظة إلى أيّة درجة وصلت، في العام ١٨٤٤، مشكلة «معرفة البيع، والقدرة على البيع، والبيع» المتعدّلة، بدون انقطاع، منذ موت العهد القديم ونهاية الاستنزافات الامبرطورية، بالتزايد المستمر في الأهمية، والعدد، والثروات لجميع المشترين المحتملين الجُدُد: وهم البورجوازيون. وعن تطوّر الطبائع نتج تطوّر عمليات التاجر الذي يعبّر عنه، بطريقة فكهة، تطوّر مفرداته؛ وهكذا فإن ملاحظاً دقيقاً وطريفاً تبيّن قبل لوشه بالذات، واعتمد عليه هذا في التنبّه إلى «أن صاحب الدكان لم يعد يقول دكاني بل مخزني، ولا يتحدّث عن المتعاملين معه بل عن زبائنه، كما أن فتيان الخدمة لديه غدوا مستخدمين، وورقة الحساب أصبحت فاتورة»[1] بل وأنذر: «بعد عدة أيام، قد يُسمى المستخدم الأوّل معاونَ رئيس»...

وقبل ذلك بأربع سنوات بيَّن بلزاك أن المستخدم الشاب لِبَا غامر بكلمة

---

(١) من المستحسن أن يطّلع القارئ على المقابلات الفرنسية: دكان BOUTIQUE مخزن MAGASIN؛ متعاملون PRATIQUES زبائن CLIENTÈLE؛ فتى GARÇON مستخدم COMMIS؛ ورقة حساب MÉMOIRE فاتورة FACTURE. ربيحة DIVIDENDE ناتج PRODUIT

twitter @baghdad_library

«ربيحة» أمام معلمه، فزجره غيوم الشيخ بعنف قائلاً: «لاتستخدم هذه الكلمات الجديدة قل: الناتج»[1].

بوضع بلزاك قصة «**مجد وشقاء**» في بداية «**الملهاة الإنسانية**»، فإنّه هيّأ السبيل بمهارة للّوحة الكبيرة عن المجتمع يتحوّل إلى شركة تجارية معمّمة، فجوزيف لبَا، خليفة الشيخ غيوم الذي كان كآخر قبطان في البحرية الشراعية سار «بدكانه» القديم إلى أبعد حدّ ممكن؛ يمثّل المرحلة الأولى من تطوّر العمل التجاري في الانتقال إلى عصر «المخزن». وجاء سيزار بيروتو وخليفته بوبينو ليمثّلا بعده المراحل التالية: مرحلة النشرة الدعائية والإعلانات لاقتناص الزبائن الدائمين، ومرحلة المرايا والزخرفات البرونزية لإبهارهم. وإذا كان بيروتو قد أخفق، فليس لأنه قد تطوّر في وقت مبكّر جداً، بل لأنه بقي ساذجاً جداً. غير أن الخِدَع لم تكن قد غدت ضرورية، فبوبينو التزم بذات الأمانة، واستخدم الوسائل نفسها ونجح، ومع بطل قصة **غوديسار الثاني**، حان وقت ذرّ الرماد في الأعيّن والشعوذة، والمذّهبات وشال -سليم، ومايزال مستمراً حتى أيامنا.

دون هذه القصة، التي دخلت بالمصادفة في **الملهاة الانسانية**، لما تتبّع بلزاك حتى نهاية أيامه المراحل التاريخية المتتابعة التي بدأت **بمجد وشقاء**، وتوبعت **بملكة الورود** وسجّل **الفارسي** آخر مرحلة ملاحظة. وأكثر من ذلك، إذ، بالحاق غرفة المكتبة بين الطابقين، بدأت المرحلة التي تليها، وأتاحت الصدفة، بفضل استقرار هتزل بجوار لاڤانشي التاجر التوسعي، لبلزاك أن يختار أحد مهرة بيع الشالات لتمثيل العصر القادم.

في العام ١٨٥٢، كان ارستيد بوسيكو يعمل رئيس قسم محاسبة في شالات **سان توماس ألصغير** وشاءت له المقادير أن يأخذ دكاناً متواضعاً للسلع المستحدثة

---

(١) في قصة: «مجد وشقاء» ونذكّر أن عنوان القصة قد غيّر إلى «منزل الهرّ اللاهي» LA MAISON DU CHAT QUI PELOTE.

بلافتة بون مارشه[1] وأتاحت له سبعة عشر عاماً من النشرات الدعائية، والمذهبات، والمرايا، وشالات سليم، وضم الدكاكين المجاورة، أن يدشّن، في العام ١٨٦٩، أول «مخزن كبير»[2] وفي العام ١٨٨٢ ومع قصة توسُّع **سعادة السيدات** واختفاء الجار **إلبوف العجوز** قدَّم إميل زولا التتمة المنطقية **لغوديسار الثاني**.

آن ماري مينينجه.

---

(١) BON MARCHÉ: السوق الجيّدة. (٢) في قصة: «**مجد وشقاء**» ونذكّر أن عنوان القصة قد غيّر إلى «منزل الهرّ اللاهي» LA MAISON DU CHAT QUI PELOTE.

(٢) GRAND MAGASIN: مؤسسة تجارية كبرى ماتزال قائمة في باريس.

twitter @baghdad_library

الفهرس

الصفحة

أمير من بوهيمية ٣

دراسة حول المؤلف والقصة . «اعداد : باتريك برتية» ٥٣

رجل أعمال ٦٥

دراسة حول المؤلف والقصة : اعداد : آن ماري مينينجة ٩٣

غوديسار الشهير ١٠٣

دراسة حول المؤلف والقصة : اعداد : بيير باربريس ١٥٣

غوديسار الثاني ١٧١

الاهداء : الى الأميرة دي يلجيو ١٧٣

دراسة حول المؤلف والقصة : اعداد : آن ماري مينينجة ١٨٩

twitter @baghdad_library

١٥٠٠ ط١/١٢/٢٠٠٠

twitter @baghdad_library

أربع قُصص تجمع بينها براعة الطُرفة وظُرف الفكاهة ولذعة النقد المبطّن ودقّة ملاحظة المشهد.

١- **أمير من بوهيمية:** البوهيميون بالمعنى الذي قصده بلزاك مجموعة من الشباب تعيش دون ضوابط أو موارد تستند إليها؛ تحيا بالأمل، وتقهر البؤس بالإيمان بالذات، وتتغذى بالمحبة. البوهيمي متحدّث بارع، وراويةَ فكه، وعاشق يعرف كل أنواع الحب: المتأنق، والعاصف، والمتقلب، والعابر خاصة. من أمرائهم لا بالغرين الذي تروي القصة مغامراته ونوادره مع التفاتة إلى المعركة الأدبية القائمة بين بلزاك وسانت بوف وحياة المسرح ومؤلّفيه.

٢- **رجل أعمال:** قصة قصيرة تبدأ بنبذة عن اللوريتات، أولئك الفتيات اللعوبات المرحات اللواتي يستسيغ صحبتهن النبلاء والعيّاشون ومنهم مكسيم دي تراي المَدين الذي يمكر بالدائنين إلى أن يأتي دائن يتمكن بدهائه من المكر به وبفتاته اللعوب.

٣- **غوديسار الشهير:** إنّه الوكيل التجاري الجواب، المتناسق في الشكل والسحنة والصوت واللهجة مع مهنته. الطيّب في تصرفه، الممازح في عمله، الذي أفرزته البورجوازية التجارية وتطوّر وسائل الإعلان وشمولها إلى جانب المواد الاستهلاكية كالشالات والخمور الصحفَ ومجلات الأطفال. في جولة لغوديسار الذي غدا شهيراً يتعرض لممازحة من قروي ماكر يرسله إلى مهووس خفيف العقل ويبدأ بينهما «حوار الطرشان» في قصة ممتعة تتجلى فيها دعابة البسطاء وروح الفكاهة السائدة في الأرياف.

٤- **غوديسار الثاني:** إنّه غوديسار المتجر الثابت وسط أضواء باريس، المستخدم الهادئ ذو الحركات الخجول، والعبارة المستحبة؟ أو سيّدة الرجل الضخم، ذو الوجه الطلق. يتمثلان في متجر «الفارسي» لشالات الكشمير، شعارهما البيع، ومعرفته، والقدرة عليه، يتدخّل السيّد عندما تُذهَل البورجوازية الفاضلة أو الوافدة الانكليزية وتحار في الاختيار محقّقاً القدرة على البيع.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة
دِمَشق ٢٠٠٠

سِعرُ النُّسخَة دَاخِل القُطر
١٢٥ ل.س

في الأقطار العربيّة مَا يُعَادِل
٢٥٠ ل.س